تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها

شبه القارة الهندية الباكستانية وبنجالادش - ايران -
بلاد ما وراء النهر (بخارى الكبرى أو التركستان -
أفغانستان - تركيا

تأليف

الدكتور احمد محمود الساداتى

الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

١٩٧٩



٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ - القاهرة

تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها

شبه القارة الهندية الباكستانية وبنجالادش - ايران -
بلاد ما وراء النهر (بخارى الكبرى أو التركستان) -
أفغانستان - تركيا

تأليف

الدكتور احمد محمود الساداتى
الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

١٩٧٩

دار الثقافة للطباعة والنشر
بالقاهرة

٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله المصطفى من نُرجى شفاعته يوم العرض .

وبعد ، فمن المقرر المعروف أن القارىء المثقف العربي يلم بقدر كاف من تاريخ الدول والشعوب الإسلامية بآسيا منذ أن يبدأ فى تلقى دروس التاريخ فى الصغر .

واستكمالا لدراسة تاريخنا الإسلامى ، فقد هدفت بمجموعة الفصول التى يضمها هذا السفر إلى أن يطالع القارىء ، بقدر من التفصيل ، على تاريخ أهم الدول والشعوب الأخرى بآسيا — حيث تسود الشعوب الإسلامية غير عربية العرق واللسان — وهى دول لها عراقة وأمجاد ثقافية معروفة مشهورة .

وقد اقتصرت فى هذه الدراسة — التى لم يتح لها بعد مجال الانتشار الواجب فى مجتمعنا العربى حتى اليوم — على أهم خمس دول آسيوية هى :

١ — الدول الإسلامية فى شبه القارة الهندية الباكستانية وبنجالادش .

٢ — إيران .

٣ — بلاد ماوراء النهر (بخارى الكبرى أو تركستان) .

٤ — أفغانستان .

٥ — تركيا .

وهذه الفصول ، هى فى الواقع إجمال شامل ، مع إضافات حديثة ، لبعض أسفار كبيرة سبق لى نشرها — إما تأليفاً أو ترجمة مع تعليقات وزيادات — تجدها كلها مثبتة بين المراجع فى آخر الكتاب .

وفضلا عما تحويه هذه الأسفار من التفصيل والشرح ، فإن بآخرها كذلك ثبتاً موسعاً لفيض من المراجع الأخرى ، فى تاريخ تلك البلاد وحضارتها ، لمن يبغى فى العلم الاستزادة ويروم من المعرفة الاستفادة .

والله الموفق ؟

المعادى { ذو الحجة ١٣٩٨ هـ
ديسمبر ١٩٧٨ م

ا : د . احمد محمود الساداتى

١

تاريخ الشعوب الاسلامية وحضارتها

في

شبه القارة الهندية

بسم الله الرحمن الرحيم

الهند القديمة

شبه القارة الهندية التي انطلق المسلمون يغزونها منذ أواخر القرن الأول الهجري كانت لها حضارة ومدنية ضارعت حضارات الفرس والمصريين والإغريق القدامى ، وإلى هذا أشار الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » حيث يقول « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم .

لذا كان من المناسب قبل أن نستعرض تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها فى تلك البلاد أن نتحدث حديثاً مجملا عن هذه الأرض ، أى عن شبه القارة الهندية وماضيها .

اختلف الناس فى منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها إلى « إندرا » إله الهند القديمة ومنهم من نسبها إلى السند ذلك النهر الذى كان يعرفه الفرس القدماء باسم « هندهو » أى النهر ، جرياً على عادتهم فى القديم بإبدال السين السنسكريتية بالهاء ، وكان نفوذهم قد امتد قبل غزو الإسكندر لبلادهم حتى شمل البنجاب فترات طويلة ، والفرس بدورهم هم الذين أطلقوا اسم « هندستان » على الشمال الهندى ويعنون بذلك أرض الأنهار ، وعنهم أخذ المؤرخون هذه التسمية .

وشبه القارة الهندية هذه كتلة بالغة الضخامة من اليابس فيه إجمال لجميع أدوار تاريخ البشرية فى شتى صوره ، ففيها تمثيل كامل لعروق الآدميين وما عرفوه من معتقدات منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد .

وبها أيضاً تمثيل كامل للأجواء المتباينة ، ففي شمالها تكسو الثلوج قمم الجبال على مدار السنة ، ونجد الناس هناك ولهم بياض أهل الشمال الأوروبي ، ثم يتدرج الجو ومعه لون البشرة كلما اتجه المرء جنوباً حتى يبلغ مناطق يسودها مناخ الأقاليم الاستوائية ويسكنها أناس لهم سمرة أبناء تلك المناطق وسماتهم . وبالهند كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبات تمثيل كامل لما بالكون كله كذلك . فلو تخيلناها قد انفصلت عن القارة الآسيةفانطلقت في المحيط لأوفت بما عليها من صنوف الإنسان والحيوان على كل ما حكى عن ذلك نوح عليه السلام في الكتب المقدسة والأساطير على السواء .

فهي في الواقع عالم بذاته يعزله عن بقية القارة الآسيوية في الشمال جبال ، الهملايا الشاهقة التي تعرف بسقف الدنيا ويتفرع منها في الشرق جبال آسام ، أما في الغرب فيتفرع منها جبال الهندكوش حتى الشاطىء جنوباً ، وفيما عدا ذلك فالبحر من ورائها محيط .

وبهذه الجبال المحيطة بشبه القارة الهندية مسالك متعددة ، أعظمها ممرات الهندكوش وهي التي نفذ منها الغزاة والمهاجرون في الغالب : آريون وهياطله وسيث وترك وترك ومغول . ولم يظهر طابع هؤلاء الغزاة إلا في الشمال قوياً ، أي في الهندستان ، حتى كانت تلك المناطق تغاير في ثقافتها ونظمها الإجتماعية والسياسية نظائرها في الوسط والجنوب .

وفي الهندستان يجري أعظم أنهار الهند : الكنج والسند ، وللأول عند الهنادكة قداسة عظمى حتى إنهم ليتطهرون بمائه ، ويلقون بجثث موتاهم فيه ما أفلتوا من الرقابة ، بل ويحجون كذلك إلى منابعه العليا .

وإذا كان الكنج هو أقدس الأنهار عند الهنادكة ، فإن السند بروافده الخمسة (بنجاب) هو أطولها . وتضم وديان هذين النهرين أغلب أراضي الهند الزراعية وأخصبها ، تلك الأراضي التي تعد كذلك أكثر مناطق الهند

إزدحاماً بالسكان . ويفصل بين وديان هذين النهرين صحراء الثار (تَرْ) أعظم صحراوات الهند ، وتعرف فى التاريخ كذلك باسم صحراء الراجپوتانا . والراجپوتانا لأمرائها ذكر مجيد وصفحات بطولة يرويها تاريخ الهند القديم والأساطير على السواء .

وبرغم ما بالهند من أنهار كثيرة أخرى تجرى فى هضبتها الوسطى التى تعرف باسم هضبة الدكن وإلى الجنوب منها ، فإن مياهها لا تكفى سقى أراضيها ، لذا كان اعتماد الأراضى الزراعية هناك على الأمطار الموسمية التى كثيراً ما يؤدى امتناعها إلى مجاعات مروعة .

وأقدم من سكن الهند فى الغالب أقوام لهم سمات الزنوج ، ثم وفد على شبه القارة الهندية فى عصر ما قبل التاريخ موجات تورانية قدمت من أواسط آسيا فتوالدت مع الأهلين هناك فظهر الدراوريون والتمول أقدم سكان الهند فى التاريخ، وهم أغلب السكان فى الوسط والجنوب .

ثم توالت على الهند من بعد ذلك موجات آرية قادمة من ناحية الشمال الغربى فسكنت الشمال الهندى ودفعت بأهل البلاد جنوبا . وكانت مراكز هؤلاء الآريين فى الدوآب والپنجاب ولايزالون يحتفظون حتى اليوم بسماتهم بهذه المنازل فى الغالب.

وحين استقر هؤلاء الآريون بالهند خاف كهنتهم ، وهم البراهمة ، مغبة اختلاط أتباعهم بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا من أنفسهم ومن النبلاء المحاربين ، وهم الذين يعرفون فى هذا النظام باسم الأكشترية ، طبقتين متميزتين ، يأتى من بعدهما طبقة الويشية التى تضم التجار وأوساط الناس ، ثم طبقة الشودرا التى تضم العمال والزراع . وعُدَّ من بعد ذلك غيرهم من أبناء الأجناس الأخرى ، من البريا ، أى المنبوذين . وفيهم يندرج أسرى الحرب والعبيد والخارجين على نظام الطبقات الأربع . وحرم البراهمة على أتباعهم من أبناء هذه الطبقات

الأربع مطاعمة هؤلاء المنبوذين أو مجالستهم حتى عدّوا ظلهم نفسه نجساً ، وهم اليوم بالهند يزيدون على الخمسين مليوناً فيهم الكثير من المثقفين نرجو أن تحل مشكلتهم بما يصون كرامة البشرية .

ولقد ذكرنا من قبل أن بالهند تمثيل كامل لمراحل العقائد من الوثنية حتى التوحيد ، والواقع أن نظم الهند الاجتماعية تقوم على معتقداتها .

ولقد عرفت الهند قبل عصر البراهمة جملة من الآلهة تمثل قوى الطبيعة كأغنى إله النار موجب الكون ، وإندرا إله السماء الذى ينسب إليه البعض تسمية الهند ، وشوريه إله الشمس . وكان القوم يعتقدون كذلك بخلود الروح ويقدسون الموتى من أسلافهم ، كما يقدسون الأفاعى والقردة والنمور والثيران والأشجار .

ثم بدأ عصر البراهمة من بعد ذلك وفيه ثبّت نبيهم منو نظام الطبقات فى شرائعه التى صارت دستور الهند المدنى والسياسى . كذلك كتبت فى هذا العصر ملاحم المهابهارتا المقدسة والرامايانا أضخم آثار العالم الأدبية على الإطلاق . إذ تضم الأولى مثلا ربع المليون بيت من الشعر فى حين لا تزيد إلياذة هوميروس على خمسة عشر ألف بيت . والمهابهارتا يقدسها الهنادكة كما يقدس المسلمون القرآن والنصارى الإنجيل .

وهنا أحب أن أوضح أن كلمة هندوكى ليس لها مدلول عرقى أو جنسى وإنما يعرف بها أبناء شبه القارة الهندية من أصحاب العقائد القديمة .

وبرغم ما فرضته شرائع منو وقوانينه من عقوبات صارمة لمنع كل امتزاج بين أبناء الطبقات العليا وأبناء الطبقات الدنيا فإن للمرأة فتنتها على الدوام ، فلا يستطيع أبناء الطبقات العليا أن يقولوا أبداً بنقاء دمائهم على الدوام .

وكان طبيعيا أن يضيق الناس ذرعاً بشدة وطأة هؤلاء البراهمة ونظام طبقاتهم، فباتوا ينتظرون الفرج الذى واتاهم على يد مصلحين عظيمين ظهرا فى القرن السادس قبل الميلاد هما : مهابير صاحب الديانة الجينيّة وكوتامابد .صاحب الديانة البُدهية (البوذية) .

وحياة هذين المصلحين اللذين يقدس اسمهما ملايين البشر فى شبه القارة الهندية وخارجها على غموض شديد . فلا يعرف عنهما إلا ما حوته الأساطير فى الغالب . والواقع أنه باستثناء النبى الاكرم صلى الله عليه وسلم ، نجد أن مؤسسى الاديان عموما لم تؤلف سيرهم إلا بعد وفاتهم بزمن طويل مما أعسر الاطلاع على حياتهم إطلاعاً مفصلا صحيحاً .

وحياة البُده (بوذا) كما أوردتها الاساطير الهندية تتفق فى كثير مما ورد عن عيسى عليه السلام بالإنجيل ، فالبده قد وُلد فى بعض الروايات من أم عذراء عند جذع شجرة وأخبر بولادته إخباراً معجزاً ، كذلك كان ينتسب نبى الهند هذا إلى أسرة مالكة كما انتسب عيسى إلى آل داود ، وهو يتعبد صائما فى البرية ويتعرض لغواية الشيطان كما وقع لابن مريم .

وكلتا الديانتين ، أى البُدهية (البوذية) والنصرانية ، تأمران بالإحسان والزهد ويستخدم كهانهما الماء المقدس، ويطلق البخور فى معابدهما وقضاء الشموع، ويرتدى رهبانهما لباس خاص ، ويحملون المسابح ويتقبلون الاعتراف من أتباعهم ويعتكفون فى الأديرة . وليس من موضوعنا على كل حال أن نتعرض لدينونة إحداهما للأخرى .

ولقد نادى البده بانكار نظام الطبقات ، وأخذ يبشر فى الناس بأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً ، ودعا أتباعه إلى ابطال الرغبة والتجرد من أمور الدنيا بالزهد فى متاعها . والبوذية تقول بأنه لا خالق للعالم ، إذ أنه كله وهم

باطل ، وأن الموجودات ليست إلا ظواهر فانية فهي وليدة الخيال ، وهي مظاهر باطلة وهمية للأصل الأعلى الذي يهب الحياة لجميع الموجودات والذي تفنى الروح فيه . كذلك أنكر بوذا القضاء والقدر وقال بأن مصير الإنسان منوط بسيرته .

ولا تختلف الجينية عن البوذية عموماً إلا في عدم التفاتها إلى محاربة نظام الطبقات ، مما صرف عنها الكثير من عداء البراهمة . هذا كما أدى صرامة سنتها في تحريم الزواج والتملك على إتباعها تحريماً مع التقشف الشديد إلى انصراف الناس عنها فليس لها اليوم بالهند إلا اتباع قليلون . والجينية تنظر إلى الحياة على أنها لعنة على المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطيء . وطريق الخلاص عندهم أن يمتنع الإنسان عن إلحاق الأذى بأي كائن ولو كان من الحجر . وهم في سبيل ذلك يكنسون الأرض أمامهم حتى لا يطأون الحشرات عفواً ، ويصفّون الماء قبل شربه ويغطون أفواههم حين يتثاءبون ، بل لقد امتنعوا عن ممارسة الزراعة حتى لا يقتلون حشرات الأرض .

ولئن أدى ظهور هذين المصلحين ودعوتيهما إلى إحداث تغييرات غير قليلة في نظم الهند السياسية والاجتماعيــة ، فإن البراهمة على كل حال سرعان ما أفلحوا آخر الأمر في استعادة سابق نفوذهم بما استحدثوه من تغييرات يسيرة عندهم . هذا كما أدى انحراف سدنة البوذية أنفسهم عن مبادئهم الأولى مع عطل البوذية من الآلهة إلى أن عبدوا آلهة البراهمة كما عبدوا البده (بوذا) نفسه وإن كان قد نهى أتباعه عن ذلك . وأغلب ديانات الهنادكة اليوم مستمد من هذه البرهمية الجديدة وتبلغ مذاهبها من الكثرة ما يشبه أوراق شجرة ضخمة مزدهرة .

* * *

وفى شبه القارة الهندية كذلك ٢٤٠ لغــة و٣٠٠ لهجة . وتُرد لغات الشمال إلى الأصل الآرى فى حين تنتسب لغات الجنوب والوسط إلى الأصل الدراويدى .

واللغة السنسكريتية ، من بين لغات الهند الآرية ، أهمية خاصة ، فهى لغة الكتب المقدسة الهندية القديمة ، وقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كانت وقفاً على رجال الدين من البراهمة وحدهم . وكان من أثر اشتغال المسلمين بعلوم الهند فيما بعد أن ذهب جملة من سلاطين المسلمين هناك يشجعون الهنادكة على إحياء آدابهم القديمة التى كتبت بتلك اللغة .

أما اللغة الأوردوية فهى على رغم حداثة عهدها (قبيل القرن العاشر الهجرى ١٦ م) تعد أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً . كما يتحدث كثرة من السكان المثقفين اللغة الفارسية ، تلك اللغة التى كانت تسود أوساط الهند إبان قيام الدولة الإسلامية هناك ، أى لأكثر من ثمانية قرون ، حتى دخل البريطانيون الهند فعملوا على تشجيع انتشار اللغة الأوردوية هادفين بذلك إلى قطع كل صلة بين مسلمى الهند وإخوانهم فى البلاد المجاورة . ولئن كانت جمهورية الهند الحالية تعمل على إحياء السنسكريتية إلا أنها لا تزال تستخدم الإنجليزية لساناً لها ، فى حين تعد باكستان اللغة الأوردية لغتها الأولى .

تاريخ الهند القديمة وحضارتها :

تاريخ الهند القديم لا يزال الغموض يلف الكثير من معالمه ، وإن كان من الثابت وجود حضارة زاهرة عندهم أيام كان المصريون يبنون أهراماتهم . وهذا وكان المسلمون حين فتحوا هذه البلاد هم أول من عرّف الناس بتاريخها وماضيها

وقد عاون على كشف غوامض تاريخ الهند قبل الإسلامى جوابون زاروها فى القديم من أمثال ميغاستين سفير دولة السلوكيين الإغريق لدى بلاط دولة الموريا الهندية فى القرن الثالث ق . م والحاجين الصينيين البوذيين ، فاهيان وهيون سنغ ، اللذين طوفا بالهند فى القرنين الخامس والسابع الميلادى على التوالى .

هذا والمعروف أن الفرس دخلوا هذه البلاد فى القديم ، وكان بجيوشهم فى حربهم مع اليونان قبل أيام الإسكندر ، فرقة من الهنود مع فيولها . ودخل الإسكندر هذه البلاد فكان من أثر فتوحه هذه اتصال الثقافتين الهندية والإغريقية ببعضها اتصالا واسع المدى .

وظهر بالهند ، عقب انسحاب الإسكندر منها ، دولة الموريا التى ضمت رقعتها الشمال الهندى كله واتخذت لها من الطاووس شعاراً . وفى عهد مؤسسها چندرا كُبتا وفد إلى الهند السفير ميغاستين الإغريقى من لدُن نيكاتور السلوكى خليفة الإسكندر على كافة الأراضى الممتدة فيما بين السند وسورية ، ليعمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى الطريق البرى إلى دمشق وأنطاكية بدلا من الطريق البحرى ، عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر ، الذى كان ينتهى إلى مصر فيؤدى إلى ثراء دولتها .

وقد اطّلع هذا السفير على الكثير من طبائع الهنادكة وحضارتهم ودون ذلك فى مذكراته التى تعد من أهم مصادر التاريخ الهندى القديم . كذلك اهتم الرومان بتجارة الهند ، ووصف بطليموس عالمهم الجغرافى سواحلها فى كتبه ، ولم تنقطع بهذه البلاد إلا حين غزاها المسلمون .

ومن أعظم ملوك الموريا الذين نذكرهم هو الملك آشوك (آزوكا) ، وبه يبدأ تاريخ الهند المعمارى ، ولا تزال بعض آثاره باقية بالهند حتى اليوم ، ومنها بعض أساطين سجل عليها قوانينه . وتتخذ جمهورية الهند الحديثة اليوم

من عجلته شعاراً لها . ويشتهر هذا الملك كذلك برعايته القوية للبوذية حتى بلغ مبشروها فى عهده بلاد اليونان ومصر ، وفى عهده كذلك عرفت الهند النقود كأداة للتعامل لأول مرة فى تاريخها .

وتوالى على الهند من بعد ذلك موجات جديدة من الآريين والهياطلة ، غزاة ومهاجرين ، حتى ظهر الملك هرشا فاستطاع أن يحد من خطر هؤلاء الغزاة ويقيم له دولة شملت الهندستان كله ، وظلت عاصمته قنوج مدينة مزدهرة ، شاهدها الغزاة المسلمون فى القرن الخامس الهجرى وقالوا عنها إنها كانت مدينة عامرة لا نظير لها .

ويُعد هرشا ثانى حماة البوذية الكبار ، ويشتهر ببره الشديد برعاياه حتى كان يوزع جميع أمواله على الشعب مرة كل أربع سنوات . واستنفدت أتباعه إحدى المرات كل ما يملك حتى انطلق إلى أخت له يستجديها رداء له .

وانفرط عقد مملكة هرشا بعد وفاته إلى إمارات متعددة حافظ أصحابها على استقلالها حتى اقتحمها المسلمون عليهم فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الحادى عشر الميلادى والثانى عشر) .

كذلك قام بالدكن وجنوب الهند دول قوية كانت على صلات تجارية وثيقة مع العرب قبل ظهور الإسلام بوقت طويل . وقد دخل المسلمون بدورهم أغلب هذه المناطق بعد أن استتب لهم الأمر فى الشمال .

* * *

ولقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية بفضل جهود علمائهم الذين كانت تزخر بهم جامعاتهم الكثيرة وأشهرها تكسيلا بالبنجاب بالقرب من بشاور الحالية .

والهنود هم أول من سبق إلى إثبات دوران الأرض حول محورها ، وتعليل أسباب الكسوف والخسوف ، كما بذوا الإغريق فى كثير من فروع الرياضيات والعلوم الطبية حتى رأينا ديوسقورس العالم الطبيب السكندرى يستخدم المصطلحات الطبية الهندية وذلك قبل الميلاد بقرن ، فقد كانوا ، أى الهنود ، على معرفة تامة بالتشريح ووظائف الأعضاء ، كما استنبطوا المخدر واستخدموه فى الجراحة ، وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين واهتدوا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسة قرون .

والمعروف كذلك أن فيثاغورث الفيلسوف اليونانى كان يشتغل بعلوم الهند فى القرن السادس ق . م كما زار فلاسفة من الهند بلاد اليونان قبل ظهور الإسكندر بقرنين فناظروا فلاسفتهم وعلى رأسهم سقراط وسخروا منهم .

ولم يكن اشتغال الهنادكة بالآداب ليقل عما فعلوه بالفلسفة ، وفيما تركوه من أشعار وملاحم وتمثيليات ما يشهد بطول باعهم فى هذا المضمار .

كذلك وصلت العمارة الهندية فى القديم إلى درجة عالية من الروعة والجمال لفتت أنظار جوابى الهند جميعاً بما كان يزينها من ترصيع ونقوش فيها قلائد من اللؤلؤ .

كذلك ازدهرت الصناعة فى هذه البلاد ازدهاراً كبيراً . وراحت القوافل التجارية ، برية وبحرية ، تحمل محاصيل الهند وتحفها من عطور وأسلحة ومنسوجات وتوابل وثمار إلى كثير من العالم القديم . وكانت ملاعب روما فى القديم تزدحم بوحوش الهند ، وكانت قصور الرومان تزدان بفُرُش الهند ، ويرفل نساؤهم فى ديباجها.

هذا وتشير كتب الهند القديمة إلى ما كان بالهند من نظم دستورية . وتتحدث عن المجالس النيابية والوزراء والتشريع والقانون وقيام الجمهوريات

وتصف الملك عندهم بأنه خادم الشعب فى الحقيقة ، وأن ما يحصل عليه من الأموال إنما هى ليستعين بها فى العمل على رفاهية رعاياه .

وكانت القرية الهندية منذ القدم تمثل مجتمعا قائما بذاته يقوم على شئون نفسه لا يعلوه إلا الدولة ، وذلك بسبب ترامى أطراف البلاد ، فكانت القرية بذلك هى وطن الهندوكى الذى يجد فيه الحكومة التى تقوم على شئونه ، والقاضى الذى يختصم اليه والكاهن الذى يلوذ به وأبناء العشيرة الذين يعاونونه فى كل أموره . والمشاع هو الغالب فى الهند حتى اليوم فالميراث إنما ينحصر فى الدخل دون الأرض

والمرأة الهندية فى القديم كان لها فى الغالب احترام وتوقير ، ولا يزال الكتاب هناك حتى اليوم يتغنون بذكر فيلسوفتهم القديمة المشهورة جارجى . وكم من امرأة بالهند أقبلت على حومة الوغى تدافع عن بلادها فى بطولة نادرة ، وكم منهن من آثرن الموت حرقا على الوقوع بأيدى الأعداء .

هذا والمرأة فى الهند كانت تعد موت زوجها قاصم لظهرها إذ تغدو من بعده ذليلة محتقرة ما لم يكن لها ولد ، فكانت فى الغالب تؤثر اللحاق به فوق المواقد على ما ينتظرها من بؤس وشقاء وتعرف هذه العادة باسم (الساتى) .

على أن مقومات الحضارة المدنية الكثيرة عند الهنود ، والتى كان العلامة الفيلسوف أبو الريحان البيرونى هو أول من اطلعنا عليها تفصيلا ، هذه لم تمنع من انقسامهم على أنفسهم حتى سقطوا فريسة غير عسيرة للغزاة مرات عديدة .

ودخل المسلمون هذه البلاد أواخر القرن الأول الهجرى فبدأ بهم عصر جديد فى تاريخها ، وظلت الدولة الإسلامية قائمة بشبه القارة الهندية أكثر من أحد عشر قرنا حتى دخلها البريطانيون عليهم .

وصار للمسلمين بالهند مثل النفوذ العميق الذى بلغوه فى أغلب البلاد التى فتحوها ، وهو ما لم تبلغه أمة غيرهم من الأمم القوية الغابرة أو الحاضرة . ففى مصر مثلا حوّل المسلمون شعبا كانت له أقدم الحضارات عن لغته إلى لغتهم وعن دينه وفنونه إلى دينهم وفنونهم ، فأفلحوا حيث أخفق اليونان والرومان والفرس من قبلهم . وتم لهم مثل ذلك بشبه القارة الهندية . فالمسلمون بها حيث ينوف عددهم اليوم على المائة والخمسين مليونا ، لا تجد بينهم إلا قلة قليلة لا تجرى فى عروقها دماء هندوكية . والأوردية ، أعظم لغات الهند انتشاراً ، هى من مبتكرات علماء المسلمين ، فغالبية ألفاظها عربية وفارسية وتركية وتكتب بالحروف العربية ، وليس الأثر الفنى الاسلامى هناك بأدنى مظهر من الأثر الدينى أو الأثر اللغوى .

ولقد وجد الهنادكة فى الاسلام عقيدة فطرة وتسامح لا طبقات فيها ولا طوائف ، ولا مفاضلة بين أتباعها إلا بالتقوى . فأقبلوا على اعتناقه إقبالا جامعا .

والفتح الاسلامى ، هو باعتراف جمهرة المؤرخين ومن بينهم الهنادكة من المنصفين ، كان فيه الكثير من الخير . حتى لتدين الهند اليوم بصفوة تقاليد المجتمع اليوم إلى الفاتحين المسلمين الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير قدما فى عزم وقوة ونقلوا اليها الكثير من فنون المعرفة الاسلامية التى كانت قد وصلت بدورها خارج الهند إلى أعظم درجات الرقى .

ولقد عاش الهنادكة قرونا طويلة فى ظل الدولة الاسلامية عندهم دون عنت أو رهق ، ولم يصادفوا فى الغالب عند الحكام المسلمين أى تقييد لحريتهم فى العبادة وفى الحياة على السواء .

والمسلمون آخر الأمر هم الذين تزعموا ثورة الهند الوطنية لطرد المستعمرين البريطانيين فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى . ولم يكن البريطانيون هم أول

من حاول استعمار الهند من الأوربيين فقد نافسهم فى ذلك البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون . وأفلح الانجليز وحدهم فى الانفراد بالأمر كله هناك بما عرف عنهم من اتقان الدس والوقيعة والتفرقة ، وظلوا ينهبون خيرات هذه البلاد ويتفننون فى إذلال أهلها مئات السنين ، حتى أخرجوا من شبه القارة الهندية كلها آخر الأمر عام ١٩٤٧ م بعد أن اتفق أهلها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما:

جمهورية باكستان الاسلامية وجمهورية الهند الهندوكية . وقامت أخيرا جمهورية بنجالاديش كجزء منفصل عن باكستان .

الفتوحات الاسلامية

فى شبه القارة الهندية

فتوح العرب بالسند

كان العرب فى القديم هم واسطة مقايضات التجارة الهندية ما ورد منها براً عبر بلاد الأفغان وفارس إلى الشام ، أو بحراً عن طريق بحر العرب والمحيط الهندى حتى شواطئ اليمن الجنوبية حيث ينقل قسم منها شمالا عبر الحجاز إلى الشام ، فى رحلة الشتاء والصيف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، فى حين يتابع القسم الآخر سيره فى البحر الأحمر إلى مصر فيؤدى إلى ثراء أهلها .

وبهذا كان العرب فيما قبل الاسلام على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها بما كان يرويه لهم تجارهم عنها وما كانوا يعرضونه عليهم من سيوفها وثمارها . وما يذكرونه لهم عن عقائد الهنادكة وتقاليدهم، والتجار عموما يعدون فى كل الأزمان وسطاء ناجحين فى نقل الحضارة والمدنية . وعلى يد التجار المسلمين انتشر الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية فى أغلب بقاع الدنيا أكثر مما انتشر على أيدى الغزاة والفاتحين .

كذلك وقف العرب على قدر من حضارة الهند وثقافتها عن طريق المدارس العلمية الفارسية بأرض الفراتين ، تلك المدارس التى جلب لها بعض ملوك الساسانيين الفرس طائفة من أعلام اليونان والهند . وعلى أيدى أطباء الهنود فى جندى سابور تخرج الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب قبل الاسلام وقام على علاج الناس بفارس .

وفتح العرب المسلمون مصر وبلاد الشام وفارس وامتد ملكهم فى عهد الدولة الاموية حتى وسط آسيا وتاخموا الهند .

وعهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك بأمر القسم الشرقى من الدولة الاسلامية ، التى كانت حدودها الغربية تبلغ آخر بلاد الاندلس ، إلى الحجاج الثقفى . وتطلع الحجاج إلى مزيد من الفتوحات فى الشرق وقد طمع أن يبلغ جنده بلاد الصين ويقتحم الهند . وكان المسلمون قد ساروا من قبل فى حملات خفيفة إلى شواطىء الهند أيام عمر بن الخطاب ، لكن ثانى الخلفاء الراشدين نهاهم عن ذلك خوفا عليهم من ركوب البحر حذراً من « حمل الدود على العود » .

وما إن بلغ الحجاج اغتصاب بعض القراصنة السنديين لسفن كانت تحمل هدايا للخليفة الاموى من ملك جزيرة الياقوت (سرنديب) وعليها أرامل لتجار من المسلمين ماتوا هناك ، حتى انتهز هذه الفرصة وأخذ يلح على الخليفة لتسيير الجند لفتح اقليم السند .

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميرا للحملة السندية . وطفق قائد هذه الحملة ، وكان يقيم إذ ذاك بشيراز ، يعد لها العدة طوال شهور ستة . وعنى الحجاج بالاشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون اليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل .

وأقبل محمد بن القاسم ، وهو دون العشرين من عمره ، يغزو بلادا مترامية الاطراف متسعة الارجاء ، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة ، وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم . وضآلة من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبل فى اثنى عشر ألفا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم ، أما عتادهم الحربى ، وكان قد

قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران ، فقد اتخذ طريقه بحراً ، فالتق الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام (٨٩ هـ — ٧٠٧ م) .

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبل جموع كثيرة من رجال الميدو الجات (الزُط) ، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط ، إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر ديبل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد ابن القاسم منجانيقه الكبير « العروس » ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه، فدق بقذائفه معبد المنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقتحم المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان .

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجدا ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه فبلغ مدينة نيرون [1] على الضفة الغربية للسند . فاعتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقة الدماء ، أن أبرزوا له عهداً بالأمان كانوا قد

---

(١) تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلا من مكران وتعرف أيضا باسم نيرانكوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويغلط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءاً وينسبون اليها على ذلك العلامة البيرونى ، وهو خطأ شنيع ، فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى باقليم خوارزم .

حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند فأكده لهم بدوره .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطىء السند الشرق حيث يرابط عدوه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجىء عدوه بعبور النهر اليه ليلا ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد كرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف . انتصر فيه المسلمون . برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقتل داهر ، وكان يمتطى فيلا اشتد به العطش فثار على فياله واندفع إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلا .

وبلغ الخبر رانى باى ، وكانت أختاً لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفاً من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر ، فلم يجدهم ذلك كله نفعاً . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى النيران فلا يقعن فى أيدى الغزاة .

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر وكنوزه ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعاً إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا مدينة برهمناباد وكان قد فر إليها إبن لداهر ، يدعى جاى سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . واقتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالا مستجيراً بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهى وبعض بناته ، إذ أذهلتهن المفاجأة عن سلوك السبيل الذى

سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر .

وبلغ الجيش العربى الرور ، عاصمة داهر ، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح ، فى سبيل حث قومه على المقاومة ، يلقى فى روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير ، ولكن ذلك لم يغنهم آخر الأمر شيئاً ، ونزلت بهم الهزيمة برغم استماتتهم فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعاً شديداً .

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس ، رافد السند ، إلى مدينة الملتان ، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه فدخلوها .

وفى الملتان آخر حصون السنديين الكبرى ، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان التجار وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير من تسامح هذا القائد العربى وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعاً ولاءهم له فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقرباً منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادىء الأمر ، فحُمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف درهم دون أن يضار الأهلون فى أموالهم أو يفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه .

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم من الأهلين ، فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، وإطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيراً على توطيد مركز المسلمين هناك .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هنالك بدأ محمد بن القاسم ، أولا ، بايفاد بعثه من رجاله الى صاحب قنوج تدعوه الى الإسلام أو الجزية . حتى اذا ما رد الملك الوفد رداً غير كريم أخذ الفاتح العربى يعد العدة لغزو عدوه ، فجهز لذلك جيشا فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من اعداد حملته هذه حتى وافته الرسل تنبئه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال الخلافة الى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للتقدم اليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا ، ولم يمنع موت الوليد ،قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من انزال نقمته ، فى عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة ، بل ويرفض المسير اليه مستقلا بما فتح من بلدان وما استولى عليه من أراض وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لاتتجاوز سنوات ثلاثاً ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألا يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجسه الشر منه .

لحمل مقيداً بالأغلال حتى بلغ واسط فلقى بها من العذاب النكر ، على أيدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا برأسه الى دمشق .

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى الهند اذا كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية . حتى اذا ما خلفتها الدولة العباسية حرصت هذه على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة أراضيها . هذا كما شغل الولاة المسلمون أنفسهم بالسند باقرار الأمن ومعالجة الاضطرابات التى قامت هناك بين القبائل العربية نفسها من حجازية ويمنية . وزاد من تفاقم الأمور هناك نفاذ القرامطة والشيعة الى هذه البلاد مما مهد لثورة الأهلين على حكامهم وساعد الأمراء الهنادكة فى الوقت نفسه على تخطف مساحات كبيرة من أملاك المسلمين هناك ، حتى أقبل الغزنويون الترك على هذه البلاد فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ، وبهم تبدأ حقبة جديدة فى تاريخ الهند أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند :

لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية ، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا الى أهلها بعد قليل على ما فصل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضل مَن صاحب حكامهم وأمرائهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدويناً للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من أهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز فى ميادينها . فكان منهم علماء الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى ، وابن الأعرابى اللغوى ، أستاذ ثعلب

وابن السكيت . وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر ثم أبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف .

وغنى عن البيان أن العرب كانوا أول عهدهم بالفتوح يكلون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة درايتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسنة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسية حدثاً لا أهمية به فى التاريخ الاسلامى إلا أنه صيّر هذه البلاد جزءاً من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكاما ، ولئن قيل كذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا لنشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب لسانهم إليها ،فقد كان لهم الفضل ، أكبر الفضل ، فى إعادة الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأدنى .

وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسباً عظيما للثقافة الإسلامية ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم ، فالفلسفة الهندية « وفروعها من الفلك والطب والرياضيات، كانت قد بلغت من الرقى والتقدم شأوا بعيداً وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لاسيما ما كان منها خاصاً بعلم الكلام والتصوف .

ويقول « Havell » إن المسلمين مدينون للهنادكة أولا ، لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند

اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها ، ويؤيد رأيه هـذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات حملت إلى بلاط الخـلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسى ، هى كتاب براهما سدهانتا لمؤلفه العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السندهد ، وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٤٢٥ ق ، م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم اركندا ، ثم كتاب آريه بهت المعروف باسم أرجبهذ أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود ، ومن أول هـذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشرى ،وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة اشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال ابراهيم بن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازى ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التى بز فى أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم .

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذيين فى الغالب ، فعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها على حد قول صاحب الفهرست ، فجلبوا منكة الطبيب الهندى الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الحظوة عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذى عهد اليه بادارة دار الشفاء ، ثم ابن بهلة الذى تولى علاج ابراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع طبيب الخليفة ، قد جزم باستحالة برئه.

وهذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند الأخرى وعقائدهم وأحوالهم ، تلك الدراسة التى وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحان البيرونى فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ ، علامة العرب ، بذكر الهند فى بيانه فيقول . « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم » .

الغزنويون وخلفاؤهم

وقع فى الفترة ما بين الفتح العربى وفتح الغزنويين ومن تبعهم من الترك والأفغان للهند أحداث خطيرة فى العالم الإسلامى . فقد زالت دولة الأمويين التى عرفت بتمسكها بالعناصر العربية ، وخلفها العباسيون الذين نقلوا الخلافة من الشام إلى العراق وأنشأوا مدينة بغداد ثم راحوا ينفضون أيديهم من العرب ويستعيضون عنهم فى مناصب الدولة بالعناصر الفارسية ، وفى الجيش والحرس بالترك من بعد ذلك :

وما غدا أن استقل فريق من هؤلاء الحكام الكبار من الفرس ببعض ولايات الدولة الشرقية مع خضوعهم الإسمى لخليفة بغداد فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها .

واستطاع الغزنويون الترك ، وكانوا مبدأ أمرهم عمالا للسامانيين فى إقليم غزنة الذى ينسبون اليه وموقعه بلاد الأفغان الحالية ، استطاعوا أن يستقلوا بما بأيديهم من أرضين ويخلفوا الدولة السامانية نفسها فى أملاكها ، حتى دفع بهم طموحهم آخر الأمر إلى أن يولوا وجوههم صوب شبه القارة الهندية .

ويُعد اقتحام الغزنويين لهذه البلاد بداية الفتح الجدى لها ، ذلك الفتح الذى أدى إلى تحول أكثر من مائة مليون من الهنادكة عن عقائدهم القديمة إلى دين الإسلام ، وعن لغاتهم وفنونهم إلى لغات المسلمين وفنونهم .

ولئن كان سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية قد اكتفى بدخول السند وبعض مناطق البنجاب ، فإن ابنه محمود توغل من بعد ذلك فى الهندستان

فى سبع عشرة غزوة فى مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين عامى ٣٩١ هـ (١٠٠٠م) و٤١٧هـ (١٠٢٦م) فغزا لاهور والمُلتان كما دخل كشمير ، فكان أول من نشر الإسلام بها على نطاق واسع ، وفتح قنوج . وعاد من غزواته العديدة هذه بأموال طائلة وكنوز أتخمت بها خزائنه وارتفع بها رجاله إلى ذروة الثراء .

وأعظم فتوحات محمود الهندية هى، التى استولى فيها على الكُجرات ودخل سومنات ، فقد اخترق إليها صحراء مهلكة هى صحراء الثار (ثَرْ) التى لم يجرؤ الإسكندر المقدونى من قبله على اقتحامها ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله مثار الدهشة والاعجاب .

وفى سومنات هذه كان يقوم معبد كبير له قداسة عظمى عند الهنادكة ، حتى إنهم أعادوا بناءه من جديد عام ١٩٥١م أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على هدم محمود له . ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عند هذا المعبد ، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها إلى صنمهم الأكبر هناك . ويحج الناس إلى هذا المعبد عادة فى جموع زاخرة ولاسيما عند خسوف القمر ، وكان به من السدنة ألف من البراهمة ومن المنشدين خمسمائة .

ومن البديهى أن محمود الغزنوى لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الثار لمجرد تحطيم معبد هندوكى والاستيلاء على مابه من الأموال ، فواقع الأمر أن سومنات كانت من أعظم مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى ، كما كان معبدها يتخذ مثابة للأموال التى كان يُنْفَق منها على الأعمال الحربية . هذا كما يعد إقليم الكجرات ، الذى يقع به هذا المعبد ، أعظم المراكز التجارية الهندية منذ القدم .

ولو كانت غاية محمود من غزو سومنات هو جمع المال فحسب ، كما

يتهمه بعض المؤرخين بذلك ، لقبل عن طيب خاطر ماعرضه المنادكة عليه من الأموال الطائلة فداء لصنمهم الأكبر هناك ولما رد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

ويتحدث المؤرخ الهندوكى براساد عن محمود فيقول « إن محموداً هو عند المسلمين غاز ومجاهد كبير أخذ على نفسه مهمة القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية . ويعده المنادكة فى الوقت نفسه طاغية حطم مقدساتهم وآذى شعورهم الدينى فى كثير ، ولكن المؤرخ المنصف على ضوء اعتبارات العصر الذى كان يعيش فيه محمود لايسعه إلا أن يقرر بأنه كان جندياً عبقرياً وحاكما حازما عظيما عرف برعايته للفنون وإقامة العدل » .

والحق أن محمودا كان من أعظم ملوك المسلمين قاطبة ، وسع ملكه الأول إلى دولة مترامية الأطراف امتدت من الهندستان الشرقية حتى فارس .

ولم يأل جهداً فى إشاعة العدل بين سكان دولته الواسعة هذه ، مع ماعرُف عنه من رعاية العلم والعلماء .

وشغف محمود بجو الكجرات بالهند خاصة حتى مال إلى الإقامة الدائمة فى دولته الهندية الجديدة على أن ينيب عنه ابنه بغزنه ، لكن رجاله ضاقوا بحر الهند وعاودهم الحنين إلى بلادهم ، الأمر الذى صادف الإسكندر المقدونى نفسه من قبل .

هذا وكان بلاط محمود يزدان فى غزنه بمشاهير رجال الآداب والعلوم والفنون من أمثال أبى الريحان البيرونى الفلكى الفيلسوف العالم بلغات الهند وثقافتها ، ثم العُتبى صاحب تاريخ اليمينى (أى يمين الدولة محمود) والبيهقى

صاحب تاريخ آل سبكتكين والفارابى الموسيقى الفيلسوف ثم الفردوسى صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفارسية ذكراً وأخلدهم صيتاً .

وخلف محمود ابنه مسعود . وبرغم ما كان لمسعود هـذا من صفات حميدة وقدرة إلا أن الصواب جانبه فى سياسته الحربية ، حتى أخذ ذلك البناء العظيم الذى أقامه محمود ينهار على يديه ثم على أيدى خلفائه الضعاف من بعده ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك حروبهم مع السلاجقة من جهة وانصرافهم إلى حياة اللهو والترف من جهة أخرى .

ولم يكن الهنادكة بدورهم ليسكتوا عن انتهاز هذه الفرصة فانطلقوا يتخطفون أملاك الغزنويين بالهند ، حتى أقبل الغوريون عليهم فخلفوا بالهند تلك الدولة الغزنوية التى دام سلطانها هناك أكثر من قرنين من الزمان ونفذت بفتوحاتها إلى قلب شبه القارة الهندية لأول مرة فى تاريخ المسلمين .

الغوريون ومماليكهم

وإذا كان الغزنويون هم أول من توغل فى شبه القارة الهندية من المسلمين فإن أمراء الغوريين الأفغان هم الذين ثبتوا أقدام المسلمين فى شمال الهند بأكمله وأرسخوا قواعد الحكم الإسلامى هناك .

ذلك أن زعيمهم السلطان محمد الغورى، بعد أن سيطر على إقليم غزنه وماحوله، انطلق برجاله الأشداء ، وكانوا دواما سند الغزنويين فى حروبهم ، إلى أرض الهند ليحافظ على كيان الدولة الإسلامية الجديدة هناك ، لجاب هذه البلاد غازياً من البنجاب إلى البنغال فى فتوحات متواصلة خــلال ثلاثين عاماً كسر فيها شوكة الأمراء الراجبوتيين أقوى حكام الهند وشتت شملهم بعد أن خاض غمار معارك عنيفة معهم .

وكان مما فت فى عضد هؤلاء الهنادكة ، على ماعرفوا به من تمرس بالقتال وما كان عندهم من جند كثيف ، طغيان أطماعهم الخاصة على مصلحة الوطن ، هذا إلى جانب نظام الطبقات الذى كان يجعل بمقتضاه مناصب القيادة وقفاً على أبناء الطبقات العليا بغض النظر عن مستوى كفايتهم فى الحرب. على نقيض الأمر عند المسلمين حيث الباب مفتوح أمام كل جندى كفء للوصول إلى أعلى المراتب .

وبالغوريين بدأ الحكم الجدِّى للمسلمين فى الهند ، إذ تحول الغزاة إلى الإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها ، وبهذا احتفظت الهند بكل أموالها ، وثرواتها بداخلها .

وخلف السلطان الغورى على عرش الهند جملة من مماليكه الترك الذين كانوا قد بلغوا عنده مرتبة القيادة وكانوا أكبر عون له فى حروبه .

ومن هؤلاء القواد قطب الدين أيبك فاتح دهلى ونائب السلطان بالهند ، ثم شمس الدين التمش الذى رد جحافل چنكيزخان عن الهند وكانت قد نفذت إلى السند وهى تطارد محمد جلال الدين شاه خوارزم .

ومن عجب أن يتولى العرش بعد وفاة التمش سيدة هى ابنته السلطانة رضية فى نفس الوقت الذى كانت فيه شجرة الدر تجلس على عرش مصر قبيل القرن السابع الهجرى .

على أن هذه السيدة التى قادت حملات ناجحة وكانت تجوب الأسواق فى ثياب الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم، غلبتها أنوثتها فتملق قلبها بعبد حبشى لها مما أثار ثائرة القوم عليها حتى قضوا عليها .

ومازال شأن أبناء التمش يضعف من بعد ذلك حتى ولى بلبن أمر الهند . وغياث الدين بلبن هذا ، وكان من قواد التمش ، هو الذى رد عن الهند غائلة المغول حين أقبلوا عليها غازين بقيادة مانكو حفيد چنكيزخان فى منتصف القرن السابع الهجرى ، كما وزر لأبناء التمش كذلك فكان الوزير الحازم القدير .

واستطاع بلبن عقب جلوسه على العرش أن يقضى على الاضطرابات التى كانت تسود الدوآب والبنجاب ، كما عمل على تأمين المسالك والدروب من أخطار قطاع الطرق وكانوا على كثرة مخيفة حيث الغابات والأدغال حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر فى أمان .

وأقام كذلك كثيراً من الحصون عمرها بالجند والسلاح لتأمين البلاد من أخطار المغول من جهة ولإقرار النظام من جهة أخرى .

وبلغ من حرصه على إشاعة العدل بين الناس أن كان لايتردد من إنزال

أشد العقاب بأى عامل من عماله حين يبلغه مايني. عن استبداده بالرعية ، واستعان في ضبط الأمور فى بلاده المترامية الأطراف بشبكة محكمة من العيون كانوا يوفونه بكل مايصدر عن عماله .

وحرص هذا السلطان على عدم الخروج فى غزوات جديدة توفيراً لقواته حتى يستطيع أن يواجه خطر الغزو المغولى عند الحاجة ، فلم يخرج إلا إلى البنغال مضطراً ليقضى على فتنة لشبت به وقد حكم أبناؤه من بعده هذه الولاية الواسعة الغنية لأكثر من نصف قرن من الزمان فى حين لم يستطيعوا الاحتفاظ بدهلى نفسها بعد وفاة عميدهم أكثر من سنوات ثلاثة .

ويعد المؤرخون غياث الدين بلبن صاحب الاسس التى قامت عليها التقاليد الرفيعة والخصال الحميدة التى تروج المجتمع الهندى فى العصور الحديثة،هذا كما عرف عنه كذلك تمسكه الشديد بآداب الإسلام ومخالطته للعلماء والأدباء .

وأدى ضعف أبناء هذا السلطان إلى شيوع التناحر والفوضى فى دهلى وماحولها حتى اجتاح الخلجيون المدينة فصار الأمر كله لهم .

الخلجيون

كان الخلجيون أصلا من بين رجال الغوريين الكبار بالهند ، وكان زعيمهم جلال الدين صاحب مكانة مرموقة فى بلاط آل بَلْبن . ولئن كان الاهلون لم يتقبلوا حكم الخلجيين أول الامر بقبول حسن لفرط ما ارتكبوه من القسوة فى القضاء على فتن دهلى ومنها بشاعة مقتلهم لآخر سلاطين آل بلبن وكان يرقد مفلوجا فى فراشه ، إلا أن جلال الدين الخلجى وكان شيخاً تقياً قد استطاع ، بما جُبل عليه من بغض لإراقة الدماء وما كان يبذله من الود ، أن يتألف القلوب حوله من جديد .

وبلغ من تسامح هذا السلطان أنه كان يكتفى بنفى الخارجين عليه إلى أماكن بعيدة مبقياً على حياتهم .

ولكن كان من أثر فرط حسن ظن هذا السلطان بمن حوله أن استطاع ابن أخيه علاء الدين أن يستدرجه إلى مقامه عبر الكنج بدعوى مشاهدة ما عنده من غنائم ثمينة كان قد أتى بها من الدكن ، وسقط عليه لساعته فقتله ثم أسرع إلى العاصمة فاتخذ مكانه بها .

ويُعد علاء الدين الخلجى بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره فقد توفرت له صفات الجندى الطموح ، فدفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب كما قاد جنده فى فتوحات متواصلة حتى أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها لأول مرة فى التاريخ .

وهنا تقول الراوية بأن فتوحات علاء الدين الكثيرة وما جلب منها من كنوز طائلة بعثت فى نفسه نشوة مشوبة بالغرور حتى تراءى له أن يسير بجنده لفتح العالم

كما فعل الإسكندر المقدونى من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أن انطلق يصرح بأن قادته هم بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبى الأكرم فهو قادر بهم على تنظيم دعوة جديدة بدوره ينشرها فى أركان المعمورة .

على أن عمه القاضى علاء الملك ما لبث أن اعترض عليه حين سأله النصيحة فى هذا الأمر ، فأبان له بأن النبوة قد انتهى زمانها وأن الملوك لم يختصوا بها أبداً ، فهذا جنكيزخان برغم فتوحاته الكثيرة لم يمكنه حمل المقهورين على الدخول فى ملته ، بل إن ما حدث هو العكس ، إذ دخل المغول الفاتحون فى دين الله أفواجا . أما عن مسألة فتح العالم ، فقد أبان له علاء الملك أنه إلى جانب مغايرة العصر لزمان الإسكندر فقد كان للفاتح المقدونى مشير ناصح حكيم هو الفيلسوف أرسطو الذى ليس له عند الخلجيين نظير .

ولقى نصح القاضى أذناً صاغية عند علاء الدين الخلجى فعدل عن رأيه إلى الاهتمام بشئون دولته . وقد صادفت النظم الإدارية والمالية التى وضعها هذا السلطان الحازم قدراً كبيراً من النجاح ، وأدت رقابته للأسواق والأسعار وشدته فى معاقبة مدلسى التجار إلى أن عم البلاد اليسر والرخاء . ويقال فى ذلك إنه كان يأمر بالمطفف فيستكمل الميزان بقطعة تقد من لحمه حياً عظة لغيره .

وكذلك أقام كثيراً من المنشآت النافعة وعنى بأمر الزراعة وأسبغ رعايته على العلماء .

على أن علاء الدين هذا حين تقدمت به السن ذهب فى كثير من الشئون ينقاد لآراء قائده الحبشى كافور وعصبته . وما إن مات السلطان حتى انفرد كافور بالأمر كله بعد أن أجلس على العرش طفلا صغيراً من أبناء علاء الدين . وأدى سوء سلوك كافور هذا إلى إشعال نيران الفتنة بالبلاد ، حتى استطاع بعض الأمراء الخلجيين قتله آخر الأمر ، وأقاموا مكانه مبارك شاه الخلجى .

وسار السلطان الجديد أول عهده سيرة حميدة ، فرفع عن كاهل الأهلين كثيراً

من الضرائب ، ورد الأراضى المغتصبة إلى أصحابها وأطلق سراح المعتقلين . إلا أنه ما لبث بعد قليل أن انقلب ينغمس فى المباذل حتى كان يتخذ لباس النساء ويخرج به إلى الطرقات . وانتهى أمره بأن قتله قائده خسرو ، وكان هندكياً وضيعاً يتظاهر بالإسلام ، وما لبث أن أطلق أتباعه يعيثون فى الأرض فساداً هادفين إلى نشر الهندوكية والقضاء على الإسلام حتى اقتحموا المساجد وأقاموا بها أوثانهم وقد جعلوا من المصاحف قاعدة لها ، ولولا أن سارع غازى ملك تغلق قائد الخلجيين بالپنجاب بالقضاء على هذه الفتنة العارمة لتعرضت الدولة الإسلامية الهندية لضربات قاصمة دون شك .

آل تغلق

لم يقبل غازى ملك تغلق عرش الهند حين عرض عليه إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب سيده علاء الدين الخلجى وإن كان هو صاحب الفضل الأكبر فى القضاء على فتنة خسرو ودفع أخطار المغول عن الهند بالپنجاب من قبل وعكف هذا السلطان على تطهير البلاد من الفساد الذى انتشر بها أيام حكم خسرو الهندوكى ، كما ترسم خطط علاء الدين الخلجى فى الاحتفاظ بجيش قوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه ، وشجع الناس على تعمير الأرض وفلاحتها وشق لهم الترع والقنوات . كذلك أنشأ هذا السلطان نظاماً محكماً للبريد بلغ من دقته وسرعته أن وصلت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابن بطوطة عقب وصوله السند بأيام خمسة قطع البريديون فيها تسعمائة من الأميال وقد أشاد الرحالة العربى بما كانت عليه الهند من حضارة ومدنية آل تغلق .

ولقى غياث الدين تغلق حتفه أثر انهيار أحد قصوره عليه ، فخلفه ابنه محمد الذى ترامت أخبار هباته إلى خارج حدود بلاده فوفد إليه جموع من أهل فارس وخراسان والعراق طمعاً فى نواله ، وكان من بين هؤلاء طائفة من العلماء والأدباء والفنانين . وكان محمد تغلق نفسه من المشتغلين بالعلوم ، وقد نبغ فى الطب حتى قام بعلاج الناس وأقام لهم جملة من دور الشفاء .

ويشيد كثير من المؤرخين بما كان عليه محمد تغلق من التسامح ، كما يتحدث ابن بطوطة عنه حديثاً طويلا يذكر فيه فضله وعلمه . وقد عاش الرحالة العربى ثمانية سنوات بالهند ولى خلالها القضاء فى دهلى كما سفر للسلطان محمد تغلق بالصين ، وعاد إلى بلاده فى منتصف القرن الثامن الهجرى بعد أن سجل فى مذكراته الكثير عن هذه البلاد وأهلها .

وكان محمد تغلق هذا صاحب مثل فى تفكيره وخططه ، ولو أن الظروف كانت قد واتته فى تحقيق مشروعاته لأفادت البلاد منها خيراً كثيراً .

فقد رأى فى سبيل تأمين موقفه بازاء خطر الغزو المغولى أن يتخذ من مدينة دولت آباد شمال الدكن حاضرة له يبعد بها عن مواطن الخطر ويتوسط بها فى الوقت نفسه دولته الواسعة .

ولكن برغم ما شقه من طرق كثيرة إلى تلك المدينة وما زود به سكان دهلى من مؤن وما أعد لهم من وسائل النقل ، فقد أدى إصراره على رحيل السكان جميعاً دفعة واحدة إلى حاضرته الجديدة ، فى طريق طويل يبلغ سبعمائة من الأميال ، إلى نزول كوارث شديدة بهم من بينها الأوبئة التى فتكت بهم فتكا ذريعا .

وحين استبان للسلطان فداحة ما ألم بالناس من المصائب فأباح لهم العودة إلى دهلى ثانية ، كانت هذه العاصمة قد حل بها الخراب والدمار بدورها .

كذلك ارتأى محمد تغلق أن ييسر التعامل بين الناس فأمر فى سبيل ذلك بضرب السكة من النحاس بضمان الذهب ، لكن التجار ما غدوا أن رفضوا التعامل بها بعد قليل ، وحين أعلنت الحكومة رفع هذه العملة من الأسواق تقدم الأهلون بأكداس منها كانوا قد زيفوها ، فاستنزف بذلك الكثير من خزائن بيت المال فى عملية الاستبدال هذه .

وانتهى فشل محمد تغلق فى مشاريعه هذه وما نتج عنه من محن قاسية إلى أن شاعت الاضطرابات فى البلاد حتى استقل أغلب الحكام فى البنغال والدكن بما بأيديهم من الإمارات فلم يبق للسلطان من الولايات الكبيرة إلا دهلى والكجرات .

ورقى العرش، من بعد ذلك فيروز تغلق وكان محبا للسلام وانصرف عن استرداد ما ضاع من أراضى الدولة إلى إصلاح نظم الحكم فى حكومته والعمل على رفاهية الأهلين وتيسير سبل العيش لهم .

وقد ظل سلاطين الهند يترسمون خطط هذا السلطان فى التعمير والإنشاء من بعده لقرون عديدة . فقد عنى بأمر الزراعة عناية شديدة توفرت على أثرها الحاصلات إلى درجة أنست الأهلين ما عانوه من مجاعات من قبل ، وقسم الدولة إلى إمارات عهد بادارتها إلى رجال أكفاء ، كما أعاد تنسيق الضرائب وفق قواعد الشرع ووفر العدالة للناس ، وجهد فى إبطال كثير من العادات السيئة ومنها عادة الساتى حيث تقبل الأيم الهندوكية على إحراق نفسها مع جثمان زوجها .

ليس هذا فحسب بل لقد أقام كذلك عددا كبيرا من دور الشفاء والحمامات ودور العجزة ، ووكل بديوان الخيرات المعاونة على زواج الفقيرات من الفتيات ، كما أمر بتدبير أعمال العاطلين وأعان أصحاب الحرف على ممارسة حرفهم .

وأدى شغف هذا السلطان بالمعرفة إلى أن قدم بلاده نخبة من علماء المسلمين اشتغلوا بالتدريس فى مدارسه الكثيرة .

وحض فيروز تغلق البراهمة كذلك على الاشتغال بآدابهم ، وأمر بنقل كثير من الكتب القيمة السنسكريتية إلى الفارسية لسان الثقافة الإسلامية بالهند إذ ذاك .

مات هذا السلطان فى التسعين من عمره عام ٧٩٠ هـ لتتردى البلاد من بعد ذلك فيما يشبه الحرب الأهلية ، حتى أقبل تيمورلنك بجحافله فبلغ دهلى حاضرة الدولة الاسلامية الهندية التى ظلت قرون طويلة تستعصى على الغزاة وغيرهم من قبل .

الغزو التيمورى وآثاره :

اجتاح تيمور لنك السند والبنجاب بجحافله فى ختام القرن الثامن الهجرى وكانت قواته لا تقنع من الحصون والقلاع بالتسليم حتى تسويها بالأرض ثم تعمل السيف فى حامياتها ، حتى بلغت دهلى التى استعصت على جند جنكيز خان وأولاده من قبل .

ولم يرجع ذلك الغازى التركى عن تلك المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ونهب كل ما فيها ثم قتل من أهلها ما يزيد على المائة ألف أقام من هاماتهم اهراما بشرية ، وساق كل من وصلت إليه يده بعد ذلك من السكان أسارى فرقهم فى رجاله . محتفظا لنفسه منهم بأصحاب الحرف ورجال المعمار ، وهم الذين أقاموا له من بعد منشآته الفخمة بحاضرته سمرقند .

ولئن كان الضعف قد غلب على الدولة الاسلامية بالهندستان أواخر أيام آل تغلق على ما ذكرنا من قبل ، فإن الغزو التيمورى جاء يحمل فى طياته الانهيار التام لمنطقة دهلى حتى استقل عنها أكبر ولاياتها وهى : مالوه والكجرات وجونبور والبنغال والدكن ، وانفصلت عنها انفصالا تاما .

وأعظم هذه الإمارات وأغناها هى الكجرات ، فهى إلى جانب ما تحويه من رقعة زراعية واسعة خصبة تعد باب التجارة الهندية الأكبر من قديم .

ويشتهر من بين حكامها السلطان محمود بيكر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . فقد أخذ على عاتقه طرد البرتغاليين من أرض الهند . وكانوا قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة المسلمين وعلى حجيجهم حتى هددوا موانىء الأراضى المقدسة نفسها . وعاون المماليك المصريون والسلاطين العثمانيون سلاطين الكجرات مرات متكررة فى محاربة هؤلاء المستعمرين الذين

استطاعوا آخر الأمر أن يثبتوا أقدامهم فى بعض مواضع بالشاطىء الهندى الغربى، وظلوا بها حتى أخرجوا حديثا منها .

وساعد على استقلال البنغال ، ذلك الاقليم الواسع الغنى ، بعده الشاسع عن سلطنة دهلى .

هذا كما شهد إقليم جونبور نهضة ثقافية قوية فى إبان استقلاله إذ كان قد قصد إليه أغلب رجال العلوم والآداب من دهلى هربا من وجه الغزو التيمورى .

أما الدكن فقد استطاع قائد فارسى يدعو حسن كنكو ظفر خان أن يقيم له به سلطنة واسعة عرفت فى التاريخ باسم سلطنة بهمنى .

وإلى الجنوب من سلطنة الدكن قام للهنادكة إمارة قوية هى إمارة فيايانكر .

وظلت هذه الإمارات جميعا تحتفظ باستقلالها فى الغالب حتى استولى عليها سلاطين الدولة المغولية التى قامت بالهند أوائل القرن العاشر الهجرى .

أما إمارة دهلى فما لبثت بعد جلاء تيمور عنها بقليل أن استولى عليها الأمير الأفغانى خضرخان نائب تيمور بالهند ، وأقام هذا الأمير أسرة حاكمة تعرف فى التاريخ باسم أسرة السادات . وحاول رجال هذه الأسرة أن يوسعوا من رقعة ملكهم ، فخانهم التوفيق حتى قضى اللودهيون آخر الأمر عليهم

اللودهيون

زعيم هـذا البيت الذى انتزع الملك من أسرة السادات ويدعى بهلول لودهى كان أميرا أفغانيا قوى العزيمة داهية ، لم يتردد فى انتهاز فرصة ضعف أصحاب دهلى فبرز اليهم من البنجاب ، وكان عاملهم عليه ، فاستولى على ملكهم ، ثم أفلح من بعد ذلك فى أن يستعيد للدولة الإسلامية قدرا من أراضيها الضائعة ويثبت من هيبتها .

ونهج ابنه سكندرشاه نهجه من بعده ، حتى إذا ما ولى العرش من بعد ذلك ابراهيم اللودهى انطلق يشتط فى معاملة الأمراء الأفغان من بنى جلدته ، وهم الذين طالما ساندوا البيت الحاكم بسيوفهم ، حتى انتهى الأمر ببعض زعمائهم إلى دعوة صاحب كابل الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر للسير إلى بلادهم .

وسرعان ما سار حفيد تيمور هذا إلى الهند فقضى على السلطان اللودهى فى موقعة بانى پت عام ٩٣٢ هـ (١٥٢٧ م) ، وبهذا انتقل الحكم فى الهندستان من أيدى الأمراء الأفغانيين إلى الأتراك التيموريين ، وبدأت حلقة جديدة فى تاريخ هذه البلاد بقيام الدولة المغولية التى أنشأها بابر فى الهند فظلت تحكم هناك قرابة قرون ثلاثة .

الدولة الاسلامية

فى دورها الأول بشبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامى للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الاولى أيام الحكم العربى فى السند باعادة الاتصال الثقافى بين هذه البلاد ومهاد الحضارة فى أرض الفراتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا فى الغـــالب بمبادىء الاسلام الرحيمـة من الأتراك الأفغـان الذين وفدوا على الهنـد من بعدهم ومعهم كثرة من الفرس . فبسطوا نفوذهم على شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملة الثقافة الاسلامية التى كانت قد بلغت بدورها خارج الهنـد إذ ذاك درجـة كبيرة من الـكمال ، فـكان لهم أياد وآثار بارزة لا تنـكر فى رقى الهند وتقدمهـا وازدهار المدنية والحضارة بها .

هذا وكانت الهند بدورها . على الرغم من تفـكـكها السياسى ، ما تزال للحيـاة العقلية بها سوق رائجة ، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفـة وضروب المدنية والحضارة . وفيما كتبه أبو الريحان البيرونى ثبت قيم لما رآه بهـا وشاهده فى أغلب هذه النواحى [1] .

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجها وتأثر المسلمين والهنادكة كل بنصيب من عادات الآخر وتقاليده ، مما يرد عادة إلى إدمان الجوار فى

---

(١) وأشهرها كتابه « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل او مرذولة » وقد نقل الى لغات أوربية عـدة .

البيئة الواحدة المشتركة . فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظاً بصفات جوهرية، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الاجتماعية من جهة ، وتباين أصول الثقافات المنبنية عليها من جهة أخرى .

ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهند ، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم ، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفاً على المسلمين فى الغالب إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنادكة فى الدين الإسلامى هو مالمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم ، ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص مما كان يلزم به غير المسلمين عادة من الجزية .

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب ومن ورائهم رجال الدين يذكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون إكراه فيه فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فرض عليه مايفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاق .

وشهد للمسلمين بما سبق عدول من مؤرخى الهنادكة أنفسهم ومعهم طائفة من المؤرخين الأوربيين، فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى أمان بكنف المسلمين فلم يكن ماتعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لاتمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب .

ولئن كان بعض السلاطين من أمثال سكندر لودهى قد حدوا من حرية الهنادكة الدينية فحرموا عليهم إقامة معـــابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ،

فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحاً عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقاً نحو هؤلاء الذين لم ينعموا بحرية العبادة كاملة فى أيامهم فحسب ، بل وشاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم ومناصب الدولة[1] .

هذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموماً مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ماسعى إليه فريق منهم ـ مثل التمش وآل تغلق من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلباً لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمهم وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب .

ولقد بهرت كنوز الهند الطائلة أنظار غزاتها الأولين فشغلوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده ، حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجارة الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجى نظاماً ثابتاً للضرائب ، وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات فى البلاد وعم اليسر والرخاء . وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كان علاء الدين قد أقامها بدهلى .

---

(١) يقول لين بول ان الاسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الاسلامية ، مهما يكن من عيوبها • كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من الأسباب التى حدت بالأهلين فى الغالب الى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه •

وما يرجعه هذه المخازن السلطانية أمداً طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات المنيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تنحبس الامطار الموسمة عنها. هذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية المنتشرة فى أنحاء البلاد، تقوم يومياً باطعام حشود الأهلين فى هذه الأزمات المخيفة.

ويعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صوراً مفصلة لألوان الحياة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى، ويشيد بقيام العدل وشيوعه وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد.

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند، وقد كانوا على كل حال ينعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم يبلغون مراتب القيادة والوزارة، بل لقد حكمت الهند يوما ما أسرة كلها من المماليك.

هذا ويذكر الرحالة العربى أيضاً أن الخوانق والحمامات والبيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها، وكان يقدم فى الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان.

ولعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند، أنه وجد بمدينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدرسة للصبية، مما يقوم دليلا على عناية الدولة بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة، وعدم إهمالها لشأن المرأة بصفة خاصة.

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة الساتى البشعة. فلم يبيحوها لهم إلا فى أحوال قليلة نادرة وبإذن من السلطان نفسه[1].

---

(١) عادة الساتى هى اقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها ما لم يكن لها ولد فى الغالب.

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد رأى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانيها الغربية ، لاسيما بروج وقاليقوط . لشراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات فارس وخراسان والعراق ومصر .

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم ، ينعم أهله بصفة خاصة بقدر وافر من الثراء . وكانت أرضه تنبت أجود أنواع الكروم والقطن .

ومن مينائه كمباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار بالذهب والفضة والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به . ومنها النسيج على مختلف أنواعه : واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكتفة بأسلاك الذهب والفضة .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمت على أثر الغزو التيمورى أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعاً دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات ، التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى نفس الوقت بكثير من الرخاء ، إذ أوقفت بدورها دخلها ومواردها على نفسها ، وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعاً حظاً فى هذه النواحى .

وبلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الإسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آجمير ومسجد القطب بدهلى ومنارته ، التى ترتفع إلى

٢٤٢ قدم ويتوّجها المرمر فى أجزائها العليا . وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لايفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الألف عمود بدهلى من الروعة والبهاء .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة فى الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، لجاءت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطباع كما يقول المقدسى الجغرافى . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا فى تصميماتهم ، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامى وتساير التطور الفنى فى البلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شىء من ذلك كله على طابعها الأصيل ، فأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتبست بعض الطراز بدورها منها .

ولقد بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثم الغازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهنود الذين عهد إليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع « مزارشاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قثم بن عبّاس فاتح المدينة ، كما سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا يستخدمون فى الغالب اطلال العمائر الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجاً كبيراً على أيدى السلطان

علاء الدين الخلجي ، الذي أنشأ كثيراً من القصور والحصون والخزانات . ويروى أن كل عمود من معبد قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أسرهم في حروبه معهم . وقد أطلق هذا السلطان يد البذخ في الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن والجنوب التي أتى له بها قائده كافور .

وحين تفككت عرى سلطنة دهلي أعقاب الغزو التيموري . رأينا أصحاب الولايات الجديدة بدورهم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التي اختلط فيها عندهم الطراز الهندي بالطرز الإسلامية التي كانت شائعة خارج الهند . وهي التي أتى لهم بها فريق من رجال المعمار الفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد من رجال الفنون والعلوم . ولا يزال كثير من هذه الآثار قائما حتى اليوم في جونبور والكجرات ومالوه وبلاد بهمني الدكنية وبيجابور وأحمد نكروفيايانكر .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوي بالشعراء والعلما والمؤرخين وفيهم البيهقي صاحب تاريخ آل سبكتكين والعتبي الوزير صاحب تاريخ اليميني (يمين الدولة محمود الغزنوي) ، ثم العلامة أبو الريحاني البيروني صاحب التآليف المشهورة عن الهند والعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها .

ولم يكن الذين خلفوا محمود في الهندستان دونه في رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها المعارف والثقافات الإسلامية ، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين

---

(١) أجمع المؤرخون على أن البيروني كان يجيد السنسكريتية ، وأنه أفاد من الحكماء الهنود في التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيراً من معلوماته التي قيدها في كتبه التي أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينيي على كتاب جهار مقالة لنظامي السمرقندي ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ص ٥٣) .

الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك . وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غرِّيد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا ويشهد على وفرة محصول خسرو هذا فى كافة نواحى المعرفة ما تركه من منثورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية نجدها فى أشهر كتابين له وهما « إعجاز خسروى » و « خزانة الفتوح ». وعاصر الدهلوى، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينة طشقند) والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم فقيه آل تغلق معين الدين عمرانى .

أما كتاب النثر فمنهم مولانا خواججى، وأحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخيار . والقاضى الشانهى بليغ العربية ، وعين الملك الملتانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » تعد ثبتا لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أما المؤرخون فنذكر منهم أبا عمرو عثمان منهاج السراج صاحب « طبقات ناصرى » وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروزشاه الذى سجل فيه كثيراً من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى عناية بالغة وأخيراً غلام يحيى أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة(١) والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونبور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانو قد لجئوا إلى هناك هرباً من وجه الغزو التيمورى ومنهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى شهاب الدين الدولتا بادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد ، والفقيه إله داد شارح الهداية ، والفيلسوف مغيث حسنوى .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدءوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف ، وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان المسلمون فى الهند هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب ، فقد رأينا فيروز تغلق ، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت ، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك ، وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروزشاه . كما نقلت كتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لوهى ، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم .

وكما أطلق الحكام المسلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلب الأحيان ، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامة حتى فى المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة بهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادكة فى بيئة جامعة قد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر أثر تعاليم الإسلام قوياً بادى الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادكة أمثال نامديوا كبيراً ونانك اللذين

---

(1) prasad, India, p 569,72

انكرا عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة الساتى وقيام نظام الطبقات بين الناس . وقد نادى هؤلاء جميعاً بالتوحيد وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعاً من مسلمين وهنادكة وغيرهم . بل لقد صرح نانك، مؤسس السِّك ، باحترام شيعته وتقديسهم لرسم الله وأنبيائه كافة ، مع الإشادة بذكر النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة .

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركة لهذه البلاد وإن عد من وجهة نظر الهنادكة ، بداهة ، كارثة قضت على استقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم . إذ اغتصب الغزاة المسلمون بلادهم وراحوا يعلنون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك الوثنية .

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ماغدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة الهندية واستقروا بها ، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التى انتقلت إلى أيديهم تتسرب بدورها إلى خارج الهند ، ذلك التسرب الذى ينتهى دائماً إلى تعرض البلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة .

ولقد بهر أنظار الهنادكة ، أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التى تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن التجسيم الذى كان شائعاً فى كافة نواحى الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التى اعترف مؤرخو الهنادكة أنفسهم بسمو أصولها الإسلامية الأولى . وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال علاء الدين الخلجى وآل تغلق الذين عملوا فى إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية الزراعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ، ونعم الناس قروناً عدة باليسر

والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفـة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى المدمر مرّات عديدة .

وكانت النهضات العلمية والأدبية والفنية ، التى عرفتها الهند على أيدى هؤلاء الحكام فسادت هناك قروناً عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد . وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (٩٣٢هـ — ١٥٢٦م) فعمرت قرونا ثلاثة اتسعت فيها رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها .

الدولة المغولية

الترك والمغول :

سلاطين الدولة المغولية الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها فى تاريخها تمتزج فى عروقهم دماء الترك والمغول فأبوهم ظهير الدين محمد بابر، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة، ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركى تيمور لنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم چنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية . وكان لهما شأن خطير ودور هام ، فى تاريخ آسيا الوسطى بعامة وبلاد الشرق الإسلامى بخاصة ، مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم فى قدر من الإجمال قبل أن نفصل فى تاريخ الدولة المغولية نفسها .

فكم من مدن اسلامية زاهرة انتهبها برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحا ، ثم لم يتركوها حتى سووا أبنيتها بالأرض، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم فى الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الحرف الذين كانوا يسوقونهم من بعد ذلك للعمل عندهم .

على أن هؤلاء المخربين ، حين دخلوا فى دين الله أفواجا وتمكن اتصالهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا فى الغالب إلى حماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب. فكنت تراهم فى الغالب يكدسون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات

ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة ويبذلون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون . حتى كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التى خربها أجدادهم من قبل ، نهضة ثقافية ، وحضارة فذة .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التى تمتد من الصين شرقاً إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط غربا ، والتى تبلغ غايتها من الارتفاع فى منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التى تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد هى فى تشعبها وتفريعاتها ، كانت تعد بحق ، فى القديم ، حاجزاً بين الشعوب المتحضرة والقبائل التى لا تزال بآسيا على البداوة فى الغالب فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له فى التاريخ دور هام وفى الحضارة والثقافة نتاج قوى وإسهام كبير ، ولدينا فى الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيد وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلا عليها .

وفى حين كانت الأراضى الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة . كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالا — باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وما حول نهرى سيحون وجيجون — ما تزال تتجول فى أغلب مناطقها مجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطعان الأنعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، دستورها العرف القبلى البدائى المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيت ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التى تجاور الصين وتقطن الأقاليم

الممتدة فى أواسط آسيا إلى الجنوب الشرق من أوربا حتى ظهور جنكيز خان فى القرن الثانى عشر الميلادى[1] . وبرغم اشتهار أمر المغول من بعد جنكيز خان فقد ظل صيت التتار القديم غالبا ، وصار اسمهم ساريا على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر [2] .

هذا ، وقد سلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى [3] ثم العرق التركى .

أما المنشوريون فهم أغلب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ثم مواطن الأتراك الذين يجاورون الصينيين فى بعض المناطق .

وإلى الجنسين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل الترك :

جاء اسم الترك صراحة ، أول مرة ، فى نقوش أورخون التى اكتشفها الأثريون فى منتصف القرن الماضى ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن

---

(١) التتار عند الصينيين هم الغرباء والشعوب البعيدة والنور من والجماعات غير المتمدينة واللصوص . أنظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص٢٤

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير ١٢ مجلد ـ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء م ٣ ، ٤ . ولعل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدأ أمرهم على بداوة وتأخر تام ، انما هو من اطلاق التجار المسلمين نقلا عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .

(٣) نقصد بالعرق هنا الجنس ، هذا ، والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

الميلادى ، وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك كان فى القرن السادس الميلادى يمتد فيما بين حدود الصين وحدود إيران وبيزنطة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها[1] .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم العريقة فى المدينة إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم إليهم ، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل الكثير من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو » كانت تجاور بلادهم قبل المسيح بعدة قرون . حتى إذا ما اشتد خطرها وتفاقم عداؤها عمدت أسرة تسن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا فى ولاية كانسوه إلى جوار تل على هيئة خوذة ، وهى « دوركاى » بالصينية فنسبوا اليها[2] .

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهر تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز فى منطقة ينى سى ، ومنازل القرلق والتوكوى فى التاى ، والياقوت عند الجنوب

---

(١) ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك ان هؤلاء الأتراك هم احفاد الهون .
Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale pp 6,16

(٢) هذه التسمية التى أوردها باركر (Hist Rev, 1898 p 431-45)
يجب ان تقابل بالحذر هى وما جاء من اشارات للترك عند هيرودوت ، وماذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة توره الواردة فى الأبستاق القديمة RAS 1915 p 305-8

من سيبريا : فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاش وعند سيحون وجيحون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلا عن ترامى رقعتها ، كان يتخللها صحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبـــه بالواحات فى مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها فى نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التى ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تزرع أو مدن تقوم فى هذه النواحى .

ويستثنى من هذا التعميم بلاد ماوراء النهر التى تعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى فهى ، برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يسرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للمياه عديدة ، مقومات الحضر ، فازدهرت فى الغالب ما أفلح حكامها فى ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجى عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التى تعد باب آسيا الوسطى والجنوبية ، نفذ الأتراك والمغول إلى "العالم المتحضر وأفلحوا فى إحداث تغيرات كثيرة خطيرة به .

وقبائل « هونج نو » هذه ، التى تشتهر أيضاً باسم الهون ، تدفقت موجاتها مرات عدة على بلاد ماوراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولاية الامبراطورية الرومانية . وأنزلت ، بقيادة أتيلا ، هزات عنيفة بأوروبا كما هو معروف مشهور .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس . جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم وهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها فى العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك فى القرن الثامن الميلادى لحكموا فى أواسط آسيا ومنغوليا الحالية فى مكان الترك أو غوز « الغُـز » الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غرباً « ليتألق نجمهم فى القرن الرابع الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ويرثون جزءاً من ملك السامانيين ببلاد ما وراء النهر ويعرفون فى التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أُزقند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .

وغزا القرغيز عام ٨٤٠ م منازل الأويغور الذى آثروا الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة .

واتجه القره ختاى ، وهم مغول فى الغالب ، صوب الغرب بدورهم بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من منازلهم بالصين الشمالية وصحراء جوبى ، فاقتحموا منغوليا على القرغيز ودخلوا إقليم خطان وهزموا خان قشغر القره خانى والسلطان سنجر السلجوقى ، وصالحوا أتسز شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها إليهم فى كل عام ، وبلغوا بلخ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

ولئن أدى زحف القره ختاى إلى فتح أبواب منغوليا لهجرات من المغول فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبيتها من الأويغور والغز وبطونهما ، هى صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر . والأيغور هم أغلب الأتراك الذين وجدهم الغزاة المسلمون من العرب ببلاد ما وراء النهر حين دخـــلوها فى أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كان أرقى قبائل الترك قاطبة ، وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ، واستقرت حياتهم فى كثير من المدن التى أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقاء الوعى القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم فى تقليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور فى الغالب حضارة الصُغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسى ، واستخدموا أبجدية ترد إلى أصول صغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية فى النسب ، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمن طويل .

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى انتشاراً واسعاً[١] بعد سقوط دولتهم ، إذ لبثوا ، برغم أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد دوراً سياسياً وثقافياً كبيراً عند دول الترك والمغول ، فقاموا على تنشئة أولاد جنكيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، وأرخوا لهم كما أرخوا لتيمورلنك من بعد .

واستخدم خوانين فارس من المغول ، الأويغورية فى تراسلهم مع بعض أمراء أوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى بابا رومه وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك انجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين .

---

(١) فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطلعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكان الصينيون كذلك يستخدمونه منذ زمن طويل .

وماتزال بدار الكتب الأهلية بمدينة فيينا نماذج من هذه الكتابة كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تعد الأساس الذى قامت عليه الجغتائية لغة الترك التقليدية[1] .

هذا وكانت الديانات السائدة فى الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام ، هى الشامانية التى تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ولكنها لا تؤدى له الصلوات ، وإنما تقوم بها لآلهة الشر إتقـــاء لخطرها ، ثم البوذية والزرادشتية الفارسية التى كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد فى الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى ، وكان الإسلام قد اكتسح مراكز الزرادشتية ببلاد فارس .

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل فى مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقا وحوض الفولجا غربا ، فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء فى نشر تعاليم الدين الإسلامى .

وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلجأوا عموما إلى العنف لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم فى الغالب ممارسة عقائدهم فى حرية تامة كذلك ، حتى رأينا المعتصم العباسى يتشدد فى عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معابد الفرس ببلاد الصغد[2] .

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ١٠٠ ، ١٠١ – ولا تزال هذه اللغة قائمة كذلك فى التركستان الروسية .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٨٦ .

ولئن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منـذ أيام قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى ، فإن إسلام الترك الجماعى لم يبدأ فى صورة واضحة إلا أيام السامانيين فى القرن الرابع الهجرى ، فأسلم خان قشغر. ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه فى دين الله أهل بلاده(١) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خطان .

كذلك اعتنق السلاجقة — وهم من غز الخزر — الإسلام فى القرن الرابع الهجرى ، وكانوا يشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمه وحدبهم عـــلى نصره أهل السنة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز . ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقضوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها(٢) .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا ، وتـكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التى صـار لها شأن كبير فى القرنين الخامس والسادس الهجرى ، وروّج من أحوالها أن بلادهـا كانت من أبواب التجارة التى تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة ، وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصـــين ، ومعهم حلفاؤهم من القبجاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم فى القرن الخامس الهجرى ، لولا ظهور جنكيزخان .

---

(١) تاريخ رشيدى ص ٢٨٦ .

(٢) الأتراك العثمانيون هم كذلك من الغز « الأوغوز » ، والتغزغز هم أيضا من الغز «توقوز أوغوز=قبائل الغز التسع» . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأويغور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وان كانوا جميعـــا من الترك .

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدى شيوخ الفرس المسلمين فى الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ ، والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما غدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائهم وكتابها ، وكانت العربية لا تجد لها سوقا رائجة إلا عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسُّنة .

المغول فى مواطنهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقاتها وصلاتها بالعالم الإسلامى ، لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها متسعة الرقعة عظيمة الثراء كانت قبائل المغول ، عند كريولين وخنجان وفى مناطق الأنون وتولا تما يلى أطراف الصين غرباً ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، فى مجموعات من الخيام الحقيرة المتناثرة بين السهول والغابات ، لايدرى العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكوراً حتى ظهور جنكيز خان فى القرن الثالث الميلادى .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التى كانت تعرفها باسم منغ وا ومنغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التى كانت تحكم بالصين الشمالية فى القرن عشر الميلادى ، أن يستعين بهم وبالقره ختاى فى القضاء على بعض أعدائه من القبائل التى كانت تنزل حول بحيرة بوير نور .

وعلا شأن فتى من المغول يدعى تيموجين فى هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، لُقب بجنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للبطل المغولى الأسطورى قتلق خان الذى كان يمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يُكسر عود من قصب ، والذى كان يبيت فى العراء ، صيف

شتاء ، لا يأبه بالزمهرير ولا يخشى الثلوج ، حتى كانت لفحات اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضه .

واعتز خلفاء جنكيز ورهطه بهذه التسمية ، التى كانت فى أول أمرها من صنع جيرانهم ، حتى رأينا رجال البلاط المغولى يحذرون الرحالة الأوروبى جون ربرك ، حين زار بلادهم فى منتصف القرن الثالث عشر ، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان الأكبر بأنه تترى ، بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .

ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادى حتى انطوت قبائل المغول والأتراك ، فى صحراء جوبى ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة هاى فى إقليم كانسو وأسرة كين فى الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستدير هناك ليبلغ منغوليا ، فكان أرسلان خان ، أمير القرلق هناك أول حاكم يستسلم له .

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون وده ، وفيهم نفر من القبچاق ، حلفاء شاه خوارزم وأصهاره ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغول ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الإسلامية وتنظيم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على أترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعا من المسلمين ، ظناً منه أنهم من عيون الخان المغولى ، لتنطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول[1] بلاد ما وراء النهر كلها

---

(١) كانت قوات المغول تضم جندا كثيرا من الترك ، بل ان كثيرا من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغـــول واختلط بهـم كانوا يدعون نسبتهم المغول جرا للمغانم

D'Ohsson Hist. des Mongols T, I pp 248,9

ويخربوا جرجان وبخارى وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاما ويفنون حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداعهم، ثم يسوقوا الاهلين أمامهم قسراً ليكونوا لهم من سهام أعدائهم درءاً.

ولم يواف جنكيزخان أجله عام ١٢٢٧ م حتى كان له، إلى جانب خوارزم وبلاد ما وراء النهر، خراسان وأجزاء من فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة فى الجنوب الروسى، لينطلق أبناؤه من بعده فيتوغلوا فى كوريا والصين وإيران. ويبلغ قوادهم القارة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الادرياتى وأبواب فينا، ويفر من أمامهم ملوك بولندهوالمجر، وتقضى سهامهم على دوق بروسياودوق سيليزيا وفرسانه التوتونيين.

ولولا أن اضطروا العودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاى ابن جنكيزخان المغول الأعظم فى قراقورم، ونشوب الفتن بالصين، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الإسلامى التى صادفتهم، إذ قضوا على قواتهم العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكرى كله، الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما بعد، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم(١).

وإذ كان جوجى خان، الابن الأكبر لجنكيز، قد مات فى حياة

---

(١) عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م - كان يقود المصريين سلطانهم المظفر قطز ويعلق المؤرخ أبو الفداء على هذه الواقعة «٣ ص ٢٠٥» فيقول «... وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام، ولأنهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه».

أبيه ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التى كان يتولاها عندسهول القبجانو الأقاليم الواقعة فيما بين بحرى آرال والخزر ، وعند وادى الدون والبحر والأسود ، هذا فى حين عقد لأوكتاى ، أصغر أبناء چنكيز ، زعامة المغول فى قراقورم .

أما جغتاى ، ثانى الأبناء ، فقد صارله بلاد ما وراء النهروخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان ، وهى مناطق يتباين سكانها فى أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ، كما تتباين طبيعتها كذلك . ففيها صحراوات واسعة جرداء وبجوارها مراع وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة وقامت بها حضارات .

وكان جغتاى يعد فى حياة أبيه أقدر فقيه فى الياصا، حتى منعه قومه من المشاركة فى الحروب بعد وفاة خانهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء چنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ، عهدوا اليه كذلك برآسة مجلس الأمراء المغولى لتثبيت أوكتاى أصغر أبناء چنكيز على مقام أبيه وزعامته فى قراقورم .

واتخذ الأمير جغتاى من المالق ، فى الوادى الأعلى لنهر إلى قصبة لملكه ، دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ، وكان رجالها بدورهم يفضلون

---

(١) أصلها ذرا صاق ، فذكرها الفرس والعرب « ياصا » ترخيما . وهى دستور المغول الذى دونه له الأويغور أصحاب ديوانه . وهى مزيج من القوانين الموضوعة على ارداة جنكيز وأنفع للعادات القبلية ، ومما تدعو اليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة التامة للخان الأعظم .

تاريخ جهان كشا لعطا ملك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناسا منحلة أو عبيداً للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعاً ، على بلاده وعلى أهلها فعرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد جغتاى ،وعرف الأتراك فيها بخاصة،وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الجغتائيين .

وبرغم بقاء جغتاى على دين آبائه وكراهية قومه عموماً للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين . وبنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلادماوراء النهر وغيرها كذلك(١) .

ووافت جغتاى وأخاه أوكتاى المنية عام ١٢٤١ م،وابن أخيهما ، باتوخان، يتوغل إذ ذاك فى أوربا مع نفر من أبنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامى وأوربا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخريب المغولية من جديد . فعبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمر بغداد حاضرة الخلافة تدميراً ، وقتل الخليفة العباسى نفسه شر قتلة ، ولو لاصد المصريين لجنده بأرض فلسطين كما هو معروف مشهور، لقضى على تراث المسلمين كله وخربت ديارهم جميعاً فى الغالب .

---

(١) كان المغول فى الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المسلمين فى فتوحاتهم فاسلم فريق منهم . وكان اول من أسلم من أمرائهم هوبركه‌خان حفيد باتوخان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك فى القــــرن السابع الهجرى ، وتبعه أحمد تكودرى الايلخانى حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازان خان وأخوه للجايتومحمد خدابنده فاتخذا الاســـلام دينا رسميا لدولتهما . أما الجغتائيون فلم يبدأ اسلامهم الجماعى الا فى القـــرن الثامن الهجــــرى .

وبموت هولاكو بدأ نجم المغول في الأفول التام . وأتاحت الاضطرابات ، التي غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتنسلخ عن سلطانهم .

وما لبثت الأتراك ببلاد ماوراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الجغتائيين يجرى على هواهم .

ولم يعد لأمراء المغول ، من بيت جغتاى ، من النفوذ والسلطان إلا في قشغر ويرقند وآلاطاغ ومغولستان ،وبقى خوانينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبك أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمور لنك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمور لنك ببلاد ماوراء النهر في النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى بداية تحول جديد في تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدى المغول الجنكيزيين إلى أيدى الأتراك الجغتائيين، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركى ، ظهير الدين محمد بابر ، إلى بسط سلطانه على الهندستان ، وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك ، حتى أظلت رايتهم شبه القارة الهندية كلها .

ولقد وصل تيمور في شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن استوزره الأمير الجغتائي إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند إذ ذاك ، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره حتى اتخذ مكانه على عرش سمرقند عام ٧٧١هـ (١٣٧٠م) ، بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربى من بلاد جغتاى ، وإن ترك لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الامارة[1] .

---

(١) ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور الى المغول هو من وضع =

وتملكته شهوة الفتوح ، فضم إلى ملكه مغولستان وخوارزم ، كما اقتحم جدود الهند فبلغ دهلى التى استعصت على المغول من قبل ، فلم يرجع عنها حتى دمرها وساق معه كثيراً من أهلها أسارى ، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا له منشآته ببلاده .

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشام ، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع فى أسره بايزيد سلطان العثمانيين . وإن هى إلا بضع سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ، وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفيا وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف ، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

وما غدت هذه المدينة ، التى تألق الخاقان التركى فى تجميلها بمنشآته الكثيرة الفخمة ، والتى شق إليها طرقا برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الإتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تعرض بها صنوف السلع وتعج بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧هـ - ١٤٠٥م فى إحدى حروبه مع جيوش الصين عند أترار ، فاقتسم ملكه من بعده ولداه جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه . حتى إذا ماقتل الأوزبك ثانى الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده، طفق الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد أبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس .

= بعض كتاب الأويغور الذين ذهبوا الى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين ، أرادوا بذلك أن يضفوا على تيمور عراقة النسب تقربا منه،وتملقا .
(٢) الأوزبك نسبة الى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشى خان .

وخلف اُلغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠هـ١٤٤٦م ، فدخل فى منازعات وحروب متواصلة من أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عنه الغ بك ملكته الحربية فقد تلألأ عنده نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرستيه الجامعتين ، فى سمرقند وبخارى ، التى كتب على أبوابهما « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبتها ، فكان يشاركهم فى الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب فى مرصده الذى أقامه بسمرقند .

وقد نظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لهذا العلم فى وقته(١) .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركيته فقد كان شديد التعلق بكل ما يرجى فيه رقى الإنسانية والفكر البشرى عامة .

وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبو سعيد ميرزا . بعون من الاوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعاً ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وامتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركمان فاقتحم آذربيجان لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزن حسن زعيم التركمان أن يتسلل إلى جبال آذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتتفشى المجاعة فى الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد

---

(١) لم تكن بخارى أو سمرقند وحدهما المدينتان اللتان شهدتا نشاط التيموريين الثقافى ، فهاهو بلاط الأمير التيمورى السلطان حسين بيقرا بهراة بخراسان كان يزدحم برجال الفكر من العلماء والفقهاء والشعراء حتى الموسيقيين والبهلوانيين (أصحاب ألعاب القوى) وذلك بفعل الثقافة الاسلامية .

الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبو سعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند، سوى أربعة منهم فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى ألغ بك إقليم وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهراة ، ليغتصبها منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا ، فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة فرغانة ، فقد أدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول أصهاره والأتراك إخوته ، فى حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩ هـ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ، فيحمل عبء خصوماته من بعده ابنه الصبى ظهير الدين محمد بابر الذى قُيض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية فى تاريخها .

سلاطين الدولة المغولية

ظهير الدين محمد بابر

خلف بابر مؤسس هذه الدولة ، وهو فى الثانية عشرة من عمره أباه عمر شيخ ميرزا فى إقليم فرغانة ببلاد ما وراء النهر (٨٨٩هـ) ، وقد ورث عنه مشاكله مع جيرانه وكانوا ما بين أخوال له من المغول وأعمام من الترك ، كما ورث عنه كذلك طموحه وحبه للغزو والفتوح . ومن عجب أن ذلك الصبى لم يمض عليه الا أعوام قليلة على عرش فرغانة حتى انقض على سمرقند فاستخلصها من أيدى أبناء عمومته واتخذها حاضرة له كما كانت حاضرة لجده الاكبر تيمور من قبل .

وجلس بابر على عرش تيمور مائة يوم فإذا هوما بين عشية وضحاها يفقد سمرقند كما يفقد فرغانة سواء بسواء وذلك بسبب ما كان من تآمر بعض أقاربه ورجاله عليه ، وما ان تواتيه فرصة جديدة فيسترد تلك المدينة وكانت قد صارت فى حوزة الاوزبك المغول ، حتى يقدم اليه شيبانى خان الاوزبك ، فلا يخرجه من سمرقند فحسب بل ويطرده من بلاد ما وراء النهر كلها بما فيها فرغانة ويشتت جيوش خالية المغولين أحمد خان ومحمود خان وكانا قد قدما لنجدته ، على أنه ما لبث أن استطاع أن يجمع من حوله بعض قبائل المغول والترك الفارين من وجه الاوزبك عند الجنوب الشرقى من بلاد ما وراء النهر . فسار بهم جميعا الى أرض كابل وغزنه . وكان أحد أعمامه قد توفى حديثاً عنها ، فأقام قرابة عشرين عاما قبل أن يقبل على غزو الهند .

ودخل الأوزبك من بعد ذلك خراسان فقضوا على بيت السلطان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين الكبار بعد أن ثبتوا أقدامهم ببلاد ما وراء النهر .

ثم استداروا يطرقون على بابر أبواب ملجئه فى كابل حتى ظن أن لا عاصم له منهم إلا بالفرار إلى الهند .

على أن شيبانى خان ما عدا أن ابتلى باسماعيل الصفوى شاه الفرس الذى قضى عليه وانتزع جزءاً كبيراً من أراضيه .

وأمد الشاه الصفوى حليفه بابر بفرق من جنده القزلباش ليستعين بهم على استرداد أملاكه الضائعة ببلاد وراء النهر . ولئن رحب الأهلون أول الأمر بأميرهم القديم حتى دخل بخارى وسمرقند ، إلا أن المذابح الرهيبة التى ارتكبها جنود الشاه الفارسى لإرغام الناس على اعتناق مذهب الشيعة — تلك المذابح التى يقر مؤرخو الفرس أنفسهم ببشاعتها — أدت آخر الأمر إلى ائتلاف الأهلين مع الأوزبك لطرد هؤلاء الغزاة عن بلادهم ومعهم بابر نفسه الذى حاول أن يمنع قواد الفرس عما ارتكبوه من آثام فلم يستمع له منهم أحد .

ولو أن رجال العالم الإسلامى الكبار فى ذلك العصر ، من الفرس والعثمانيين المصريين — وكانوا جميعاً أولى قوة وبأس — كانوا قد نبذوا هذه الخلافات المذهبية البشعة وإئتلفوا يدا واحدة لأمكن لهم دون شك الاضطلاع بنهضة إسلامية قوية جديدة كانت جديرة بالوقوف فى وجه أوروبا التى كانت قد انتزعت إذ ذاك الأندلس من أيدى أصحابه المسلمين وشردتهم وعواهل المسلمين بمنازعتهم فيما بينهم اذ ذاك عنهم فى شغل سادرون ، بل ولتأخر كذلك على الأقل ظهور روسيا على مسرح التاريخ ، تلك الدولة التى سرعان ما استغلت هذا الصراع المذهبى بين الدول الإسلامية

المتاخمة لها ، فلم تصبح مصدر تهديد لهم ظل قائماً حتى اليوم فحسب ، بل ونفذت كذلك إلى قلب آسيا الإسلامية وشردت من سكانه ملايين عديدة بعد أن لبثت سنين عديدة من قبل تلتزم بدفع الجزية لهـم ولايرقى أميرها العرش إلا بموافقتهم .

وولى ظهير الدين بابر وجهه من بعد ذلك قبل الهند ، فاذا هو يدخلها غازياً فى قلة من الجند واجه بهم جيوشاً كشيفة فى أرض متراميه الاطراف واسعة الثراء .

وكانت هذه البلاد كما ذكرنا من قبل ، قـد سادها التفكك حتى تقاسم أغلب ولاياتها الأمراء الافغان المسلمون والأمراء الهنادكة . وصار الحال إلى أن سعى فريق منهم عند صاحب كابل ليقدم إلى بلادهم ويخلصهم من استبداد السلطان ابراهيم ، آخر اللودهيين ، بهم .

ولم يتردد بابر فى تلبية تلك الدعوة إلى الأرض التى سبقه إليها من قبل جداه جنكيز وتيمور ، فخرج إلى الهند فى غزوات أربعة تم له فيها الاستيلاء على السند والبنجاب ، حتى التقى آخر الأمر مع جيوش دهلى فى المعركة الفاصلة عند بانى بُـت على مسيرة عشرة أميال شمال دهلى . وبرغم ما كان معه من جند لايزيد عدده على اثنى عشر ألفاً فقد تغلب على جنود السلطان اللودهى المائه ألف ومعها ألفين من فيول الحرب ، وساعده على ذلك مدفعيته وبنادقه وعرباته الحربية التى لم تـكن تعرف الهند نظيرها ، فضلا عن شجاعة رجاله وتساندهم معا .

وجلس الفاتح الجديد على عرش الهنـد بآجرا فى رجب من عام ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) فأخذ فى توزيع ماوقع بيده من كنوز الهند الكثيرة على رجاله ، وبلغ من كرمه أن بعث إلى العلماء والفقراء فى أغلب المزارات الإسلاميـة بالعالم الاسلامى بنصيب منها ، كما خص كذلك كل قاطن بـكابل بقطعة من

النقود الفضية تذكارا لانتصارته هذه . وكانت هذه الكنوز تضم فيما تضم ماسة كوهينور أكبر ماسة عرفتها الدنيا ، وهى التى سرقها البريطانيون فيما بعد وزينوا بها تاج ملكتهم فيكتوريا .

وما من شك فى أن انتصار بابر هذا ، وهو فى جنده القليل ، قد أعلا قدره فوق جميع من سبقوه من غزاة الهند المسلمين من الغزنويين والغوريين الذين كانوا لايسيرون فى أقل من مائة ألف من الجند .

وتغلب بادشاه الهندستان الجديد ، بحزمه وقوة عزيمته ، على تذمر رجاله الشديد من حر الهند ، الذى أضاع من قبل على الأسكندر المقدونى ومحمود الغزنوى من بعده ثمرة فتوحاتهم الهندية ، ليتوجه بهم من بعد ذلك للقاء راناسنكا سيد الراجپوتانا وأكبر أمراء الهنادكة وأعظم أبطالها ، حتى لاتزال الهند تترنم فى أغانيها الشعبية بذكر بطولته إلى اليوم . وكان هذا الراجا قد طفق يؤلب أمراء الهند ، مسلمين وهنادكة للوقوف معا فى وجه الغازى الجديد . هنالك أعلنها بابر حرب جهاد أعلن معها ورجاله إقلاعهم عن مقاربة الشراب فأهرق ما بالدنان من نبيذ على الأرض وحطمت كؤوس الشراب من ذهب وفضة إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقة .

وخرج الفاتحون من نصرهم الحاسم هذا على الراجپوتيين فى خانوه، ليواجهوا ثورات الأفغان فى الشرق ويطاردوهم حتى حدود البنغال . وبهذه الواقعة الثالثة تم لبابر إخضاع الهندستان كله .

ولم يمهل الأجل صاحب الهندستان الجديد طويلا بعد ذلك فمات عام ٩٣٧هـ (١٥٣٠ م) وهو فى الخمسين من عمره والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، ولم يكن قد أمضى أكثر من سنوات ستة فى بلاده الجديدة .

وهكذا أمكن لبابر قبل موته أن يحقق أمله فى إقامة دولة كبيرة له بعد

مغامرات متلاحقة أدت به ، كما يقول فى سيرته ، أن لا يقضى شهر رمضان فى عامين متتاليين بمكان واحد ، فصار له بديل فرغانة الصغيرة دولة مترامية الأطراف امتدت من البنغال شرقا إلى ماوراء كابل وغزنه غربا ، ولم يزل أبناؤه من بعده يزيدون فى رقعتها حتى أظلت رايتهم شبه القارة الهندية كلها .

وبرغم قصر المدة التى قضاها بابر بالهند فقد جهد فى إصلاح نظم الإدارة بها وشق كثيراً من الطرق وأقام جملة من المنشآت والبساتين التى جلب لها صنوفا من الثمار والنبات مما لم تكن الهند تعرفه من قبل .

وإلى جانب مكانة بابر الحربية الفذة فقد خلف من ورائه ثروة أدبية خالدة أشهرها سيرته (بابرنامه) التى كتبها بنفسه بالتركية الجغتائية فى أسلوب ينم عن تمكن صاحبه من أصول الثقافة الإسلامية تمكنا تاما ، وقد تحدث فيها بصراحة وصدق عن نفسه ومعاصريه وأسلافه ، دون أن ينكر فضيلة لعدو أو يخفى رذيلة لصديق ، كما وصف لنا فيها كل بلد دخله وصفا دقيقاً مفصلا شمل مقومات كل إقليم وسكانه فى جميع نواحيهم التاريخية والجغرافية والثقافية . ونهج أبناؤه من بعده نهجه هذا فى تدوين سيرهم وكانوا جميعا يقتدون فى ذلك بما فعله جدهم الأكبر تيمور .

ناصر الدين همايون

خلف همايون أباه على عرش الهند وخزانة الدولة خاوية لكثرة ما استنفذته هبات بابر وعطاياه من الأموال . هذا كما كان جند الدولة من الترك والمغول والفرس قد أثارت كثرة الغنائم مع اختلاف العرق شحناء الحسد فيما بينهم . أما أمراء البلاد من أفغان وهنادكة فقد كان لايزال منهم بقية تتربص بالغزاة الجدد الفرصة لاسترداد ما انتزعوه من أراضيهم . ذلك أن بابر وإن تمكن حقيقة من كسر شوكة هؤلاء الأمراء إلا أن المدة القصيرة التي قضاها على عرش الهند لم تتح له القضاء التام على الخارجين عليه فى بلاد مترامية الأطراف كهذه .

ولم يقنع كامران ، أخو السلطان الجديد ، باقليم كابل وغزنه الذى وليه حتى سقط على البنجاب فضمه إلى ملكه ، وبذلك قطع الطريق على الامدادات التى كان يدعم بها سلاطين دهلى الكبار جيوشهم من رجال البلاد القوية فيما وراء وراء الهندكوش .

هذا كما التف بعض الأمراء الأفغان بدورهم حول بهادر خان صاحب الكُجرات وأخذوا يحرضونه على إخراج همايون من الهند . ولئن أفلح السلطان الجديد فى انزال الهزيمة بسلطان الكجرات برغم مساعدة البرتغاليين له ومدهم إياه بالمدافع — وكانوا ينزلون ببعض شواطىء بلاده — إلا أن سوء إدارة أخيه العسكرى لهذا الإقليم حين عهد اليه بأمره أدت فى النهاية إلى ضياع الكجرات ومعه إمارة مالوه المجاورة له من أيدى الدولة الجديدة .

ولم تقف متاعب همايون عند هذا الحد ، إذ أفلح أحد الأمراء الأفغان .

ويدعى سورى (نسبة إلى إقليم سور فى جبال الأفغان) ، فى أن يستدرجه إلى كمين محكم فى قتاله معه بالأقاليم الشرقية ، فأنزل به هزيمة حاسمة ، حتى كاد همايون نفسه أن يلقى حتفه فى مياه الكنج غرقا لولا أن رآه سقاء مصادفة فحمله على زقه.

وما زال شيرخان بهمايون يطارده حتى أخرجه من الهندستان كلها وجلس هو على عرشها مكانه باسم شيرشاه .

وما غدا شيرشاه أن أخضع مالوه والبنغال لحكمه كما أنزل بالأمراء الهنادكة الراجپوتيين ضربات متلاحقة شديدة . بيد أنه أصيب فى إحدى المواقع بشظية من قذيفة قضى بسببها بعد قليل بعد أن حكم الهندستان سنين خمسة تعد من خير أيام هذه البلاد . فقد قضى على نظام الاقطاع وأنشأ للدولة جيشا قويا تلتزم بدفع نفقاته من بيت المال ومد ما يزيد على الآلاف ميل من الطرق المعبدة التى تظللها الأشجار وزودها بمنازل للمسافرين والدواب مما ساعد على رواج أحوال صغار التجار تبعا لذلك . كذلك أنشأ المدارس الكثيرة والمساجد ورتب الاجور للطلبة والمعلمين على السواء ، وأقام مطاعم شعبية كثيرة فى أنحاء متفرقة من البلاد وأباحها للفقراء بالمجان .

ولبثت أسرة شيرشاه تحكم الهندستان خمس عشرة سنة حتى استطاع همايون أن يعود إليها من جديد بمعاونة طهماسب شاه الفرس الذى آواه فى محنته .

ذلك أن همايون حين اخرج من ملكه انتهى به المطاف بعد عناء شديد إلى بلاد الفرس حيث لقى كل ترحيب عند طهماسب بن اسماعيل الصفوى. وأمد شاه فارس مضيفه ببضعة آلاف من الجند طارد بهم أخويه كامران وعسكرى فى أرض كابل والسند حتى ظفر بهما ، ومن ثم سمح لهما بالهجرة إلى الحجاز فبقيا هناك حتى آخر حياتهما .

وما أن انتهى من أمر إخوته هؤلاء حتى اقتحم البنجاب ودخل لاهور حاضرته بعد أن هزم آخر سلاطين أسرة شيره شاه هناك .

ولم يطل بهمايون الأجل على عرش الهند ليجنى ثمار جهاده الشاق الطويل ، إذ أنزلقت قدمه على درج مكتبته المرمرى فمات بعد قليل . ولو كان الأجل قد امتد به لأتم بناء المرصد الذى كان قد شرع فى بنائه غير بعيد من مكتبته الفخمة التى كانت تزخر بالمؤلفات القيمة والتى لا يزال بناؤها قائما حتى اليوم .

جلال الدين أكبر

خلف همايون على عرش الهند ابنه جلال الدين أكبر أعظم من عرفته شبه القارة الهندية من الحكام على الاطلاق منذ القدم ، بل إن المؤرخين ليجمعون على أنه كان أبعد حكام العالم صيتاً وأخلدهم ذكراً فى عصره .

ولقد ولى أكبر العرش وهو فى الرابعة عشرة من عمره عام ٩٦٤ هـ (١٥٥٦م). ولكن كان من حسن طالعه أن لقى إلى جانبه قائد أبيه بيرم خان التركمانى الذى أبى إلا أن يلازم همايون طوال محنته بالمنفى دون رجاله جميعاً .

وبهمة بيرم خان هذا قضى على قوات هيمو الكثيفة قائد السلطان محمد عادل سورى بعد أن كانت قد استولت على دهلى ثم دخلت آجرا نفسها عقب موت همايون ، حتى رأى بعض رجال الدولة الارتداد من جديد عن الهندستان إلى كابل . إذ أمكن لهذا التركمانى القدير ، بقواته التى لم تكن تعدو العشرين ألفاً من الجند ، أن ينزل آخر الأمر بعدوه وجنوده المائة ألف هزيمة حاسمة ألقت الرعب فى قلوب جميع الخارجين على السلطان الجديد من بقايا أسرة شيرشاه سورى جميعاً .

والتفت بيرم خان من بعد ذلك فى عزم إلى تنظيم أداة الحكم ، كما عنى عناية فائقة بتثقيف أميره وحضه على طلب المعرفة ، ثم بعث من بعد ذلك بالجند لاسترداد ما فقدته الدولة من أراضى ، فلم يمض عامان حتى عادت لها حدودها القديمة التى كانت لها أيام بابر مؤسسها .

ولكن كان أن أدى تغالى بيرم خان فى تقريبه لأبناء مذهبه من الشيعة ومضايقته للسنيين أصحاب الكثرة الغالبة فى البلاد إلى إثارة النفوس عليه . وعاون

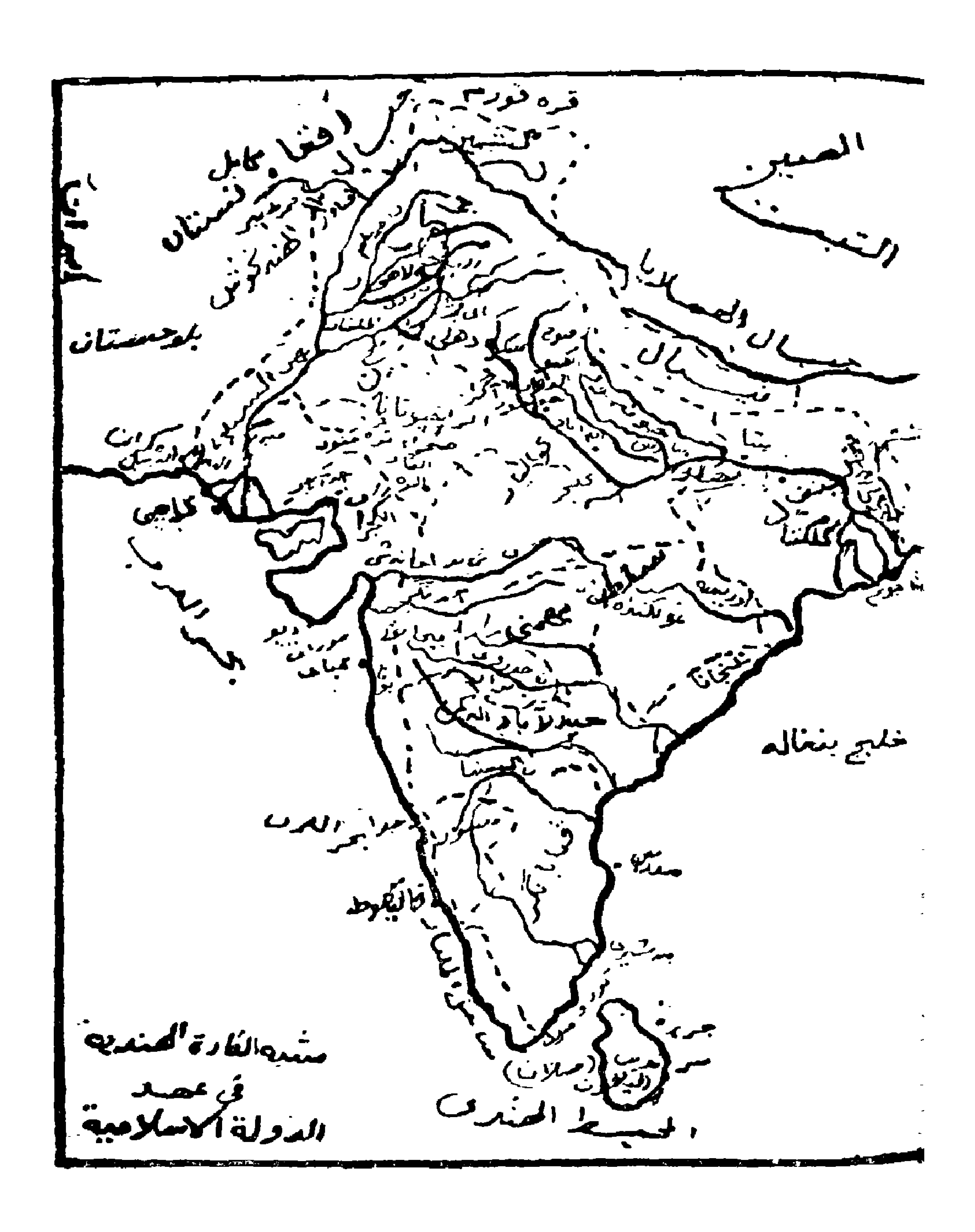
على تنفير السلطان من وزيره كذلك طائفة من نساء القصر وفيهن مربية أكبر ، وتدعى ماهم أتكة ، وذلك بسبب تقتيره عليهن فى النفقات . ولم تجد مقاومة الوزير نفعاً حين أحس بقرب عزله فأعلن العصيان ، إذ سقط أسيراً آخر الأمر بأيدى السلطان الذى عفا عنه لسابق أياديه عنده وسمح له بالالتجاء إلى الأراضى المقدسة . على أن أحد أعدائه اغتاله وهو فى طريقه إليها .

وانفرد أكبر من بعد ذلك بالحكم ليواجه دسائس نساء القصر ، فقضى عليها ليبدأ من بعد ذلك عهدا جديدا فى حكم الهند حيث أخذ يفكر فى تأليف سكان الهند جميعاً ، مسلمين وهنادكة ، تحت رايته . فأصهر فى سبيل تحقيق ذلك إلى الهنادكة ، وفتح أبواب قصوره لهم ، وقلدهم المناصب فى الدولة والجيش ، ورفع الجزية عنهم جميعا ، فكانت خطواته هذه هى البداية الحقيقية لتحويل الهنادكة وأمرائهم من أعداء للدولة إلى خدام لها مخلصين .

والتفت أكبر من بعد ذلك إلى الفتوحات ، فدخلت قواته البنغال والكجرات كما نفذت إلى الدكن ، وصارت هذه الأراضى كلها تخضع خضوعا حقيقيا للسلطان أكبر الذى كان هو أول من انتقل بالسلاطين البابريين من مجرد غزاة محاربين إلى أصحاب دولة واسعة قوية وطيدة الأركان .

ونجحت عبقرية هذا السلطان كذلك فى تنظيم حكومته وطريقته فى الحكم التى أجمع المؤرخون على إنه لم يكن لها نظير فى دقتها فى عصره ، هذا عدا النهضة العقلية التى بداها كذلك ووصل بها إلى درجة من الرفعة لم تبلغها أوربا نفسها إذ ذاك .

وبرغم أن أكبر قد حرم من قدر وافر من التعليم فى الصغر ، بسبب



الصين
التبت
جبال الهملايا
أفغانستان
كابل
هندكوش
بلوجستان
كراتشي
بحر العرب
خليج بنغالة
كلكتا
كاليكوت
(سيلان)
المحيط الهندي
شبه القارة الهندية
في عهد
الدولة الاسلامية

اضطراب حياة أبيه همايون فشب وهو لا يحسن القراءة والكتابة إلا أن حياته الطويلة قد فاضت مع ذلك بالنشاط العقلى إذ كان قوى الملاحظة شديد التعطش للمعرفة ، فتعلم عن طريق التلقين ، واستوعبت ذاكرته كل ما كان يقرأ فى حضرته من عيون الكتب الكثيرة حتى أمر بترجمة كتب الهند القديمة وقراءتها له كذلك .

ولم يكتف أكبر بقراءة هذه الأسفار ، حتى راح فى سبيل دراساته ، يستدعى إليه شيوخ العقائد من بَرْهَمِيّة وبوذية وجينية وويشية ونصرانية وزرادشتية ليعرضوا عليه بضاعتهم عله يبلغ إلى علة الفروق بينهما حين تكفر كل فرقة أختها .

ولم يكن أكبر وهو المفكر المسلم الحر ليحجم عن إعلان إعجابه بما يعرض عليه من نواحى الخير والمبادىء الإنسانية فى هذه العقائد .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعاً فى حرية وتسامح مطلقين وقت أن كانت أوروبا تجتاحها موجات من التعصب مدمرة ، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت فى فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبحون الكاثوليك فى انجلترا ورجال الكنيسة فى إيطاليا كانوا يحرقون العلماء بتهمة الهرطقة .

والمعروف أن أكبر الذى كان يعمل ، فى سبيل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة التى قد تنتهى به إلى غايته ، ود لو أنه استطاع إذابة الديانات فى مذهب واحدة يقوم على التوحيد ويجمع ما فى هذه المعتقدات من الفضائل ، فيقضى بذلك على الخلاف بينها ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان ليبلغ بذلك إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .

إلا أن مَسعاه هذا لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده

فى دار العبادة « عباد تخانة » التى أنشأها لذلك ، فلم يتبادل شيوخ العقائد هناك الا أفظع الشتائم وأشد النكات .

وعلى هذا ، فقد أدرك أكبر قبل الفلاسفة المحدثين بزمان طويل أن المعتقدات لا تخضع للعقل الصرف وحده .

وبرغم سخرية البادشاه أكبر من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه فى غير استحياء لما كان من تلطفه معهم واعجابه ببعض مبادئهم .

وانتهى بأكبر الحال الى ابتكار مذهب جديد ، بمعاونة وزيره أبى الفضل وأخيه فيضى ، أراد به أن يقضى على تناحر الفرق وأن يهيىء السلام للناس والأمن للدولة ، ويعرف هذا المذهب فى التاريخ باسم « المذهب الإلهى » ويقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه التصوف والفلسفة بالعبادات . وقد شنع على أكبر بعض خصومه فى ذلك فقالوا بأن اتباعه كانوا يؤلهونه اذا كان نداؤهم فيما بينهم هو : « الله أكبر ، جل جلاله » . ويحسم الفيلسوف الهندى السيد أمير على هذه المسألة بقوله إن أكبر لم يرم بفكره هذا الفلسفى الا الى تنقية الدين الإسلامى من الشوائب التى لحقت به على طريقة المتكلمين ليس غير .

وقرن أكبر اعلانه مذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة فمنع عادة الساتى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن زواج الأقارب ، ومنع زواج الأطفال ، أو زواج النساء بشبان يصغرونهن بسنين كثيرة . هذا كما منع استرقاق أسرى الحرب ، واختلاط الرجال بالنساء فى الأسواق وأعفى الهنادكة من ضريبة الرؤوس .

كذلك عنى أكبر عناية كبيرة بتوسيع رقعة الأراضى الزراعية درءاً للمجاعات، وأصلح نظام الضرائب ، وزود جيشه بالخبراء من العثمانين ومولدى البرتغاليين وأقام له مصانع الأسلحة ، وشجع التجارة والصناعة .

وكان من أثر اشتغال أكبر بالعلوم والآداب أن ظهر بالهند جمهرة كبيرة من المؤرخين والعلماء والأدباء من المسلمين والهنادكة على السواء ، حتى رأينا المؤرخ عبد القادر بداونى ، معاصر أكبر ، يوقف المجلد الثالث من كتابه «منتخب التواريخ» على ذكرهم . ولقى هؤلاء جميعاً عند أكبر كل اجلال وتوقير حتى كان يقدم الى شيخه عبد النبي صدر الصدور نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . ونهضت الفنون الجميلة بدورها فى عهده نهضة رائعة تشهد عليه آثارها التى تزدان بها كثير من متاحف الدنيا . ودفع بأكبر ولعه بالتصوير أن كان يقيم معرضاً لأعمال النقاشين مرة كل أسبوع ببلاطه . ولمدرسة النقش المغولية التى نشأت فى عهد أكبر صيت ذائع فى عالم الفن حتى اليوم ، وفنون الهند جميعاً كانت فى عهد أكبر تتفوق فى كثير على نظائرها بأوروبا اذ ذاك .

نور الدين جهانكير

لم يكن أكبر ، وهو ما هو فى رعاية العلم والعلماء ، ليغفر لابنه الأمير سليم اشتراكه فى قتل وزيره العالم المؤرخ أبى الفضل بن المبارك حتى جال بخاطره أن يحرمه من وراثة العرش من بعده ، ولكن كان من حسن طالع هذا الأمير أن قضى أبوه قبل أن يتم ما انتواه ، فرقى العرش عام ١٠١٦ هـ (١٦٠٥ م) باسم جهانكير وكان فى السادسة والثلاثين من عمره . وبرغم ما كان من ميل هذا السلطان للشراب فقد كان على درجة عالية من الثقافة وسعة الأفق ، فسار سيرة أبيه فى تسامحه مع الهنادكة وتقريبه لهم . وبلغ من حرصه على إشاعة العدل بين رعاياه أن أقام سلسلة العدل التى شُهرت عنه ، وحض الناس على الاتصال به فى أى وقت يشاءون بقرع أجراسها .

وقضى جهانكير (جهانجير) أول حكمه على الفتن التى أشاعها ابنه خسرو فى البنجاب ، والأمراء الأفغان فى الدكن ، ليواجه من بعد ذلك ثورة ملك عنبر الحبشى وزير إمارة أحمد نكر بالدكن . وكان هذا الوزير قد راح يفيد من طائفة المرهتها الهنادكة التى اشتهر أفرادها بالشجاعة والتهور فى القتال، فدربهم على حرب العصابات. وقد استفحل أمر هؤلاء الجند فيما بعد حين بدا الضعف يدب فى الدولة فصدرت عنهم من المتاعب ما عجل فى نهايتها .

وأدى تدخل نورجهان زوجة السلطان فى شئون الحكم وسعيها لأخذ البيعة للأمير شهريار ، رابع أبناء السلطان وزوج ابنة هذه السيدة من زوجها الأول ، أن خرج على طاعة السلطان ابنه الأكبر شاهجهـــان ، وهو الذى نجح فى إقرار الأمور بالدكن . وما غدا أن نهج نهجه بعض قواد السلطان بدورهم حتى تمكن

القائد مهابت خان من أن يوقع جهانكير نفسه وزوجته نورجهان فى أسره . على أن هذه السيدة أفلحت آخر الأمر بدهائها فى فك أسار زوجها ، ثم أوقعت القائد الثائر فى قبضتها ، لتعاود من بعد ذلك سيرتها الأولى فى استغلال النفوذ فظلت تذيل مراسيم الدولة بخاتمها إلى جانب خاتم زوجها حتى وفاته عام ١٠٣٧ هـ ١٦٢٧ م

وفى عهد جهانكير وفد إلى الهند مبعوثان بريطانيان هما : وليم هوكنز وتوماس راو سفيراً جيمس الأول فعملا على منافسة البرتغاليين هناك حيث كان لهم عدة مراكز بشواطىء الهند . وكان أن تعرض هؤلاء البرتغاليون إذ ذاك لبعض سفن تحمل بضائع برسم السلطانة ، فلم يكتف جهانكير بطردهم من بلاطه حتى سلط البريطانيين على قتالهم ببحار الهند . ولم يكن البريطانيون ليتقاعسوا عن استغلال هذه الفرصة التى لاحت لهم ، فأحسنوا استغلالها بما عرف عنهم من مكر وخبث وكسبوا من ورائها امتيازات تجارية كثيرة .

شاهجان

خلف الأمير شاهجان أباه بعد أن قضى على مكائد نور جهان زوجة أبيه وتدبيرها لإجلاس الأمير شهريار زوج ابنتها على العرش . وساعد شاهجان على حفظ العرش له صهره الوزير آصف خان الذى آثر مصلحة زوج ابنته على أطماع أخته نور جهان .

وإذا كانت نور جهان زوجة جهانكير قد اشتهرت بمكائدها واستغلالها السلطة والنفوذ ، فإن ممتاز محل زوجة شاهجهان قد ذاع صيتها لما كانت تتصف به من جميل الخصال والبر إلى الفقراء حتى لطالما توصلت إلى حمل زوجها على العفو عن كثير من المذنبين أو تخفيف العقوبات عنهم . هذا كما أقنعت هذه السيدة زوجها بالعودة إلى استخدام التاريخ الهجرى بدلا من التاريخ الألفى الذى

وضع أيام أكبر وجعل مبدؤه الألف الثانيـــة من الهجرة ، وكان يوافق أولها جلوس أكبر على العرش .

وبلغ من وفاء شاهجهان لهذه السيدة النبيلة أن عزف عن البناء بغيرها برغم امتداد حياته من بعدها خمسة وثلاثين عاما . وأقام لها ذلك المثوى الفخم الذى يعرف باسم « تاج محل » أحد روائع الفن المعمارى فى العالم .

واجتاحت الهند أوائل حكم هذا السلطان مجاعات فتاكة بسبب انحبـــاس الأمطار الموسمية ، بلغ من قسوتهـا أن باع الناس أولادهم من الإملاق وطعموا الجثث من عنف المخمصة. وقد عوقت رداءة الطرق وازدحامها بالناس من وصول الامدادات التى حرص السلطان على إغاثة الناس بها .

واستغل البرتغاليون هذه المحنة فراحوا يتخطفون الناس فى البنغال ويبيعونهم بيع الرقيق ، وبرغم تحصن هؤلاء الدخلاء فى قلاع قوية مزودة بالمدافع ، فقد تمكن القائد قاسم خان آخر الأمر منهم وخلص من أيديهم عشرة آلاف من أهل الهند كانوا معدين للتصدير .

وعهد السلطان لابنه أورنك زيب بالقضاء على ثورات الدكن ، فأخضعها كلها وكسر شوكة المرهتها به على الخصوص ، كما نظم كذلك شئون حكومتها فى مهارة فائقة حتى صار خراج هذا الاقليم من أهم موارد بيت المال بعد أن كان يستنزف الكثير من أموال الدولة .

ولكن حدث أن اتجه السلطان إلى أخذ البيعة من بعده لابنه دار اشكوه ، فأثار بذلك ثورة أبنائه الآخرين جميعا ، فزحفوا يقودهم أورنك زيب إلى آجراء وكان السلطان قد اشتدت به العلة إذ ذاك . واستطاع أورنك زيب آخر الأمر أن يجلس على عرش الهند بعد أن ألزم أباه بالإقامة بقلعة المدينة . وبلغ شاهجهان أجله بعد ذلك بسنوات ثمانية عام ١٠٧٧ (١٦٦٦ م) .

أبو المظفر أورنك زيب (عالمكير)

قضى أورنك زيب المعروف بعالمكير على ثورات إخوته فى البنجاب والكجرات وكواليار . وما إن تخلص من هؤلاء جميعا حتى التفت التفاتا تاما لشئون البلاد التى كانت تعانى من آثار القحط الذى أصابها بسبب حروب الوراثة وما ترتب على ذلك من اضطراب فى إداراتها واقتصادياتها ، فرفع كثيرا من الضرائب عن كاهل الأهلين وشجعهم على زراعة الأرض وعاونهم على إصلاح الأراضى البور .

غير أنه عدل عن سياسة أسلافه فى التسامح المطلق الذى جروا عليه من قبل بازاء الهنادكة حتى أبعد أغلبهم عن مناصبهم ووظائفهم فى الحكومة والجيش على السواء ، كما ألزم نفسه ورجاله بالتمسك الشديد بتعاليم السنة حتى صرف الموسيقيين عن بلاطه جميعاً ، وحرم دخول الأشربة بلاده ومنع تعاطيها ، وأبطل الاحتفال بالنيروز ، عيد الايرانيين، وحظر قدوم الشيعة إلى بلاده . ثم أمر بتعمير المساجد ومدها بالعلماء والوعاظ وأجرى الأرزاق عليهم وعلى طلابهم ، كما أعاد فرض الجزية على الهنادكة من جديد .

وقضى أورنك زيب على فتن البرتغاليين فى المناطق الشرقية وثورات القبائل الأفغانية عند حدوده الشمالية الغربية ليتجه من بعد ذلك بقواته نحو الدكن والجنوب ، فظل يتنقل بين هذه الربوع ستة وعشرين عاماً تم له فيها إخضاع شبه القارة الهندية كلها لسلطان الدولة المغولية كما شتت شمل المرهتها وأعدم زعمائهم . وكذلك فعل بالسك فى البنجاب .

والسك والمرهتها ، ويعدون جميعاً عند البراهمة من أبناء الطبقات الدنيئة ، أصحاب مذاهب تدعو إلى التحرر من نظام الطبقات وقوانين الهند القديمة .

ويشتهر كلا الفريقين بشجاعة رجاله وجسارتهم فى حروب العصابات . وموطن المرهتها هو بالدكن حيث استطاعوا أن يقيموا لهم دولة قوية استمرت فترة من الزمان ، أما موطن السك فهو شرق البنجاب . وقد انقلب هذان الفريقان حين تفاقم خطرهما إلى قوة جسورة غدت نذير سوء على الدولة المغولية . وبهما استعان البريطانيون فى حروبهم الاستعمارية خارج الهند فيما بعد .

هذا وقد عرف عن أورنك زيب (أو رنجزيب) ، إلى جانب مقدرته الحربية ، اشتغاله بالعلم . وبأمره وإشرافه ألفت بالهند موسوعة مهمة فى الفقه الحنفى تعرف باسم « الفتاوى الهندية أو العالمكيرية » ، فلم يمض أكثر من قرن بقليل على ظهورها حتى طبعت بمصر عام ١٢٨٢ ﻫ مما يقوم دليلا على مدى الترابط الثقافى بين المسلمين فى مختلف الأقطار مهما بعدت الشقة بينهم وتعد هذه الموسوعة فى مصر من أهم المراجع فى شئون الأسرة .

وبلغ من تقوى هذا السلطان وزهده أنه حين حضرته الوفاة ، وذلك عام ١١١٨ ﻫ (١٧٠٧ م) ، أوصى بأن يدفن فى أقرب مقابر للمسلمين وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات كان قد كسبها من نسخة للقرآن الكريم وصنعه للطواقى ضمن ثلاثمائة روبية أمر رجاله أن يتصدقوا بها على الفقراء كذلك .

ومن أسف أن هذا السلطان قد زاد من امتيازات البريطانيين ببلاده حين عاونوه فى حربه مع البرتغاليين والمرهتها . ولم يكن يدرى أنه بصنيعه هذا إنما يمهد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل وأدنئها للاستيلاء على هذه الأراضى الكبيرة الغنية .

نهاية الدولة

يتهم بعض المؤرخين أورنك زيب بأنه بعدوله عن سياسة جده العظيم جلال الدين أكبر بالنسبة للهنادكة قد أدى إلى شيوع الفتن فى شبه القارة الهندية كلها على نطاق واسع مما عجل بنهـــاية الدولة ، فى حين يرى مؤرخون آخرون ، ومنهم أوربيون ، أن تقريب بعض سلاطين هذه الدولة للهنادكة ، وإصهارهم إليهم وحضهم رعاياهم على أن يحذو حذوهم فى ذلك ، كان هو العامل الأول فى زلزلة بناء هذه الدولة . وكلا السببين لا يمت فى الواقع إلى الحقيقة بسبب. فأورنك زيب عالمكير لم يكن فى تمسكه بتعاليم السنة وقصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين دون غيرهم إلا ضريباً لمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى فى الهند . وسلاطين الدولة المغولية الذين حضوا الناس على الامتزاج بالهنادكة ، إنما كانوا يرمون بذلك إلى قيام التآلف بين سكان شبه القارة الهندية جميعاً على اختلاف عروقهم ومذاهبهم . وقد عاونت دعوتهم هـــذه على انتشار الإسلام بالهند على نطاق واسع حتى لنرى المسلمين اليوم هناك ويزيد عددهم على المائة والخمسين من الملايين هم من أصل هندوكى فى الغالب . وهذا عالمكير نفسه، على تمسكه الشديد بالسنة وتعاليمها ، كانت أمه هندوكية خالصة . والرأى هو أن ضعف سلاطين هذه الدولة من بعد أورنك زيب وانصراف رجال الدولة إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة دون مصالح البلاد بعدما أتخمهم ما وقع بأيديهم من كنوز البلاد التى امتدت إليها سلطان الدولة فى الوسط والجنوب، وقد استتبع هذا التهاون قيام الاضطرابات فى جملة مناطق بهذه البلاد الواسعة ، فكانت هذه الأسباب مجتمعة هى التى مهدت فى الواقع لسقوط هذه الدولة التى لم تعرف الهند لها نظيرا فى تاريخها الطويل .

وقد انتهز الشاه الفارسي نادر شاه التركماني بدوره فرصة تردي الدولة المغولية في الضعف فزحف على الهند عام ١٧٤٠ م وهزم محمد شاه سلطان دهلي وأوقعه في أسره ، ثم أنزل ورجاله بالمدينة وأهلها من النهب والتقتيل ما لم تعرفه من قبل حتى على أيدي تيمور لنك . ولم يرجع نادر شاه عن الهند حتى انتزع عرش الطاووس ، أفخم عروش الدنيا ، من سلطان المغول مع أموال طائلة جعلته يسكت أعواما ثلاثة عن جمع الضرائب من رعاياه .

وكان من أثر هذا الغزو الفارسي أن انكمشت سلطنة دهلي إلى إمارة صغيرة ضعيفة مما زاد من أطماع المرهتها والسك حتى سيطروا على الدكن والبنجاب ودخلوا العاصمة . وهال أحمد الابدالي سلطان الأفغان القوى هذا الأمر وخاف على ضياع الدولة الإسلامية بالهند فزحف إلى تلك البلاد وأوقع بأعداء الدولة هؤلاء مذبحة كبيرة عند باني پُت عام ١٧٥٩ م وأسر مائتي ألف منهم .

ولم يرتبط مصير الهند هذه المرة بالمنتصر عند باني پت كما حدث مع كل غزاة هذه البلاد من قبل . ذلك أن الشاه قد اضطرته بعض الاضطرابات عند حدود بلاده إلى العودة إلى بلاده ، فخلى بذلك الجو للبريطانيين الذين كانوا قد وطدوا أقدامهم في البنغال بعد أن هزموا قوات الدولة في موقعتي بلاسي وبكسر . ويمكن القول إن هذه الواقعة الأخيرة ، على الخصوص، قد تقرر على أثرها مصير الدولة المغولية ومصير شبه القارة الهندية كلها ، إذ غدا السلاطين المغول ابتداء من شاه عالم الذي هزم في بكسر يعيشون على معاشات كانت تجريها الشركة الهندية البريطانية عليهم وإن لم يعترفوا أبدا بسلطان الانجليز في تلك البلاد .

وأخذ البريطانيون من بعد انتصارهم في هاتين الواقعتين يحكمون في خططهم حتى تم لهم طرد الفرنسيين من مراكزهم القوية بالدكن والساحل الغربي ، وتم لشركة الهند الشرقية التي كان البريطانيون يحكمون باسمها بسط سيادتها على الجنوب

كلها بعد وقائع دامية خاضتها مع سلاطين ميسور المسلمين . ودخل البريطانيون من بعد ذلك دهلى نفسها مستهل القرن التاسع عشر ، ثم التفتوا إلى المرهتها فشتتوا شملهم ، كما بسطوا سلطانهم على البنجاب. حتى إذا ما حاولوا احتلال بلاد الافغان طمعا فى منافسة الروس بآسيا الوسطى وتأمينا لحدودهم الهندية ، انبرى لهم رجال هذه الأمة الأبية فأنزلوا بهم ضربات متلاحقة قاصمة أيقنوا من بعدها أن لا سبيل لدخول الاستعمار تلك البلاد .

وانفرد القراصنة المستعمرون من بعد ذلك بالأمر كله فى شبه القارة الهندية، فلم تفلح معهم تلك الثورة الوطنية الكبرى التى قادها بعض الزعماء المسلمين فى عهد بهادر شاه الثانى آخر سلاطين المغول وكادت تطيح بهؤلاء المستعمرين بالهند ، وذلك منتصف القرن التاسع عشر . ولم يتردد القائد البريطانى هدسون عند ذاك ، بعد أن استسلم له السلطان المغولى الشيخ فنفى إلى رانجون ببورما ، فى أن يبيح المدينة لجنده ، ثم يرمى بالرصاص أطفالا صغارا من أحفاد السلطان كان قد لجأوا إلى ضريح همايون بعد سقوط المدينة .

وأتاح لبريطانيا أن تحكم مئات الملايين من أهل الهند بواسطة عدد ضئيل من الانجليز ، لم يتجاوز الستين ألفا ، ما كان تعتمد عليه من إعمال الدس والوقيعة بين أهل تلك البلاد حتى استطاعت أن تسخر الألوف الكثيرة منهم لخدمة أغراضها الاستعمارية خارج الهند.

الثورة الوطنية

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ البريطانيين فى الهند كلها، والتى كان مبعثها عسف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإقفار أراضيها الخصبة ، لاسيما فى الشمال، لنشبت فى وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونبور والبنجاب .

أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند ، وكان قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من البريطانيين . وقد بنى الثائرون خطتهم على أن يسارع البريطانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال فيخلو لهم الجو بذلك ويثبتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد ، فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .

وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال ، وكان أغلبهم من الراجبوتيين والبراهمة ، حين انطلقوا يلقون فى روعهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما ، الأمر الذى يتنافى وعقائدهم التى تعد كل من يغادر موطنه خارجا على طبقته منبوذا ، كما نبهوهم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم وعجلاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدس ، ودسهم هذه الدهون فيما يقدمونه لهم من الطعام ، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم على حملهم قسراً على اعتناق النصرانية بأيدى مبشريهم الذين جلبوهم لتحقيق هذا الغرض ، وها هم يقفلون فى وجوههم باب الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة فى الجيش ، وهو ما لم يمنعه عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل .

وانطلق المسلمون فى دهلى يقودون الثورة ، بزعامة بعض أبناء السلطان

وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حامية ميروت الشمالية التى انضمت إلى صفوفهم ، وفى خطتهم أن يُخرجوا المستعمرين من بلادهم ويعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند .

وما غدا المرهتيا فى جونبور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان ، يتزعمهم أميرهم نانا صاحب الذى كان هو وفريق من رجاله قد حددت إقامتهم هناك . كما انطلقت الشائعات فى الوقت نفسه بزحف الروس والأفغان لشد أزر الثوار ، حتى أصيب البريطانيون فى الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة فى أماكن عديدة .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور فى البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تدبيره ، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حلفاء من السك والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان فى قسوة بالغة وعنف ، ويقصفوا بمدافعهم دهلى ، ثم يدفعوا بالسلطان المغولى الشيخ وهو فى الثانية والثمانين من عمره ، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولديه محمد بخت خان وميرزا مغول فى تزعمهما الثوار ، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلى ، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها ، وإعلانه الحرب عليها ومناداته بنفسه سلطاناً على الهند .

هذا والثابت المعروف أن أحداً من السلاطين المغول ، منذ أن صار شاه عالم فى قبضة الشركة الهندية ، لم يقبل الاعتراف بالحماية البريطانية أبداً ، كما أن بها درشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة فى هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال ، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم . ولم يكن له بالتالى علاقة بملصقة صغيرة وجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسى خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يقبل لنجدتهم .

قضى البريطانيون فى هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م ، على السلطان المسن بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانجون ، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى إمبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشراً. وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جعلت دينا على الهند ، هى وكل النفقات التى أنفقتها بريطانيا فى حروبها الافغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون فى الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها ، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأراضى الزراعية ونشر الحضارة الأوربية . ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله فى الغالب إلا تنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية ، حتى كانت منتجاتها تنقلها أكثر من عشرة آلاف سفينة تباع خارج الهند بأكثر من خمسة أضعاف ثمنها ربحا خالصا للمستعمرين الذين أقاموا من جهاز حكمهم طبقة جديدة تضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا .

---

(١) هذا وقد انبرى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضى ستين عاما على هذه الثورة يبرىء السلطان الشيخ من كل ما نسب اليه ، ويدلل على أن الشركة هى التى ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون، منذ فجر الإسلام، على الإفادة من حضارة الفرس واليونان بعد أن اطلعوا عليها. فلما دخلوا الهند وتوغلوا فى أراضيها واستقروا بها وبهرتهم ثقافتهم المزدهرة، اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهند من ثقافة مدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها فى بلادهم.

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة، اشتملت على عناصر هاتين، هى ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التى بدت فى أكمل صورها فى عهد الدولة المغولية التى أقامها السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه، فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون.

جمع هؤلاء السلاطين البابريون فى أشخاصهم كثيراً من الصفات المتناقضة التى ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمورلنك، فكان فيهم وحشية وتسامح، وجبروت وحلم. كانوا يقيمون من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر ولا يجدون فى ذلك حرجا، ثم يشيدون، إلى جانب أكداس القتلى، منشآت الحضارة والمدنية ويبالغون فى حبهم وبذلهم للآداب والعلوم والفنون والمشتغلين بها. بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم. وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم فى بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك.

وأدى التسامح الذى اشتهر به سلاطين الدولة المغولية[1]، إلى العمل على

---

(١) يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الدينى، فمارس الأهلون فى عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة فى الغالب.

تقريب سكان الهند إليهم في الغالب ، حتى أصهروا إليهم . وتبعهم رجالهم في ذلك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب في الدولة ، فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة والخمسين مليون مسلم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

إذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد إقراره للأمور في الهندستان ، وإذا كان همايون قد أمضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ، ثالث السلاطين ، هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة . وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى ، فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لاءمت شعبه وأذاعت شهرته ، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها في الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية ، في قبضة السلطان ، على الرسم الغالب في تلك العصور ، وفى البلاد الإسلامية على الخصوص . وكان هواه هو دستوره وتشريعه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها في الهند ، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان استقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتيحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء ، ويهبهم من أراضى الدولة التى هى جميعها بداهة ملكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء ، ويستردها كذلك على مشيئته

هذا ، وكانت أراضى الدولة على ضربين ، منها ما يقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم فى حروب الدولة ، ويدفعوا نصيبا آخر معلوما من المال كذلك إلى بيت المال فى كل عام . ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعا ذوى سلطان مطلق على الأهلين بمناطقهم فى الغالب .

وعدّل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ، على النظام الذى بيناه فى موضعه سانفا ، وأنشأ جيشا قويا مدربا يتبعه رأسا وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزانتها . ونهج خلفاؤه نهجه فى الغالب حتى جاء أورنكزيب عالمكير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة ، إلى تنظيم شئون البريد تنظيما محكما ، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون . وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة لنزول الناس والدواب ، وأباحوها جميعا للمسلمين والهنادكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندهم ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنييه ، الذى ساح بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى . وصرح بأنها كانت خيرا من طرق فرنسا وإيطاليا إذ ذاك وأكثر أمنا(١) .

وعنى هؤلاء السلاطين جميعا كذلك بإقامة العـــدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم . وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة ، وراقبوا

---

(١) حضارات الهنـــد ص ٤٢٨ .

سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب ، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم الأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

المجتمع . إن مؤرخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاة والقواد وأعمالهم . فلم يلتفتوا ، إلا فى النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شىء من التفصيل يذكر ، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل بن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره ، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب ، هى وما كتبه فريق من الأوربيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولى فى الهند كان ، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذى كان يضفى فى العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها . ففى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنـــــده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت قصورهم تزدحم بالجوارى والغلمان وتتخم بكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطايب الطعام ، وإلى جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة المستوردة من بخارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريما جديا بالهند إلا أورنكزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة أموالهم وأملاكهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك يدفعهم فى الغالب إلى انفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولاسيما فى المناطق البعيدة عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكامهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ، وكان أواسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون فى الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب الحرف الدنيئة ، ومنهم خدم الأمراء والحكام وأجراؤهم ، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم ، لاينالون إلا وجبات غذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة ، حتى كانت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها فى العصور الحديثة .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع وأجراء الأرض ، هم أتعس حظا وأشدهم بؤسا حين تجتاج الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد التفت أكبر ، وأولاده من بعده ، فى الغالب ، التفاتا جديا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند المجاعات والقحط .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من عنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها ، فكان عنده ، كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج

والأسلحة والصياغة ، كل واحد منها كالمدينة فى اتساعه ، ومنها ما كان يعد للسلطان فى كل عام ألف حلة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصياغة المغولية هى فى لا هور وآكرا (آجرا) وفتحبور وأحمد آباد ودكا . وكثير منها كان يصدر المنسوجات الفاخرة والسجاد إلى الخارج

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل ، وتقايض عليها فى موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التى اقتضتها حياة البذخ والإسراف التى كان يحياها حكامها والتى كان من مساوئها دخول الطباق إلى هذه البلاد مستهل القرن السابع عشر الميلادى لتزرعه فى أراضيها من بعد ذلك .

العمارة : أدى كلف البابريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن التفتوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفاً بالغاً ، حتى ظهر فى عهدهم طراز معمارى ، هو مزيج من فنون المسلمين فى الغالب وبعض الفنون الهندوكية ، فشاع فى العالم باسم الطراز المغولى ، ويتميز بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والميناء والخزف ، والأقواس الحادة ، والأبواب الفخمة التى تعلوها نصف القبة .

ولقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً وأظهر امتعاضه من عمارتها . ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة فى هذه البلاد من إقامته من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه فى موطنه الأول ببلاد ما وراء النهر وصادفه فى مواضع كثيرة بخراسان وكابل ، حتى ليذكر فى سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين فى بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون فى منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآكرا وبيانه ودهولبور وكواليار . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ فى بانى پت والمسجد الجامع فى سنبهل ،

ليجىء من بعده حفيده أكبر فيزيّن الهندستان بعدة منشآت فخمة جاءت عمارتها آية فى الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره فى فتحبورسكرى ثم بلندروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكاراً لفتوحاته الدكنية والتى تعد بارتفاعها الذى يبلغ ١٧٦ قدماً وحنيتها مثالا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذى حاكى به فى تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آكرا الذى استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن أكبر لم يغفل فى عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصاً منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع من صيت العمارة المغولية فى الخافقين هو « تاج محل » ذلك المثوى البديع الذى شيده شاهجان لزوجته ، أرجمند بانو ممتاز محل، فقام مثالا على الروعة فى البناء وفى الوفاء ، حتى رجح بعض المؤرخين، خطأ ، استعانة شاهجان فى إقامته بالفنانين الايطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان ، معمار العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذى يعد بحق من روائع الفن المعمارى المعدودة ، هو فى تصميمه وتنفيذه اسلامى خالص .

ومن منشآت شاهجان الخالدةمدينة دهلى الجديدة ، التى عُرِفت فى عهده باسم شاهجهانآباد ، والتى خططها على أحسن نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمرائه ، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم ، كل فريق منهم بمحلته ، ليبهروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورواء مدنيتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك .

ونالت آكرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة

الألمانى مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال أبنيتها واتساع رقعتها ، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجداً وثمانمائة حماماً .

وبموت شاهجهان ، وارتقاء ابنه الصوفى أورنكزيب عالمكير (عالمجير) العرش من بعده وضعف خلفائه ، فتر اهتمام الدولة بالتعمير والبناء .

وقلد الأمراء المسلمون ، فى مختلف الإمارات الهندية ، طراز العمارة المغولية، فظهرت أمثلة منها رائعة فى بيجابور وغولكونده وأحمد نكر وبرار وبيدار وتخطتها إلى نيبال ، بسفوح الهملايا ، التى لم يدخلها المسلمون . فضلا عن إمارة فيايانكر بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعياً أن يستتبع كلف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به ، وأخذت مدرسته عندهم طابعها المغولى الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً خاصاً بها تحدثوا فى أسفار كاملة عنها .

فهذا جدهم بابر قد جلب معه إلى الهند من روائع النقوش التى كانت فى حوزة الأسرة التيمورية ، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا ، الذى يصفه عمداء الفنانين بأنه رفائيل الشرق . كما استصحب همايون معه فى عودته من المنفى إلى الهند من النقاشين المشهورين : سيد على تبريزى وخواجه عبد الصمد ، ليجىء ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبدو له ، طريقته الخاصة للاقرار بوحدانية الخالق المبدع ، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لابد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكر فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وابرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش فى كل أسبوع ويجيز المجيدين

من أصحابها تشجيعاً لهم ، بل إنه ليستهوى نوابغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا اليه ، كما عهد تشجيعه وعنايته إلى فنانى الهنادكة وبعضهم على التعمق فى تفهم فنونهم القديمة ودراستها . فكان من نوابغهم ببلاطه دسونت وبساوت وسنول وتراشند وحكنات ، إلى جانب عبد الصمد وميرسيد على وفرخ بك ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع جنكيز نامه، وظفر نامه، ورازنامه، وهى جميعاً من مؤلفات المسلمين ، ثم المهابهارتا والراماينا . ملحمتى الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب هندوكية أخرى إلى الفارسية ، فزينت كلها بنقوش تصور حوادثها . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوربية التى كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منها .

وورث جهانكير عن أبيه كثيراً من أحاسيسه الفنية حتى كان فى مقدوره أن يتعرف فى يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين يشارك غيره فى نقش واحد .

وبلغ الفنون والنقاشون فى عهد أورنكزيب بفن الخط وزخارف الكتب مرتبة الإعجاز الفنى الرائع . وساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ فى نسخه للقرآن الكريم فى إبداع مشهور .

وتخلف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيراً من مظاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى ، بل وفى البيئة الهندية كلها بأشجارها وازدهارها وطيورها وفيولها ، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد ازدانت بها متاحف العالم الكبرى .

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال ، وحبهم

للطبيعة ومباهجها ، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوربيون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز ، على الخصوص ، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنهم .

فهذا بابر نراه فى مواطن كثيرة بسيرته لايفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا مادخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة ، انتقدها انتقاداً شديداً لسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخمائل « فأين هى من مغانى فرغانة وكابل » وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمتنزهات ما حاكى بها رياض مواطنه ، فكان من بينها جار باغ الكابلى بظاهر آكرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب اليه كثيراً من النباتات والأشجار التى لم تكن الهند تعرفها من قبل .

وورث عنه حفيده شاهجهان شغفه بالنباتات والحدائق والأشجار وكلفه بدراستها تفصيلا ، كما استهوت مغانى كشمير ، بفتنتها ، الأمراء البابريين جميعاً فكانوا يسارعون إليها فى كل صيف طلباً للانتجاع والمتعة ، حتى أقاموا على غرارها بلاهور قصبة البنجاب ، شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها فى التبت بأشجارها وجداولها وشلالاتها ومدرجاتها .

ومازال الشعراء حتى اليوم يتغنون فى الفارسية والأوردوية بمفاتن هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى : هذا والمطلع على موسيقى الهند اليوم لايستطيع أن يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التى عملت فيها ، سواء فى ناحية الأصوات أو ناحية الآلات .

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد بالعزف والغناء ، باستثناء أورنكزيب عالمكير الذى سرح الموسيقيين والشعراء من

بلاطه ، فهذا بابر قد رُوى عنه تأليفه لبعض الأصوات ، فى حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية ببلاطه فى يومى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع . أما أكبر فقد استقدم إلى بلاط مشاهير الموسيقيين ، رجالا ونساء ، من كشمير وإيران . ولايزال مثوى مطربه ميان تانس بكواليار مزاراً يقصده موسيقيو الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانكيرى ، لمعتمد خان ، تفصيل لنشاط الموسيقيين ببلاط جهانكير ، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألف فيها أصواتاً كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أُدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية ، مثل الرباب والسرود والدلربى والطاووس ، وجميعها فارسية الأصل[1] . كما أُلف كثير من الأسفار فى هذا الفن تزخر بها مكتبة فيضى بآكرا اليوم ، ولايزال إلى وقتنا هذا للألحان المغولية رواج بالهند .

والحركة الفكرية : لم يبد سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب ، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيمة . فمن ذلك السيرة الفذة (بابرنامة) التى أنشأها بابر عن نفسه فأفصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية ، وتمكنه التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كلبدن بيكيم « همايونامه » التى تعد مرجعاً وثيقاً فى تاريخ ثانى سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولى ، أشهرهن زيب النسا ابنة عالمكير التى كانت تقرض الشعر باللسانين العربى والفارسى فى رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفى » .

---

(1) Legacy of India p. 299.

هذا وكان همايون يحرص فى أسفاره على ألا تفارقه مكتبته الخاصة ، وكان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافيه والفلكية . ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعا من أتباعه ومقدم شرابه[1] .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجا منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بدوانى المجلد الثالث من كتابه ، منتخب التواريخ ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها فى عهده . فكان من أعلامهم ملاداود صاحب تاريخ ألفى ، وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبر نامه وآيين أكبرى . والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها . ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ، ومحمد عبد الباقى صاحب مآثر رحيمى ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته .

وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونقل بعضها إلى لغات كثيرة. وجميعها قد صنف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ومركز ممتاز بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة،حتى أقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير باجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل ، حتى ود لو كان هو المقتول مكانه ، فنوابغ العلماء — على حد قوله — لا يجود بهم الزمان إلا فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

---

(١) كان لبابر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعى عبد الله كتابدار .

ولأكبر يدين الهنادكة ببعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد، وظهور طبقة ممتازة من كتابهم وشعرائهم. وبفضل نظرته المتسامحة وتشجيعه أقبل فريق من المسلمين أنفسهم على الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزير عبد الرحيم جانخانان الذى نقل بابرنامه من الجغتائية إلى الفارسية على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفى عهد جهانكير كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه جهانكيرى ، وكامكرخان مآثر جهانكيرى ، والشيخ نور الحق زبدة التواريخ . كما ألف فى عهد شاهجهان ، بادشاهنامه لعبد الحميد لاهورى ثم لأمين قزوينى ، وشاهجهانامه لعنايت خان وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا كما كتب دارا شكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى الفارسية قدراً من كتبها مثل اليوبانيشاد وبهجفاد جيتا ويوجا ماشيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنكزيب وجدنا عنده من المؤرخين محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب اللباب ، وسخن رأى اخترى صاحب خلاصه التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمكير ومحمد كاظم صاحب عالمكير نامة . وأشهر ما كتب فى عهدها هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية التى عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه . بذل لهم فى سخاء ، فأجملوا فيها الفقه الحنفى كله إجمالا شاملا ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت فى القاهرة ونشرت ، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى

مما يدل على قيام الروابط الثقافية بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها وما أصابها من انحلال وضعف فى ذلك القرن . ويعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى اعتمد عليها المصلحون فى السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابها ، تطور اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً ، والتى تعد مزيجاً من لغات الحاكمين والمحكومين ، أى من الفارسية أساساً ، وما تسرب إليها من ألفاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجة المحلية الهندية.

فقد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها ، كما غدت ألفاظ ومصطلحات هندية بدورها تجرى على لسان المسلمين فى الهند ، حتى تمكن فريق من آداب البلاد المفتوحة تمكناً بيناً ظهرت أمثلته عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والبهاشا ، لهجة دهلى ، على الأوزان السنسكريتية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللودهيين طمعاً فى الالتحاق بالدواوين ، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويعنون بالنهضة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء ، ازداد تقرب

---

(١) اللهجات الهندية هى فى الغالب خليط من اللغات الدراوورية والآرية بما فيها السنسكريتية . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفا على أبناء الطبقات العليا منذ أن وضع « منو » المتم نظام الطبقات فعزلت نفسها بذلك فى الغالب عن عامة الناس .

اللغتين من بعضها ، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة فى عهد شاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى ، وقد بدا عليها معالم النضج والاستقلال واضحة ، وقد عرفت باسم « زبان أردو » أى لغة سوق المعسكر بدهلى ، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لاتبلغ فيه بعض مقام الفارسية ، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه البلاد — بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جروا على مناهضتهم حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم فى منصف القرن التاسع عشر — فبذلوا جهودا كبيرة لتنظيم أصول الاوردوية ونحوها وطبعوا كتبها حتى عمت الهند على حداثة عهدها وازدهرت آدابها . ولاتزال المطارحات الشعرية الاوردوية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم .

وكانت الاوردوية هى لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين فى الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عداء البريطانيين المرير لهم .

وعالج بها نفر من المسلمين والهنادكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحيتها كل الصلاحية فى العصور الحديثة . وهى اليوم لغة پاكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولا بجمهورية الهند .

وكان من أثر الإسلام البالغ بالهند ، فضلا عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً ، أن برز طائفة من المصلحين الهنادكة

---

(1) Legacy of India pp. 293-95.

ينادون بإنكار عبادة الأوثان من دون الله الواحد القهار[1] . كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى ، وأباحوا زواج الأرامل وسمحوا لغير الهنود باعتناق دينهم .

ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السِّك ، وكبير صاحب مذهب بهكتى ، ورام موهن صاحب « برهماسماج » ، وتعظيمهم جميعا للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان بالهند دينا وحكما ومدنية .

قيام دولة الباكستان

نفى البريطانيون بهادرشاه الثانى آخر السلاطين البابريين من الهند بوصفه الزعيم الروحى لأهلها من المسلمين الذين رفضوا فى الغالب الاعتراف بسلطانهم ، وأصر زعماؤهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعلن اللورد ألنبرو ، حاكم الهند البريطانى ، فى صراحة تامة ، أن العنصر الإسلامى فى الهند عدو بريطانيا الأصيل ، وأن السياسة البريطانية فى الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يتهدد بريطانيا فى هذه البلاد[2] .

---

(۱) ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلا بالتوحيد فى الغالب (البيرونى : ذكر ما للهند من مقولة ··· ص ۱۳) وان لم يبد عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند المسلمين حتى انحرف بها سدنتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى ·

(۲) بلغ من عداء هذا الحاكم البريطانى للمسلمين أنه أمر بنزع بعض بوابات رآها بعزته حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنادكة هذا أوائل القرن الخامس الهجرى · وحين حمل ألنبرو هذه البوابات الى الهند تقربيا منه الى الهنادكة وتذكيرا لهم بعداوة المسلمين ، اكتشفوا =

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من الطوائف الأخرى الذين شاركو فيها ، فأقصوهم إقصاءاً شاملا عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها ، وجهدوا فى تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية ، ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التى كانت جميعها ، فى السلكين المدنى والعسكرى ، وقفاً على المستعمرين.

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت أغلب الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكاً لجباة الضرائب من الهنادكة ، وانقلب زراعها الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى أجراء عندهم.

ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة . ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحيـاء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين . ليتجلى ذلك ، كله فيما بعد ، عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعاً حيناً طويلا من الدهر عن مناوءة الحكم البريطانى بالهند .

وبعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين فى الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم . حتى نهض السيد أحمد خان ، فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى،

= هناك أن هذه الأبنية هى من صنع سبكتكين أبى محمود الذى لم يتخط حـدود الهنـد فى غزواته .

يفصح عن هذا الشعور إفصاحاً عملياً . فرسم لقومه المنهج الذى يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم . فنبهم إلى أن نفورهم من البريطانيين لايعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة فى موكب الحياة الهندية ، وأن الاطلاع على المدنية الحديثة وعلومها أو اقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لايتعارض أبداً مع التفقه فى أمور دينهم والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده . ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بنياتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم ، حتى يخفف بذلك من حدة اضطهادهم لهم — إذ كانوا قد أبعدوهم إبعادا شاملا عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق فى وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا — ويقيم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م .

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بموالاة المستعمرين والمروق عن الدين. فشمر عن ساعد الجد فى حزم وعزم وانطلق يعمم إصلاحاته فى أغلب نواحى الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب . وراح فى مجلته « تهذيب الأخلاق » ينقد أحوال المسلمين والأسباب التى أدت إلى زوال مجدهم القديم ، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها . ودلل من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة الأوردية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند ، وصلاحيتها التامة لمسايرة المدنية الحديثة . وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليكر ، بشمال الهند ، التى تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا

---

(١) كان مما احتج به فى هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا فى دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة . فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعلومهم بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الاسلامى ـ أول ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

عام ١٨٧٥م ، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعى إذ ذاك .

وبجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده ، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوربية النافعة إلى الأوردوية ، فضلا عن إحياء التراث الإسلامى الهندى .

ولئن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامى وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين فى المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم ، حتى لاتطغى طائفة الأغلبية على طائفة الأقلية فى هذه البلاد التى تعد فيها العقائد أساس حياتها السياسية والاجتماعية وجهر بأن المسلمين والهنادكة امتان مختلفتان تمام الاختلاف فى العقيدة والتقاليد وكل شىء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعده ماغدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التى فرضها رائدهم من قبل ، قد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين عدا يفرض عليهم أن ينزعوا حقوقهم من أيدى المستعمرين وكل من يقف فى سبيلهم. حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال ، وهو من أبناء جامعة عليكر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند ، ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذى تقوم عليه دولة باكستان اليوم فى الغالب .

---

(١) من أمثال هؤلاء السيد أمير على وخدا بخش ومحمد اقبال ومحمد على وأخوه شوكت على . وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوربية كتباً قيمة عرفهم فيها بروح الاسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفاً بيناً .

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين فى الهند إلا لخوفهم ، فيما ظنوا فى الغالب ، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ، فى حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليـــا على قاعدة الاستعمار المعروفة ، فرق تسد » .

ومالبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد على جنه،(جناح) ومن ورائه الرابطة الإسلامية ، إلى تحقيق قيام دولة لهم ، بعد أن أصروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهنـــدى ، الذى كان يتزعمه غاندى ، ودستور عام١٩٣٥ م ، حتى لاتضيع حقوق أقليتهم الكبيرة فى تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لايكون لأحد وصاية عليهم ،فأعلنوا مولد باكستان فى ٤ أغسطس١٩٤٧م على حدود لاترضيهم فى الغالب ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً للمذابح الكثيرة التى سقط فيها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنادكة . وهى تضم كراجى ، مركز حكومتها إذ ذاك ، وإقليم بشاور والحدود ، والسند والبنجاب فى الغرب ، وأغلب البغال فى الشرق .

وبباكستان اليوم قرابة المائة وعشرين من الملايين من المسلمين يعيش إلى جانبهم أكثر من عشرين مليوناً من أصحاب المذاهب الهندية الأخرى . ولايزال ماينوف على ستين مليوناً من المسلمين يعيشون فى الجمهورية الهندية .

وقد اتخذت باكستان مدينة كراجى أول الأمر حاضرة لها ثم انتقلت إلى رو البندى ثم إلى إسلام آباد حاضرتها الحالية .

---

(١) باكستان هى الأرض الطهور . واسمها جماع الحروف الأولى من أسماء المقاطعات التى تتكون منها الدولة .

ومن أسف أن يشتد التناحر الحزبي في تلك البـــلاد من بعد ذلك ولاسيما في باكستان الشرقية حيث قاد الشيخ مجيب الرحمن زعيم حزب غوامي ثورة عارمة انتهت بعد حرب مدمرة — تدخلت فيها الهند بقوتها وروسيا بأسلحتها — إلى هزيمة قوات الدولة واستسلام كل قواتها هناك وكانت تقارب المائة ألف غداً . من ثم أعلنت باكستان الشرقية استقلالها واتخذت من مـدينة دكا حاضرة لها ، وصارت الدولة الجديدة تعرف باسم بنجالادش .

وفي فبراير من عام ١٩٧٤ م أعلن ذو الفقار على بوتو رئيس وزراء باكستان في مؤتمر القمة الإسلامي إبان انعقاده في لاهور اعتراف حكومته بدولة بنجالادش الجديدة حفاظاً منه على وحدة صفوف المسلمين .

مشكلة كشمير

عندما قسمت شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧ إلى جمهوريتي باكستان والهند أخذ الزعماء في هاتين الجمهوريتين يرددون عبارات الود والتمنيات الطيبة كل بالنسبة لجارته . على أن جمهورية الهند الهندوكية الجديدة مالبثت أن انطلقت تقيم العراقيل في وجه جارتها باكستان التي ظفرت بوجودها بالرغم منها . فمن ذلك أنها ظلت تسوف في دفع ماقدر الباكستان في مال الهند وهو أربعون مليوناً من الجنيهات يمثل ١٧,٥ ٪ من الاحتياطي حتى أخذ غاندي نفسه في الصوم إذ ذاك لوضع حد للخلاف بين البلدين . بل لقد قامت المذابح في البنجاب الشرقية بين المسلمين والسك من جديد ، كما اضطر مائة ألف من سكان دهلي المسلمين إلى الاحتماء بالقـلاع القديمة هناك حتى يرحلون إلى باكستان . وانتهى الأمر بين الدولتين — وقفاً للمذابح — إلى إخلاء المسلمين البنجاب الشرقية على أن يخرج كل الهنـادكة من البنجات الغربية . وتبادل الفريقان في ذلك ستة ملايين من السكان .

ولم تنته هذه المحنة الرهيبة حتى قام مايشبه الحرب الاقتصادية بين الدولتين . فقد امتنعت الهند عن شراء الحبوب والقطن من باكستان وعدم تصدير الفحم لها، فى حين امتنعت باكستان بدورها عن مد الهند بالجوت ، وكانت الهند فى ذلك هى الخاسرة ، إذ كانت الأسواق مفتوحة أمام باكستان لتصريف منتجاتها .

ولئن أمكن تسوية هذه المشاكل الاقتصادية فيما بعد ، فإن أصعب ماواجه البلدين كانت مشكلة الإمارات الهندية التى كانت ترتبط مباشرة بالتاج البريطانى . فلقد نص قانون استقلال الهند على أن تظل مثل هذه الإمارات حرة أو تنضم إلى إحدى الجمهوريتين على أساس عقيدة غالبية السكان فيها بصرف النظر عن عقيدة أميرها ، إذ المعروف أن الاستعمار البريطانى كان يحرص على تنصيب أمراء من غير أصحاب الديانة الغالبـــة فى كل إمارة حتى يضمن ولاءهم له من جهة ، وحتى يستخدمونهم فى الضغط على الأهلين من جهة أخرى . وبرغم سكوت باكستان على ضم الهند لإمارة حيدر آباد الدكنية إليها ، تلك الولاية التى كانت برغم هندوكية أغلب سكانها كانت تعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية هناك ، فقد راحت الهند كذلك تطالب باصرار بضم إمارة كشمير إليها ،وهى التى يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين ٨٠٪ منهم من المسلمين، وذلك بدعوى سيطرة السك عليها فى القرن الماضى وخضوعها فى الوقت الحاضر لحكومة المهراجا هارى سنغ منذ عام ١٩٢٥.وفى هذا تقول باكستان إن المسلمين حكموا كشمير أكثر من خمسة قرون ، وأن ثمانين فى المائة من سكانها مسلمون ، وهى فضلا عن ذلك تعد من الناحية الجغرافية جزءاً متمماً لباكستان . فالحدود بين كشمير والهند وعرة جداً لاتخشى الهند منها شيئاً ، فى حين تتصل كشمير بباكستان بسهول فسيحة تجرى فيها ثلاثة روافد للسند تحمل محصول الأخشاب أهم محاصيل كشمير . هذا كما تعد باكستان السوق الطبيعية

لتصريف فواكه كشمير ثانى محاصيلها المهمة هى والصوف والبسط (السجاجيد) . وأنهار كشمير هذه يتوقف عليها سقى تسعة عشر مليوناً من الأفدنة بباكستان . فلو أن كشمير ضمت إلى الهند لكان معنى هذا التهديد بانقطاع الماء عن كل هذه الاراضي عند حدوث أى خلاف شديد على مياه روافد سندية أخرى تجرى بالاراضى الهندية قبل دخول باكستان ، واضطرت باكستان إلى دفع رسوم كبيرة ثمناً لما تسحبه من مياه هذه الانهار ، مع أن المعروف أن المياة المشتركة هى أنهار دولية .

ولقد كان أهل كشمير ، وأغلبهم من المسلمين ، يعتقدون أن الوضع الطبيعى لبلادهم هو انضمامهم إلى باكستان ، وذلك بالقياس على ما نادت به الهند نفسها واعتقدته بدورها من حقها فى ضم الولايات ذات الأغلبية الهندوكية إليها . على أن المهراجا الهندوكى هارى سنغ ، وهو الذى كان يخص نفسه ورجاله بـ ٨٠٪ من إيرادات كشمير ، رأى أن يستنجد بالهند وجيوشها لدخول بلاده . وأدى سلوكه هذا إلى ثورة المسلمين عليه هناك ثورة عارمة انتهت باستيلائهم على السلطة فى المناطق الغربية حيث كونوا حكومة كشمير الحرة برئاسة السردار محمد إبراهيم .

وما غدت قوات الهند أن أخذت تتوغل فى المناطق الجنوبية والشرقية . وحين أرادت باكستان أن ترد على صنيع الهند هذا ، انبرى الفيلدمارشال أوكنلك يعلن أن عمل الهند هو عمل مشروع وهدد فى ذلك بسحب الضباط البريطانيين من جيش باكستان وكانوا إذ ذاك يضطلعون بمراكز رئيسية فيه . وحين أتيح لقوات باكستان دخول كشمير من بعد ذلك ، كانت القوات الهندية قد سبقتها إلى كسب عدة مراكز هامة .

وبرغم وقف القتال بين الطرفين فى يناير من عام ١٩٤٩م واتفاق الطرفين على مبدأ الاستفتاء بتدخل هيئة الأمم المتحدة فلا تزال هـذه المسألة دون حل حتى اليوم .

ومما هو جدير بالذكر أن باكستان تحتج فى ذلك بأن الهند حاولت أن تكسب تأييد أمريكا وبريطانيا فى هذه المسألة فبادرت بالاعتراف باسرائيل بدعوى الأمر الواقع ، مع أنها لم تكن بدورها قد اعترفت إذ ذاك بالصين الشعبية ، فى الوقت الذى أعلنت فيه باكستان صراحة رفضها الأكيد الاعتراف بإسرائيل حتى ولو اعترفت كل البلاد العربية نفسها بها .

٢

إيران

(بلاد فارس)

تاريخها وحضارتها

من أقدم العصور حتى العصر الحديث

تاريخ ايران

إيران (بلاد فارس) هى تلك الهضبة التى تحدها من الشمال جبال القوقاز وبحر قزوين ونهر سيحون ، وفى الجنوب يحدها الخليج الفارسى العربى والمحيط الهندى وفى الشرق جبـــال الهندكوش والسند ، وفى الغرب أرض الفرات . ويرجع المؤرخون تسمية هذه البلاد إلى ولاية تـُعرف باسم فارس تقع فى الجنوب من بلاد فارس وكان يسكنها قبيلة تحمل هذا الاسم .

أما لفظ ايران ، وهو الذى تعرف به هذه البلاد اليوم والذى اتخذته أسرة بهلوى الحاكمة الحالية اسما رسمياً لهذا القطر ، فان هذه التسمية كانت شائعة فى القديم كذلك ، ويقولون نقلا عن بعض المؤرخين بأنها مشتقة من لفظ آريا (آريا معناها الشريف) أو هو نسبة إلى قبائل الرعاة وكانوا يعرفون باسم (ايريان) .

وايران أو بلاد فارس كان يحـكمها فى القديم دول آشورية وبابلية حتى ظهرت فيها الدولة الآكمينية التى تعرف أيضا باسم الدولة الهخمانشيـة . وقـد أقام هـذه الدولة الملك كورش بعد أن وحد تحت رايته القبائل التى كانت تسكن الوادى الايرانى ، وخلف كورش هذا ابنه قمبيز فغزى آسيا الصغرى والشام ودخل مصر ودخل خلفاء قمبيز فى حروب متصلة مع الإغريق حتى استطاع الإسكندر المقدونى أن يهزم آخر ملوك هذه الأسرة ، وهو دارا الثالث ، ويقضى القضاء التام على الدولة الآكمينية ثم يقيم دولة اغريقية فى أرض فارس نفسها .

ولم يكتف الإسكندرَ بذلك فقد وضع نصب عينيه القضاء التـام على الحضارة الفارسية وإحلال الحضارة والثقافة اليونانية محلها . وأراد كذلك أن يقضى على

كل نفوذ لأمراء هذه البلاد حتى يضمن بذلك تأمين مؤخرته لينصرف إلى الفتوح نحو الشرق ، وكان فى خطته أن يفتح الهند ويمضى حتى يبلغ الصين .

وحين كتب بهذا الرأى إلى أستاذه ومستشاره أرسطو نصحه هذا بالعدول عن القضاء على الأمراء الفرس وقال له :

« إنك حين تقتل الزعماء والأشراف ستضطر إلى الاستعانة بالسوقة بدلهم فى مناصب الدولة وهو أمر ليس من الحكمة فى شىء ، والرأى أن تفرق الأمراء والأشراف فى كل البلاد وتقطع كل واحد منهم ملكا يشغل به وتفسح صدرك لكل واحد حتى يشعر هو أنه أقرب واحد منك عن غيره ، وأنه مدين لك بتاجه وما خلعته عليك من ملك . وبقيام التنافس بين هؤلاء جميعاً ينعدم الخطر عليك منهم » . وتقاسم قواد الاسكندر ملكه من بعده وأقاموا ببلاد الفرس دولة إغريقية تعرف باسم الدولة السلوقية لم تستطع أن تحتفظ بسلطانها طويلا فصارت البلاد من بعد ذلك إلى جملة حكام يعرفون باسم ملوك الطوائف أو الاشكانيين . وظل هؤلاء يحكمون حتى ظهر زعيم قوى يدعى أردشير بن بابك فأسس الدولة المعروفة بالدولة الساسانية من بعد ذلك بعد أن وحّد فارس كلها تحت حكمه .

قيام الدولة الساسانية :

كانت أمور ايران فى القديم بأيدى أسر أو قبائل سبع ممتازة منها الأسرة الحاكمة ومنها الأسرة التى تسيطر على الجيش ومنها الأسرة التى تحتكر شئون الدين وهكذا . . الخ . وهذه الأخيرة تعرف باسم قبيلة المُغان وفيها ظهر نبى الفرس زرادشت الذى سنتحدث عنه وعن عقيدته فيما بعد . وقد تعرضت هذه القبيلة بالذات لاضطهادات شديدة على يد الاسكندر إذ كان من خطته القضاء التام على

دين زرادشت وإحراق كتب ايران المقدسة كلها وكتاب (الأفستا) ، الذى يعرف فى العربية بالأبستاق ، وهو كتاب الدين الزرداشتى . واضطر المغان إلى الفرار إلى الجبال هرباً من وجه الإسكندر وتحصنوا بها ، ثم عقدوا العزم على تخليص البلاد من هؤلاء الدخلاء وحماية عقيدتهم بكل الطرق . وكان من بين رجال هذه القبيلة سادن من سدنة بيوت النار يدعى ساسان وكان يعمل فى معبد أناهيد باصطخر وكان من نبلاء هذه القبيلة . واستفاد ابنه بابك من نفوذ أسرة أمه ، وكانت أسرة كبيرة ، حين خلف أباه فى وظيفته . واستطاع بابك هذا أن يلحق ابنه أرشير فى وظيفة عسكرية باحدى المدن . كما استطاع أردشير هذا أول القرن الثالث الميلادى أن يتغلب على جملة من المدن ، فى حين تمكن بابك من أن يقتل أحد الملوك فى منطقته ويجلس مكانه . ومات بابك بعد ذلك بقليل فارتقى ولد آخر له يدعى سابور عرش فارس . هنالك اشتعلت نيران الحرب بين سابور هذا وأخيه أردشير . وتوفى سابور فجأة فخلص الأمر لأردشير . وعمل أردشير من بعد ذلك على تثبيت سلطانه فغزى إقليم كرمان وأصفهان والأهواز حتى وصل إلى دجلة .

وما لبث أن قضى أردشير على مُلك الملوك الإشكانيين ودخل المدائن ثم استولى من بعد ذلك على بابل وهمدان وأرمينيا وضم اليه خراسان .

وتوج على أثر ذلك شاهنشاه على ايران ، أى ملك الملوك ، وذلك بمدينة اصطخر . وهكذا لم يمض قرون خمسة على سقوط الأكمينيين حتى استعاد الساسانيون لفارس سابق قوتها وصارت دولتهم نداً للامبراطورية الرومانية . وما لبث الشاهنشاه أن انتقل من حاضرته اصطخر إلى المدائن عند بغداد الحالية فاتخذها قصبة لملكه . وعلى حدود هذه الدولة كان يقيم المناذرة على تحالف مع الساسانيين فى الغالب . فى حين كان يقوم بالشام إمارة عربية أخرى هى امارة

الغساسنة على تحالف مع الرومان كذلك . والتفت أردشير من بعد ذلك إلى تنظيم دولته . وعلى يديه ظهرت روح جديدة فى الدولة الفارسية لها طابعان هما : تركيز السلطة كلها فى يد واحدة واتخاذ دين رسمى واحد للدولة ، أى وحدة الدولة ووحدة الدين . والمبدآن هما :

المبدأ الأول:

هو أن يكون الشاهنشاه الذى يحكم فى المدائن هو صاحب السلطان الأوحد فى الدولة ، وهو الذى يدين له كل الأمراء والملوك الصغار بالطاعة التامة . وفى سبيل هذه الوحدة رحب أردشير بكل ملك من ملوك الطوائف ارتضى الانطواء تحت لواءه ولم يتردد فى حرب غيرهم ممن رفضوا الخضوع له .

المبدأ الثانى :

وهو وحدة الدين . والمقصود به دين زرادشت ، أى أن يصير هذا الدين هو دين الدولة الرسمى والعقيدة الوحيدة المعترف بها فى كل ايران ، وكتاب هذا الدين هو الافستا .

نظام الدولة الساسانية :

تقسم الافستا الشعب الايرانى إلى ثلاثة طبقات هى :

١ ـ طبقة رجال الدين .

٢ ـ طبقة رجال الحرب .

٣ ـ طبقة الزراع .

وكانت الأولى والثانية من حيث الكيان الاجتماعى بمثابة طبقة واحدة يفصلها عن الطبقة الثالثة هوة سحيقة . وزاد على هذه الطبقات الثلاث، بعد الغزو الإغريقى ، طبقة رابعة وهى طبقة الكتاب ، أى كتاب الدواوين ، ويعرفون

فى الفارسية باسم دبيران ، وموضعها قبل طبقة الشعب التى تضم الفلاحين والصناع والتجار وأصحاب الحرف . وهذه الطبقات الأربع هى التى كان يقوم عليها النظام الاجتماعى أيام الساسانيين . وكانت كل طبقة تنقسم بدورها إلى عدة أقسام .

وكانت طبقة الكتاب تضم كتاب الرسائل والمحاسبات والأقضية ويدخل فيهم الأطباء والشعراء والمنجمون . ولم يكن يسمح لرجل طبقة الشعب التطلع إلى مرتبة أعلى من مرتبته إلا فى أحوال نادرة ، وذلك بأن يكون على ذكاء وبطولة فذة . وكان هذا الأمر على كل حال يستدعى إجراءات معقدة طويلة يتدخل فيه الملك بنفسه والموبذان موبذ (كبير رجال الدين) .

الإدارة المركزية :

كان الشاه هو رأس الدولة ويأتى من بعده رئيس الوزراء ويعرف باسم هزار أسب (رئيس الألف) فهو بذلك أكبر موظف فى الدولة . وكان الملك يتصرف فى كثير من المسائل بما يشير عليه رئيس الوزراء وهو الذى يختص بالمفاوضات الخارجية ويقود الجيش نيابة عن الملك فى بعض الأحيان ، ويقوم مقام الملك حين يخرج فى الرحلات أو الصيد أو الحرب ، فهو مستشاره فى كل الأمور .

ومنصب الوزير عند الخلفاء المسلمين كان على الصورة الساسانية ، ويشير إلى ذلك المؤرخ الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية وقد كان على الوزير أن يوقف أميره على جميع شئون الدولة ويتصرف وفق إرادته . وكان ملوك الفرس يمدحون وزراءهم ويقولون عنهم إنهم زينة الدولة ولساننا الذى نعبر به وسلاحنا الذى نضرب به العدو .

أما رجال الدين :

وكانوا من قبيلة المغان فهم أصحاب الرياسة الروحية . وكانت جماعتهم

تقوم على نظام محكم منسق وكانت لهم موارد غزيرة مصدرها ما كانوا يملكونه من أراضي واسعة وما كان يؤدى لهم من العشور والهبات فضلا عن الغرامات التي كان يدفعها المؤمنون تكفيراً عما يكونون قد ارتكبوه من الذنوب . وإذا عرفنا أن الدين كان يتدخل فى أقل أمور الحياة اليومية شأناً فى فارس ، وإلى أى حد كان الفرد العادىّ معرضاً ليل نهار لأن يقع فى الإثم والنجاسة لأقل غفلة تبدو منه لأدركنا أن رجل الدين الذى لم يرث عقاراً كان يستطيع بسهولة أن يجنى ثروة طائلة تفضل أعماله المختلفة . والواقع أن هذه الجماعة كانت بمثابة دولة قائمة بنفسها داخل الدولة . وكان على الملك أن يستشير رئيسهم فى كل شئون الدولة . وكان كبير رجال الدين هذا له سلطة تزيد على سلطة البابا عند النصارى .

أما شئون الدولة المالية :

فكان يتولاها رئيس الزراع وهو الذى كان يشرف على جباية الضرائب وخراج الأراضى الزراعية وشئون الصناعة وحركة التجارة . وكانت أغلب منتجات آسيا ، ولاسيما منتجات الصين ومنها الحرير وجزء من منتجات الهند ، كانت تمر فى القديم عن طريق إيران إلى شواطىء البحر الأبيض مما يؤدى إلى ثراء إيران . وكانت الضرائب الاستثنائية تفرض عندما تفاجىء الحرب الدولة فتحتاج إلى المال ، وعبؤها يقع فى الغالب على الأقاليم الغنية . وكثيراً ما يشار إلى إعفاء الزراع من الضرائب المتبقية عليهم ولا سيما أثناء القحط ، وكان الملك الجديد يتقرب بهذ الصنيع إلى الشعب .

أما القواد فكانوا يعرف الواحد منهم باسم مرزبان . وكان القواد يدخلون المعسكرات على صوت الطبل.

وكان الكُتَّاب فى الدولة الساسانية مكانة مرموقة .

والكتابة فى الدوله الإسلامية هى كالوزارة صورة صادقة من النظام الإيرانى .

وينبغى أن يكون الكاتب كريم الأصل شريف العرض دقيق النظر عميق الفكر ثاقب الرأى وأن ينال الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته . وأن يعرف مراتب أهل العصر ومقاديرهم وألا يشغل بحطام الدنيا ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من أصحاب الأغراض .

وبهذا نرى أن الكتاب كانوا دبلوماسيين حقيقيين يكتبون الوثائق السياسية ويقومون بتحرير مراسلات الدولة ويصوغون قوانينها .

إدارة الأقاليم :

وكان يعهد بها إلى الستاربة أو المرازبة ، ويختارون من النبلاء فى الغالب . وكان لكل واحد منهم جيش صغير يشارك به فى حروب الدولة .

الدين الورادشتى :

تتكون كلمة زرادشت من مقطعين : زرد وهو اللون الأصفر ، وشتر ومعناه الجمل ، فهى بهذا صاحب الجمل الأصفر أو راعيه . واللون الأصفر له أهمية كبرى عند الزرادشيين فأتباع هذا الدين جميعاً يرتدون الثياب الصفراء . والغالب أن زرداشت ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد فهو بذلك يعاصر نبي الهند بوذا .

وينسب إلى زرادشت كثير من الخوارق التى تنسب إلى بعض الأنبياء والرسل فقد أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ، ورد السمع والبصر إلى من فقدوه ، وأنزل المطر ، وفجر الأرض عيوناً .

ودين زرادشت هو دين توحيد وإن لم يبد على الوجه الكامل الذى نعرفه فى الإسلام . فإله الخير فيه وإله الشر هما فى الواقع ما يقابل الله القادر والشيطان ، فالثنائية فيه ليست فى الحقيقة إلا فى الظاهر ، ذلك أن المعركة بين الخير والشر تنتهى عنده بالنصر النهائى لروح الخير

ودستور هذا الدين هو كتاب الافستا أو الابستاق كما تذكره المصادر العربية وقد أشرنا من قبل إلى حرص الإسكندر المقدونى على حرق نسخ هذا الكتاب ليقضى بذلك على دين زرادشت ، وأن أردشير قد عمل على إحياء هذا الدين فضلا عن اتخاذه لهذه العقيدة ديناً رسمياً للدولة . فقد أمر الموبذان موبذ كبير رجال الدين بجمع الافستا . حتى إذا ما جاء من بعده ابنه شابور الأول لم يسترح إلى الجهود التى بذلت من قبل لجمع الافستا فبعث برسله فجلبوا له ما وجدوه مترجماً منهـــا عند الإغريق وما عثروا عليه فى الهند ، ليعهد من بعد ذلك إلى مجمع دينى بترتيبها . ومع ذلك فلم يبق لنا منهـا اليوم إلا أجزاء قليلة هى عبارة عن بعض نصوص خاصة بالعبادات ومعلومات عن النجوم والعـــلوم الطبيعية والتشريع والحـكم .

فى حديثنا عن قيام الدولة الساسانية قلنا أن أول الحـكام هو أردشير ، ثم جاء من بعده ابنه سابور الأول . وسابور هذا هو الذى جمع نصوص الافستا وحفظها فى بيت النار بمدينة شيز بأذربيجان . وشابور هذا كان قد ولى العرش عام ٢٤١ م . وفى عهده دخلت إيران والروم فى حروب متصلة فى الغالب مما أدى إلى إضعاف شوكة هاتين الدولتين . وقد مهد ذلك بالتالى للعرب اجتياح مناطق الشرق الأوسط حين يخرجوا إليها فاتحين بعد ظهور الإسلام . وفى عهد شابور هذا أو سابور ظهر ملك عربى صغير هو أذينه ملك تدمر الذى استطاع أن يهزم الفرس فى حربه معهم فـكان انتصاره هذا من أيام العرب المشهورة . وفى عهد شابور هذا ظهر مصلح دينى فارسى كبير يدعى (مانى) وعلى ما تقول الرواية فقد كان والد مانى من أسرة عريقة ، وتذكره الـكتب العربية باسم فتق ، وقد هاجر من بلدة همدان إلى بابل . وهناك كان يحضر مجالس المغتسلة وهى إحدى الفرق النصرانية كانت فى الأقاليم الواقعة بين دجلة والفرات . وفى إحدى القرى هناك ولد مانى عام ٢١٥ م وتعمق فى دراسة الأديان من زرادشتية ومسيحية وغيرها ، وكان يرى الوحى عدة

مرات فى صورة ملاك القرين فى المذهب المانى ، فكان يكشف له عن الحقائق الإلهية . ثم بدأ مانى يعلن دعوته عند ذلك فزعم الناس أنه هو الفارقليط المنتظر الذى قال عيسى بأنه سيكون هو آخر الأنبياء . وهو يقول فى ذلك إن الحكمة والأعمال هى التى لم يزل رسل الله تأتى بها فى زمن دون زمن ، فكان مجيئهم فى بعض القرون على يدى الرسول الذى هو بوذا إلى بلاد الهند ، وفى بعضها على يد زرادشت ، وفى بعضهـــا على يد عيسى إلى أرض المغرب ، ثم نزل هذا الوحى وجاءت النبوة فى هذا القرن الأخير على يدى أنا مانى رسول إله الحق إلى أرض بابل . ويتفق مانى مع زرادشت فى الأدوار التى مر بها خلق الدنيا ، مسائل الخير والشر من حيث هى ولكنه يختلف معه فى نظرة التفائل التى ذهب إليها زرادشت حين يقول بانتصار الخير وحيث يحض زرادشت النــاس ، أو المؤمنين على وجه التحديد ، على التناسل حتى يكثر الخير فى الأرض فيقضوا بذلك على الشر . ومانى يتأثر فى ذلك لا بالمسيحية كما ذهب البعض وإنما بالمذاهب الهندية ، وبمذهب الجينية على التحديد وصاحبه مهابير وكان فى القرن السادس قبل الميلاد .

ويقسم مانى العباد إلى طبقات ويلزم الطبقة العليا منهم بمبادئه هذه فى الامتناع عن الزواج ويحضهم على الرهبنة والتجرد من كل متـــاع الدنيا . وهو فى عباداته وفروض عقيدته يأمر الناس بالصوم سبعة أيام فى كل شهر وبأداء الزكاة وبتأدية الصلاة أربع مرات فى كل يوم ، وأن عليهم أن يتطهروا بالماء فى كل مرة قبل أدائها ، ومن لم يجد ماءا فليتيمم بالتراب .

وقد انتهى أمر مانى بأن قتل عام ٢٧٦ م ، وذلك فى عهد بهرام الأول . ومع ما لقيه المانويون من الاضطهاد بفارس ، فإن هذا الدين قد عاش على الرغم من ذلك هناك فى صورة شبه سرية . وقد انتشرت دعوة مانى بآسيا الوسطى وعرفتها بلاد الحيرة وظهرت أخبارها كذلك فى أوراق البردى القبطية مما يثبت وصولها إلى مصر .

ومن أشهر ملوك الفرس الذين جاءوا من بعدذلك يزدجرد الاول ، ويعرف عند الفرس باسم الآثم وعند الروم باسم العادل لتسامحه مع النصارى . وقد أظهر المودة الكثيرة للعرب جيرانه حتى عهد بتربية أحد أبنائه إلى المناذرة فى الحيرة . وفعل مثل ذلك مع الروم ، وقد بادله قيصر الروم بدوره القوامة على الأبناء . وكان الأمير الفارسى الذى نشأ ببلاد المناذرة هو بهرام كور الذى يعرف باسم بهرام الخامس . وكورخر معناها حمار الوحش ، وكان هذا الامير مغرما بصيد هذا الحيوان . وقد اشتبك هذا الملك فى حروب مع الهياطلة وهم التورانيون أو الترك فى الشرق ومع الروم فى الغرب ثم صالحهم آخر الأمر . ونذكر من بعده قبـــاذ الاول الذى حكم فى فارس أواخر القرن الخامس الميلادى وفى عهده ظهر مصلح آخر اجتماعى هو مزدك . وناصر قبـاذ هذا المصلح أول الأمر فثار عليه رجال الدين حتى أرغموه على التخلى عن العرش ، فلم يعد إليه من جديد إلا بعد أن أعلن توبته ورجوعه إلى الزرداشتية . وقباذ هذا هو أبو كسرى أنوشروان المعروف فى التاريخ والذى سنتحدث عنه بعد أن نفصل قليلا من أمر مزدك .

دعوة مزدك :

تحدثنا من قبل عن نظام الطبقات فى إيران وأن الارتقاء من طبقة إلى أخرى كان عسيرا مستحيلا فى الغـالب . وكان الأشراف وأبناء الطبقات العليا يحلون لأنفسهم أشياء يستمتعون بها ويحرمونها على من هم دونهم . فمن ذلك المراكب والثياب الغالية وأدوات الزينة والقصور الفاخرة . وكانت زوجاتهم يرفلن فى الحرير ويستخدمون أغلى العطور .

ولمقاومة مثل هذه الأوضاع خرج مزدك ينـادى بدعوته ، الواقع أننا لا نعرف عن مزدك إلا القليل اللهم إلا اتجاهه الاجتماعى هذا . فلقد رأى انعدام

المساواة بين الناس وقيام الفوارق الشديدة بينهم فعمل على إزالة ذلك كله . رأى أناسا يعيشون فى بذخ شديد وغيرهم يعانى من شظف العيش والحرمان ورأى رجالا عندهم المال الوفير وفى حوزتهم جميلات النساء وغيرهم لا يملكون شروى نقير وليس لهم من متاع الدنيا شيئاً .

فانبرى يبشر بدعوته ويقول بأن الله إنمـا جعل الأرزاق فى الأرض ليقتسمها العباد بالتساوى فيما بينهم بحيث لا يكون لأحد ما ليس لغيره . وقد نشأت عدم المساواة فى الدنيا بالقوة لا بالعدل ، فكل واحد يريد اشباع رغباته على حساب أخيه . والواجب أن كل من كان عنده فضلة من الأموال أو المتاع أو النساء ليس له أن يحبسه عن غيره . فينبغى أن تأخذ من الأغنياء للفقراء لتقوم بذلك المساواة بين الناس فى الأموال والنساء ويشتركون فى كل شىء اشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

ونفهم بسهولة كيف استطاع خصوم هذا المذهب اتهام الشيوعيين المزدكيين بالشهوة والإباحية، وهما فى الحقيقة صفتان متناقضتان مع الزهد الذى كان أساسا لهذا المذهب .

والواقع أن مزدك كان يدعو إلى ثورة اجتماعية مدفوعا بأفكار أخلاقية وإنسانية. وتصر المزدكية على فعل الخير، فانهم لم يحرموا القتل فحسب بل وحرموا كذلك إدخال الآلام على النفوس ونادوا بالامتناع عن أكل لحم الحيوان . ذلك أن أكل الحيوان يستدعى ذبحه وكل سفك للدماء فيه قتل النفس . وحض مزدك على قيام المودة بين الناس وقتل النزوات والشهوات لتخليص الروح بذلك وتطهيرها

ومزدك لم ينادى بالمساواة إلا ليمنع قيام العداوة والقتل بين الناس .

وهو يدعو فى مذهبه فى الواقع إلى الزهد التام وإلى رياضة النفس ولكنه حين أدرك أن العامة لا غنى لهم عن اللذات المادية قال عندئذ بالمساواة فى الأموال والنساء على الوجه الذى أشرنا اليه من قبل .

وجاء كسرى الأول ، وهو المعروف فى التاريخ باسم أنو شروان والذى يعد عهده أزهى عهود الدولة الساسانية ، فقضى على فتنة مزدك وأشاع الأمن فى البلاد وأمد أهلها بالمواشى وبكل ما يلزمهم للزراعة ونظّم طرق الرى . ثم اتجه من بعد ذلك إلى اصلاح نظام الضرائب، واوضح للناس أن ما يجبى منهم من الأموال إنما هو لدفع خطر العدو عنهم . ثم نهض باصلاح الجيش وأمد النبلاء ، وهم عماد القوة الحربية ، بالأسلحة والدواب على نفقته ، وكانوا من قبل يلزمون بذلك . وكان السلاح الرئيسى فى الحرب هو القوس والنشاب . وكان القـــادة يعرفون باسم الاساورة .

وقد دخل أنو شروان فى حروب مع الروم ومع الهياطلة (الترك) وبلغ بنفوذه بلاد اليمن التى كانت تخضع إذ ذاك للأحباش . ويشتهر أنو شروان فى التاريخ بميله الشديد إلى العدل حتى عرف باسم أنو شروان العادل . ويشاع عنه أن رسول قيصر الروم حين قدم إليه بالهدايا من سيده لاحظ إعوجاجا فى بناء الإيوان ، وحين سأل عن السبب قيل له لأن عجوزاً تملك داراً هى سبب هـذا الاعوجاج وأن الملك رغبها فى بيع دارها هذه فأبت فلم يقبل الملك أن تكره على ذلك . هنالك قال رسول ملك الروم : إن هذا الاعوجاج هو الآن أحسن من الاستواء . ومما يؤثر عنه كذلك أنه مد سلسلة من مقام جلوسه حتى خارج قصره وعلق بها أجراساً قوية تدق فى بلاطه حين يهز السلسلة صاحب المظلمة وكان كسرى عندئذ يدعو المتظلم فلا يصرفه حتى ينصفه . والحق أن كسرى رفع كثيراً من العقوبات التى كانت شائعة بايران أو خففها ، فمنع عقوبة بتر أعضاء البدن واكتفى بأن يقطع من أطراف المذنب قطعة صغيرة إذا لم يكن بد من ذلك حتى لا يعوقه بذلك من أداء واجبه والسعى فى طلب الرزق . وكان كسرى كذلك من أكبر رعاة العلم ودعاة الحضارة والمدنيـة . فقـد بلغت المدائن حاضرته فى عهـده أقصى اتساعها وازدهرت إلى جانبها كذلك كثير من مدن ايران ، ولم يأل هـذا الملك جهداً فى دعوة الفلاسفة والعلماء إلى بلاطه حتى انتهز فرصة اضطهاد قياصرة الروم

أول عهدهم بالمسيحية ، للمشتغلين بالفلسفة فرحب بقدوم هؤلاء العلماء الإغريق (اليونان) إلى بلاطه وطلب إليهم أن يلخصوا له فلسفة أرسطو وغيره وينقلوا إلى الفارسية كتابات الفلاسفة اليونان . وكان لقدوم هؤلاء العلماء أثر كبير فى تعريف الفرس بالثقافة اليونانية ولم يكتف أنو شروان بذلك حتى دعا إليه كذلك علماء الهنود وحكمائهم فقاموا بالتدريس كذلك فى الجامعات الفارسية أو المدارس الفارسية ونقلوا جملة من كتبهم من الهندية إلى الفارسية البهلوية . ومن بين هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذى نقله إلى العربية فيما بعد ابن المقفع .

ومن أهم المدارس الفارسية مدرسة جندى سابور فى خوزستان وفيها تعلم بعض أطباء العرب قبل الإسلام . وقد عاونت هذه المدارس فى تيسير اطلاع المسلمين العرب فيما بعد على ما عند الهنود واليونان من مختلف صنوف المعرفة اطلاعا واسعاً . ونحن نعلم أن المسلمين العرب كانوا منذ القرون الأولى كلفين للاطلاع على ما عند غيرهم من أنواع المعارف، وكان النبى الأكرم نفسه يدعوهم إلى ذلك بما ورد فى أحاديثه الشريفة ومنها :

« اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « لأن تغدو فتقرأ بابا من أبواب العلم خير من أن تصلى مائة ركعة »

وفى عهد كسرى الذى امتد من عام ٥٣٢ م — ٥٧٩ م ولد النبى الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية .

ويأتى من بعد كسرى الأول هرمز الرابع وبهمة قائده بهرام جوبين هزم الهياطلة (الترك) وكانوا أخواله ، كما هزم قياصرة الدولة البيزنطية الشرقية وألزمهم بدفع الجزية لهم .

ويأتى من بعده كسرى الثانى الذى يعرف باسم كسرى برويز وقد حارب

الروم واستولى على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، وجلب الصليب الأكبر من القدس إلى المدائن وحاصر القسطنطينية . وقد انتهى أمره بأن قتل وخلع . وفى عهده ظهرت الدعوة المحمدية حين قام محمد بن عبد الله يدعو الناس إلى الدخول فى دين الحق . وجاء من بعده ملوك ضعاف كان آخرهم يزدجرد الثالث الذى اقتحم المسلمون فى عهده بلاد فارس . ووقعت بينه وبينهم جملة وقائع من أهمها واقعة القادسية التى استولوا فيها على المدائن ثم واقعة جلولاء وأخيراً واقعة نهاوند وكانت الفاصلة .

وبقتل يزدجرد الثالث انتهى أمر الدولة الساسانية فى فارس ، وخضعت تلك البلاد للحكم الإسلامى . وطفق أهلها يقبلون على الدخول فى الإسلام دون إكراه لما رأوه فيه من المساواة وانعدام نظام الطبقات ومناداته بأنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

ولقد بلغ المسلمون فى أغلب البلاد التى فتحوها إلى ما لم يبلغه غيرهم من الأمم ، فاستبدل أهل البلاد المفتوحة لغتهم وعقائدهم وما عندهم من عادات وفنون إلى لغة المسلمين وعقيدتهم وفنونهم .

نرى مثال ذلك واضحا فى مصر والشام والشمال الأفريقى ومناطق كثيرة أخرى بأفريقيا . وكذلك سار الأمر فى فارس وبلاد الترك . فضلا عن أن لغتهم الفارسية والتركية على السواء صارت تكتب بالحروف العربية فقد استعاروا من العربية نفسها كثيرا من الألفاظ والمصطلحات بما يزيد على نصف ما يستخدم فى لغتهم .

إيران
بعد الفتح الاسلامى

ظلت بلاد فارس ، بعد أن دخلها العرب المسلمون أيام الخليفة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، ولاية من ولايات الدولة الإسلامية وجزءاً من أراضيها يبعث إليها الخلفاء بعمال من لدنهم يديرون شئونها . وظل الحال يجرى على هذا المنوال أيام الأمويين وفى العصر العباسى الأول كذلك ، وكانت أهم الولايات الإيرانية إذ ذاك إقليم خراسان فى الشرق . وفى هذا الإقليم بدأ أبو مسلم الخراسانى دعوته لنصرة العباسيين ودخل هناك فى حروب كثيرة مع نصر بن سيار قائد الأمويين هناك انتهت بزوال كل نفوذ لبنى مروان بتلك البلاد وانتصار دعوة العباسيين بها .

ومما يذكره الطبرى فى ذلك أن أغلب أتباع أبى مسلم كانوا من كفار الترك ، فى حين ساند نصر بن سيار كثيرون من المسلمين الإيرانى الأصل هناك .

حتى إذا ما انتصرت العناصر الفارسية للمأمون فى خلافه مع أخيه الأمين وخلصت الخلافة العباسية من بعد ذلك للمأمون ، أخذ نفوذ الفرس فى الدولة العباسية يطغى على كل نفوذ للعناصر العربية طغيانا تاماً ، ذلك النفوذ الذى بدأ مع قيام الخلافة العباسية وبلغ صورة خطيرة قوية على أيدى البرامكة الذين قضى الرشيد عليهم حين رآهم يجمعون كل سلطان بالدولة فى أيديهم .

وبلغ من نفوذ العناصر الفارسية — ذلك النفوذ الذى استردوه أقوى ما يكون من جديد بنصرتهم للمأمون — أن ظفر أحد قوادهم ، وهو طاهر بن الحسين ، بحكومة خراسان حيث أقام له هناك دولة شبه مستقلة عرفت باسم الدولة الطاهرية.

ومما يلفت النظر أن هذه الدولة برغم فارسية أصحابها، وميلهم إلى بنى جلدتهم، فقد كانوا يحافظون على الآداب العربية لا يبغون عنها حولا . ومما يروى فى ذلك أن أحد الفرس تقدم لأحد أمرائهم بقصة من قصص الفرس القدامى فإذا بالأمير الطاهرى يرده فى عنف ويقول له : نحن قوم لا نقرأ إلا القرآن والحديث ، ثم يأمر بإحراق كتب المجوس . وقد حكمت الأسرة الطاهرية بخراسان قرابة نصف قرن إبتداء من عام ١٩٥٩ هـ .

ويبسط الصفاريون من بعد ذلك نفوذهم على بلاد فارس منتصف القرن الثالث الهجرى ومؤسس هذه الأسرة هو يعقوب بن الليث الصفارى ، كان أبوه صفارا ، أى من المشتغلين بصناعة النحاس ، ومع ذلك فقد كان يزعم بإنتهاء نسبه إلى ملوك الساسانيين .

وكان يعقوب هذا على جهل بالعربية حتى سأل الناس أن لا يمدحونه بالعربية التى لا يفهمها فأنشدوه بالفارسية .

وكان الصفاريون على شعوبية وتعصب لماضى الفرس القديم حتى ناصب يعقوب الخليفة المعتمد العباسى العداء وطمح إلى الاستيلاء على بغداد ولكنه فشل فى ذلك .

وصالح أخوه عمرو بن الليث الخليفة العباسى من بعد وهادنه .

السامانيون :

وأول دولة فارسية كبيرة حكمت إيران هى الدولة السامانية ، وكانوا ينسبون أنفسهم إلى بهرام الساسانى . وكانت حاضرتهم فى بخارى ببلاد ماوراء النهر ، وكان فى حوزتهم خراسان وسجستان وجرجان والرى وطبرستان .

وقد بذل هؤلاء السامانيون جهوداً كبيرة فى نشر الإسلام بين قبائل الترك ببلاد ماوراء النهر وبقايا الإيرانيين هناك . وكانت الفارسية لا تستعصى على أفهام الناس فى تلك البقاع .

وأعظم أمراء السامانيين هو نصر بن أحمد . وفى عهده صارت بخارى بين مراكز الثقافة الإسلامية الكبيرة .

والسامانيون هم أول من عمل على إحياء الآداب الفارسية وبدأت هذه الآداب تدون فى عهدهم بالحروف العربية وتتضمن الكثير من الألفاظ والعبارات والمصطلحات العربية .

وممن ظهر فى عهدهم وبتشجيعهم من الشعراء : الشاعر الكبير عبد الله الرودكى وابن سينا الطبيب ثم الدقيقى الذى ينسب إليه بداية نظمه للشاهنامة .

وفى عهدهم كذلك أخذت سير ملوك الفرس الأقدمين تروج نثراً بين الناس .

وما عمد إليه السامانيون فى ترجمتهم لأجزاء من تاريخ الطبرى وتفسير الطبرى إلى الفارسية ، لم يكن منهجهم فى ذلك إحياء الآداب الفارسية بقدر ما هدفوا إلى تبصير السكان من أصحاب اللسان الفارسى فى دولتهم بشئون دينهم .

هذا وكان البويهيون قد استطاعوا أيام السامانيين أن يقيموا لهم دولة كذلك غرب إيران ، وكانوا على التشيع . وأعظم حكامهم هو عضد الدولة ، وقد صار لهم نفوذ عظيم فى بغداد نفسها (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) .

وخلف الغزنويون الترك السامانيين على إيران . ويعد المؤرخون السلطان محمود الغزنوى ثانى حكام هذه الأسرة والمؤسس الحقيقى لها من بين أعاظم عواهل المسلمين فى التاريخ الإسلامى . فقد أخذ على عاتقه مطاردة فرق المضللة من الباطنية والقرامطة وغيرهم من أعداء السنة حتى لقبه الخليفة العباسى بيمين الدولة ، ثم انطلق من بعد ذلك إلى شبه القارة الهندية فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبع وعشرين عاما ابتداء من آخر القرن الرابع الهجرى . وبه يبدأ الفتح الإسلامى الجدى لهذه البلاد ، وإليه يرجع الفضل فى نشر الإسلام بها على نطاق واسع . ومن أشهر فتوحاته هناك فتحه لكشمير ثم سومنات على شاطىء الهند الغربى قرب كراجى الحالية ، فقد اجتاز إلى ذلك المكان صحراء مهلكة تراجع الإسكندر

المقدونى عن عبورها حين غزا الهند من قبل . وبسومنات كان أعظم معابد الهنادكة وكانوا يختزنون به أموالهم ويدبرون فيه خططهم . وعرض الهنادكة على محمود افتداء أصنامهم بالأموال الطائلة لكنه رفض ذلك ورد عليهم بقوله المشهور : « إنى أوثر أن يقال عنى بأنى محطم الأوثان على أن يشتهر عنى بأنى بائع الأصنام » .

وفى بلاط هذا السلطان الغزنوى بمدينة غزنة كان يعيش جملة من الشعراء والمؤرخين والأدباء ويلقون عنده كل توفير ورعاية . ومن هؤلاء الفردوسى أعظم شعراء الفرس وصاحب الشاهنامة المعروف ، ثم المؤرخ البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعتبى صاحب تاريخ اليمينى . وأعظم هؤلاء جميعا هو أبو الريحانى البيرونى العالم الرياضى الفلكى المؤرخ . وهو أول من أطلع العالم فى عصره اطلاعا واسعا على حضارة الهند ومعتقداتها وتاريخها بعد أن عاش فيها سنين طويلة وعرف لغاتها وحضارة أهلها واستمع إلى بيان معارفها من أفواه علمائها وغاص فى بطون كتبها . وقد سجل ذلك كله فى كتابه المشهور « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » .

وخلف محمود ابنه مسعود وكان بدوره سلطاناً عظيما واسع الأفق إلا أنه تعرض لهجوم السلاجقة على أراضيه فأنزلوا به هزائم متلاحقة .

وخلف السلاجقة الترك أسلافهم الغزنويين بإيران . واستطاع هؤلاء السلاجقة أن يبسطوا نفوذهم على كافة الأراضى الممتدة من حدود الهند حتى الشام وحدود بلاد الروم ، وأنزلوا بأباطرة الروم أنفسهم هزائم شديدة وأسروا بعض أباطرتهم عن كانوا يحلمون باقتحام البلاد الإسلامية والاستيلاء على بغداد نفسها .

ومن أشهر سلاطينهم ألب وملكشاه وسنجر . وفى عهد ملكشاه ظهر وزير قوى هو نظام الملك الذى كلف بنشر الثقافة الإسلامية كلفاً عظيما

حتى أنشأ جملة من المدارس الجامعة العليا ، عرفت باسم المدارس النظامية نسبة إليه، في بغداد ونيسابور وأصفهان .

والسلاجقة برغم أن منازل أسلافهم كانت في تركستان ثم من بعد ذلك في بلاد ماوراء النهر عند بخارى وسمرقند إلا أنهم لم يهتموا إلا بأراضيهم الجديدة في إيران حيث اتخذوا من نيسابور بخراسان قصبة لهم فعمروها هي وأصفهان بالمنشآت الكثيرة . كما ازدهرت في عهدهم كثير من الصناعات بإيران منها صناعة المنسوجات القطنية والحريرية وكذلك صناعة الفخار المشغول بالألوان والميناء وكانت مراكزه في كاشان والري .

وفي عهد السلاجقة ظهر كذلك بإيران جملة من كبار الفقهاء والعلماء والشعراء والفلاسفة ، ومنهم الإمام أبو حامد الغزالي والجويني إمام الحرمين والشاعر الأخلاقي فريد الدين العطار والمفسر الكبير الفخر الرازي ثم الرياضي الفيلسوف عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة .

وجهد السلاجقة بدورهم في تأييد أهل السنة ومحاربة الملاحدة من الباطنية حتى اشتبكوا في جملة معارك مع فرقة الإسماعيلية المعروفين باسم الحشاشين . وهم أتباع حسن الصباح الذي استطاع أن يستولي على جملة حصون في كوهستان ، ومنها قلعة ألموت التي اتخذها عام ٤٨٣هـ مقراً له بعد عودته من لدن الفاطميين الذين كانوا يحكمون في مصر .

وقد أطلق هؤلاء الملاحدة جماعة من فداويتهم لاغتيال كل من يقف في سبيل نشر دعوتهم بعد أن أخذوا يعيثون في الأرض فساداً .

وكان أول ضحاياهم الوزير القدير نظام الملك السلجوقي الذي فضح أباطيلهم في كتابه « سياست نامة » وحرض سلاطين السلاجقة على حربهم .

الخوارزميون :

وحين هان شأن السلاجقة دخلت إيران في حوزة سلاطين خوارزم ومؤسس

الدولة الخوارزمية هذه ، ويدعى نوشتكين، كان غلاماً تركياً نابهاً اشتراه السلاجقة ثم بلغ عندهم مابلغه سبكتكين عند السامانيين من قبل ، فولوه حكومة خوارزم .

واستطاع سلاطين خوارزم أيام اتسز ثم أيام علاء الدين محمد أن ينشروا سلطانهم على أغلب أملاك السلاجقة السابقة ، كما دخلوا فى حروب متوالية مع كفار الترك فى التركستان وهم الذين يعرفون باسم الكورخانيين .

وكان سلاطين خوارزم فى خلاف دائم مع خلفاء بغداد بسبب التنازع على النفوذ فى العراق .

المغول وجنكيزخان :

وفى عهد السلطان علاء الدين قطب الدين تعرضت الدولة الإسلامية فى نواحيها الشرقية ، أى فى مناطق بلاد ماوراء النهر التى تضم بخارى وسمرقند وخوارزم ، ثم إيران لغارات عدو مخرب مدمر تمثل فى جموع المغول الغفيرة ويقودهم زعيمهم جنكيزخان اجتاحت تلك البلاد فأنزلت بها من الدمار مالم تتعرض له من قبل ولا من بعد ، فخربت مراكز الثقافة الإسلامية المشهورة هناك وقضى على كل معالم للحضارة الإسلامية بها وقتل مئات الألوف من أبنائها .

وكان المغول لايبقون من السكان فى الغالب إلا على أصحاب المهن والحرف الذين كانوا يلحقونهم بخدمتهم أو يبعثون بهم ليقوموا على تعمير بلادهم .

وبلغ من قسوة هؤلاء البرابرة المخربين أنهم لم يكونوا يتورعون عن شق أجواف الناس أحياء وأمواتاً على السواء بحثاً عما يكونوا قد ابتلعوه من الجواهر .

وقد فر من أمامهم السلطان علاء الدين محمد بعد هزيمته حيث مات وحيداً يائساً فى نواحى قزوين حتى لم يجدوا ما يكفنونه به إلا ثوبه .

وجالد ابنه جلال الدين منكُبردى قوات المغول فى شجاعة نادرة شهد له بها جنكيز نفسه ، حتى هرب من وجههم آخر الأمر إلى الهند . وعاد من هناك بعد عدة سنوات فواصل حربه معهم بإيران من جديد ولكنهم مازالو به حتى هزموه وقتلوه .

هولاكو :

وفى الدور الثانى من الغزو المغولى وفدت جموعهم إلى إيران والعراق يقودهم هولاكو بأمر من أخيه الأكبر منكوخان المغول الأعظم وتدمير منه. وكان هدفه من حملته هذه هو القضاء على الإسماعيلية الذين يعرفون بالحشاشين ، وهم فرقة الحسن الصباح ، واقتحام منازلهم وتدمير حصونهم وقلاعهم ، ثم دخول بغداد من بعد ذلك . وكان هؤلاء الإسماعيلية قد رحبوا من قبل ذلك بقدوم جنكيزخان إلى البلاد الإسلامية وهادنوه ، إلا أنهم مالبثوا بعد رحيله عنهم أن خافوا مغبة إتساع سلطان المغول فراحوا يحضون الناس على الخروج عليهم والعمل على طردهم من بلادهم حتى كاتبوا الفرنجة فى ذلك . وظل هؤلاء الإسماعيلية يمارسون فى الوقت نفسه عداءهم الشديد لأهل السنة وإشاعة الذعر بينهم بفداويتهم وما كانت ترتكبه من الاغتيالات المعروفة المشهورة .

وتم لهولاكو فى السنين الأولى بعد منتصف القرن السابع الهجرى القضاء على تلك الفئة الباغية من أهل الأباطيل ودمر حصونهم جميعاً، لينطلق من بعدذلك إلى بغداد فيفتحها على أهلها عام ٦٥٥هـ ويقتل الخليفة المستعصم آخر بنى العباس بها ويخرب تلك المدينة العظيمة وما بها من تراث ضخم للمسلمين قام الخلفاء على جمعه قرونا طويلة جيلا بعد جيل .

وتجاوز المغول بغداد إلى الشام وفى خطتهم اجتياح بلاد المسلمين كلها . ولولا صد المصريين لهم فى عين جالوت بأرض فلسطين لدمر المزيد من تراث المسلمين وحضارتهم وأورد ألوف مؤلفة من المسلمين مورد الردى وخربت مدنهم وانتهبت ثرواتهم .

وباستيلاء هولاكو على إيران يبدأ عهد دولة الإيلخانيين من أبنائه وأحفاده الذين ظلوا يحكمون هناك منذ عام ٦٦٣هـ حتى عام ٧٥٦هـ .

الإيلخانيون :

وقد بدأ الإيلخانيون حكمهم بإيران وثنيين ثم اعتنقوا الإسلام من بعد ذلك . ولئن كان جند المغول قد ثاروا على أحمد تكودرى ثانى الحكام الإيلخانيين بإيران ودبروا مقتله بسبب إسلامه ، فقد قتل بايدو رابع الإيلخانيين من بعد ذلك باثنتى عشرة سنة لبغضه للإسلام فى الغالب . ولم يكد عقبه غازان خان يجلس مكانه حتى أعلن اعتناقه الإسلام . ولم يكتف بذلك حتى أمر كهنة المغول عنده بالدخول فى دين الحق وتهددهم فى ذلك بطردهم من بلاده . وحذا حذوه فى نصرة الإسلام أخوه أو لجايتو خدابنده فقضى بذلك على آخر مظهر للوثنية المغولية بإيران . وقد أبطل هؤلاء جميعهم الولاء لخان المغول الأعظم ورفعوا اسمه عن العملة وذلك بعد إسلامهم . وأدى ذلك إلى مهاجمة المغول الوثنيين لخراسان ولكنهم ردوهم عنها فدعموا بذلك استقلالهم السياسى . وهاجم الإيلخانيون المماليك المصريين بالشام، كما حاربوا العثمانيين بآسيا الصغرى ، واشتركوا معهم فى عدة مواقع هزموا فيها جميعا ، ثم مالبثوا أن اتفقوا معهم فقضى بذلك على آمال الأوربيين الذين كانوا يرمون من وراء هذه الحروب إلى تسرب نفوذهم إلى مناطق الشرق الأوسط وإيران وإن إزدادت روابطهم التجارية معهم .

وحين ضعف شأن الإيلخانيين صارت بلاد فارس يقتسمها أسرات أربعة هم : آل جلاير فى العراق العجمى ، وآل المظفر فى كرمان وفارس،

آل كرت فى هراة وآل سربدران فى جرجان وطوس وكوهستان ، حتى جاء تيمورلنك فقضى على هؤلاء جميعا وصارت إيران فى حوزته .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المغول الهمج وغيرهم من بدو آسيا الوسطى ، ومنهم الترك كذلك ، برغم كلفهم بالقتال والنهب والتخريب فانهم ، بعد أن زاد إتصالهم بالمسلمين واطلعوا على ما عندهم إن أسباب الحضارة والمدنية ، انقلبوا من بعد ذلك يساهمون فى بناء الحضارة والثقافة ويرعون أصحابها رعاية كريمة وقوّى من ذلك كله بداهة دخول فريق منهم فى دين الله . وهكذا ترى الغالبين — بفعل الإسلام : عقيدة ومدنية وحضارة — يدخلون فى دين المغلوبين ، وهى ظاهرة لم يعرف لها التاريخ نظيرا أو مثيلا من قبل . وقد شهدت إيران فى عهد الايلخانيين نهضة ثقافية كبيرة وظهرت كثير من المؤلفات القيمة فى مختلف فنون المعرفة حتى سارعت أوربا فى عصر النهضة إلى نقل قدر من هذه المؤلفات إلى اللاتينية لغةالعلم والثقافة عندهم إذ ذاك .

ومن بين العلماء الذين ظهروا فى ذلك العهد نصير الدين الطوسى الذى أقام له زلاكو مرصداً مشهوراً بمراغة ، كما كان من بين مشاهير المؤرخين عطا ملك الجوينى صاحب تاريخ جهانكشاى وهو أهم وأوفى مرجع فىتاريخ المغول وتاريخ سلاطين خوارزم وتاريخ فرقة الاسماعيلية.ثم رشيد الدين فضل‌الله صاحب كتاب جامع التواريخ ، وشهاب الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى صاحب تاريخ وصاف، وحمد الله المستوفى صاحب‌تاريخ گزيدة،ومنهاج السراج صاحب‌طبقات ناصرى . وجميع هذه التواريخ تعد من أهم مصادر التاريخ الاسلامى وقد كتبت بالفارسية .

ومن شعراء هذا العصر جلال الدين الرومى المتصوف المشهور وصاحب الطريقة المولوية التى انتشرت فى آسيا الصغرى إنتشاراً كبيراً . ويعد كتابه

المنظوم الذى يعرف باسم المثنوى من أهم مصادر التصوف الإسلامى ، ثم الشاعر الأخلاقى الكبير سعدى الشيرازى ويشتهر له كتاب منثور تتخلله أشعار عربية وفارسية وهو الكلستان ، وآخر نظم فارسى خالص هو البوستان . وفيهما يمجد التواضع ويدعو إلى التمسك بالمساواة والعدالة والحق القويم وقد أودع كتابيه هذين خلاصة تجاربه بعد أن طوف ببلاد العالم الإسلامى كلها وخالط أهلها .

وعمرت كذلك كثير من مدن إيران بالمنشآت فى ذلك العهد، وازدهرت صناعة النسيج والبسط وفنون الزخارف عندهم حتى تهافت الاوربيون وغيرهم من الشعوب الأخرى على اقتنائها .

إيران فى عهد التيموريين :

لئن كان المغول قد تم لهم فتح أقاليم كثيرة من بلاد العالم الاسلامى ، ولئن كان بعض قبائلهم قد استقر به المقام فى بعض أجزاء من ديار المسلمين المفتوحة ومنها بلاد ماوراء النهر حول نهرى سيحون وجيحون ، إلا أن أغلبية السكان فى هذا الجزء كان من العناصر التركية . وكان هؤلاء الترك هم كذلك الذين استعان بهم المغول فى إدارة حكومات هذه المنطقة فى الغالب . وحين ضعف شأن المغول فى تلك النواحى ، انتهز الترك ، أصحاب الغالبية ، هذه الفرصة ليزيدوا من نفوذهم حتى ظهر من بينهم آخر الأمر زعيم قوى وهو الذى يشتهر فى التاريخ باسم تيمور لنك أى تيمور الأعرج ، وكان قد أصيب بهذه العاهة فى إحدى المعارك التى خاضها فى شبابه .

وتم لتيمور الاستيلاء على خراسان عام ٧٨٢هـ ، كما دخل أصفهان ، تلك المدينة الفارسية الكبيرة ، فقتل من أهلها سبعين ألفا لغدرهم بثلاثة آلاف من جنده . أما شيراز فاستسلمت له وأمنت من قسوته فى الحرب ، وبذلك دخلت إيران كلها فى حوزته .

ولم تقف فتوحات تيمور عند هذا الحد إذا استولى على العراق وانتصر على العثمانيين فى آسيا الصغرى وأسر سلطانهم بايزيد الثانى الذى يشتهر باسم الصاعقة . كما اجتاح الأراضى الروسية حتى بلغ موسكو . وسارت جحافله شرقاً كذلك فعبرت حدود الهند حتى دخلت دهلى ، ولم يرجع عن الحاضرة الهندية حتى فعل بها أكثر مما فعل بأصفهان إذ كان أهلها بدورهم قد غدروا بجنده .

ورغم أن دولة تيمورلنك قد امتدت من ضفاف الكنج الهندى حتى موسكو إلا أن أبناءه من بعده عجزوا عن المحافظة عليها ، إذ سرعان ما أدى قيام النزاع والحرب فيما بينهم إلى تفسخها .

وممن حكم بايران من أبناء تيمور : شاهرخ ميزاز بن تيمور ، ثم أبو سعيد ميرزا والسلطان حسين بيقرا وهما من أحفاده .

ولقد عرف التيموريون جميعا بكلفهم بمظاهر الحضارة والمدنية ، فهذا جدهم تيمور ، برغم ما كان يقيمه من الأهرامات من رؤس قتلاه ، قد عمر حاضرته سمرقند بكثير من المنشآت الفخمة التى أقامها المعماريون الهنود له . وها هو أحد أحفاده أُلغ بك يقيم المدارس الجامعة ويكتب على وجهاتها حديث النبى الأكرم (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ويبنى المراصد يدرس فيها مع العلماء والطلاب حركات النجوم فى مسالكها ويكفل لهؤلاء جميعا حياة كريمة. أما السلطان حسين بيقرا فقد كان بلاطه فى هراة بخراسان يزدحم بالفقهاء والعلماء والنخبة الممتازة من بين رجال الآداب والعلوم والفنون حتى المبرزين فى ألعاب القوى ، وهم البهلوانيون ، كانوا يعيشون بدورهم فى رحابه كذلك .

وفى أيام تيمور كان يعيش بايران الشاعر الكبير حافظ الشيرازى وكان له لقاء معه .

ومن الأدباء الذين عرفتهم هراة : الشاعر عبد الرحمن جامى والأمير عليشير نوائى رائد الأدب التركى الشرقى. أما المؤرخون فيشتهر من بينهم ميرخوند صاحب روضة الصفا ثم خواند مير صاحب تاريخ حبيب السير .

هذا وتزدان كثير من متاحف العالم بكثير من اللوحات الفنية التى رسمها النقاشون (المصورون) الفرس فى العصر التيمورى ، وأشهرها ما صنعه الفنان بهزاد الذى كان يعيش بهراة ويعرف برفائيل الشرق .

الصفويون :

قضى التركمان يقودهم زعيمهم أوزون حسن على كل نفوذ للتيموريين بإيران فيما عدا منطقة خراسان التى تشبث السلطان حسين بيقرا إلى آخر حياته بجزء كبير منها .

وما لبث أن ظهر بإيران أواخر القرن التاسع الهجرى زعيم قوى ينتمى إلى القبائل التركية ويقول بامتداد نسبه إلى الإمام على من جهة وإلى يزدجر الساسانى من جهة أخرى ، ذلك هو الشاة إسماعيل الصفوى .

وما إن تم لهذا السلطان بسط نفوذه على إيران كلها ، وقد أعلن عزمه على إعلاء شأن مذهب الشيعة ، حتى راح يحمل الناس قسراً على الدخول فى هذا المذهب لا يترددون فى إفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته مستمسكين بمذاهبهم السنية القوية .

وأدى بشاه فارس تعصبه الشديد لإرغام الناس على التشيع قسرا — حتى لامه مؤرخو الفرس أنفسهم فى ذلك — أن دخل فى حروب متواصلة مع العثمانيين عند الحدود الغربية من بلاده ، ومع الاوزبك عند الحدود الشمالية لإيران وكان هؤلاء الأوزبك يحكمون فى بلاد ماوراء النهر التى

تضم فيما تضم التركستان ومنطقتى بخارى وسمرقند : وبلغ نفوذ هؤلاء الأوزبك مناطق كثيرة فى روسيا . وفى عهد أسلافهم كان الروس يدفعون لهم جزية سنوية ، كما كان دوق موسكو لا يعيّن إلا بموافقتهم .

وأدت حروب الشاه اسماعيل وخلفائه المتواصلة مع الأوزبك والعثمانيين إلى إلى أنهكت قوى هذه الدول الإسلامية القوية التى يحسب الأوربيون حسابها . فمهد ذلك لظهور روسيا قوية على مسرح الحوادث ثم تدخلها هى والدول الاوروبيةمن من بعد ذلك فى شئون الشرق الأوسط والاستيلاء على كثير من أراضيه .

وكان من أخطاء الصفويين كذلك استجابتهم للأوربيين الذين عملوا على دفعهم لحرب العثمانيين وكان فى حوزتهم مساحات كثيرة من الأراضى الأوربية .

وفى عهد الشاه عباس الأكبرالصفوى شهدت بلاد فارس نهضة عظيمة فى صناعة البسط (السجاد) والقيشانى

نادرشاه الأفشارى :

وحين هان شأن الصفويين رقى العرش عام ١١٤٩ هـ قائد من قوادهم يدعى نادر شاه وكان على مقدرة حربية فائقة واستطاع سلطان فارس الجديد هذا أن ينتصر على العثمانيين فى عدة مواقع ، كما حمل الروس على الجلاء عن إقليمى جيلان ومازندران، وكانوا قد استولوا عليها أيام الصفويين .

واجتاح نادرشاه من بعد ذلك إقليمى بخارى وخيوة ، كما نفذ من بلاد الأفغان إلى الهند فاجتاح الشمال الهندى حتى بلغ دهلى ، قصبة الدولة الإسلامية هناك فنخرّ بها واستولى على أموال طائلة بها ، كما استحوذ على عرش الطاووس بها وانتزعه من أصحابه سلاطين الدولة المغولية هناك وكانوا من سلالة



(ايران (بلاد فارس))

تيمور لنك وكانت الكنوز الهندية التى استولى عليها نادر شاه هناك من الضخامة ما جعله يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان بلاده لمدة سنوات . وعمل نادر شاه على الحد من الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ودعى فى هذا السبيل إلى عقد مؤتمر للتقريب بينهم فى بغداد ولكنه لم يوفق فى ذلك .

وحين قتل نادرشاه بتدبير من القاجاريين فى جيشه ، سارعت الفرق الأفغانية التى كانت ضمن قوات فارس بالعودة إلى بلادها . وهناك نودى بقائدها أميراً على بلاده باسم أحمد شاه الأبدالى الدورانى فكانت دولته هى أول دولة فى التاريخ تعرف باسم الدولة الأفغانية . وظلت أفغانستان منذ ذلك الوقت قلعة الاسلام الشامخة وحصنه الحصين وسط آسيا ترد عنها كل مستعمر ،وفيهم البريطانيين والروس فى تصميم وضراوة وعنف .

القاجاريون :

كان القاجاريون أعظم القبائل الايرانية التركية التى ساندت الدولة الصفوية طوال حكمها الذى استمر أكثر من قرنين . وما أن قضوا على نادرشاه غيلة حتى دخل زعيمهم أقا محمد خان العاصمة طهران عام ١٧٧٩م ثم انطلق بقواته فأخضع القبائل الايرانية الأخرى لسلطانه ومنهم الزنديون فى الجنوب والأفشاريون فى الشمال .

وفى أيام خلفه فتح على شاه صارت بلاد الفرس مسرحاً للصراع بين كل من فرنسا وروسيا وبريطانيا . ففرنسا أيام نابليون بونابرت كانت تريد أن تتخذ من إيران جسراً تنفذ منه إلى الهند لتقضى على كل نفوذ البريطانيين هناك. أما بريطانيا فكانت ترى أنها بسيطرتها على شواطىء إيران التى تطل على بحر العرب تبلغ إلى تأمين طرق مواصلاتها إلى الهند تلك البلاد الغنية التى كانت تعمل على الاستيلاء على ثرواتها وخيراتها العميمة ، فى حين كانت روسيا تطمع فى شق طريق لها الى جنوب ايران .

وتم للروس بالفعل الاستيلاء على قدر من الأراضى الإيرانية فى الشمال من ناحية تركستان، كما قبل شاه فارس قدوم بعثة بريطانية إلى بلاده بدعوى تنظيم جيشه. وحين حاول الشاه الفارسى طرد الروس، من الأراضى التى دخلوها، أصيب بهزيمة شديدة أقر لهم من بعدها بامتيازات سياسية جديدة ومنها حق محاكمة رعايا القيصر أمام محاكم روسيا فقط.

وفى عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٨ — ١٨٩٦م) حصل البريطانيون على مزيد من الامتيازات التجارية ومنها احتكار الطباق (الدخان) غير أن رجال الدين عارضوا هذا الاتفاق الأخير وساندوا الشعب فى ثورته عليه حتى عدلت الدولة عنه. هذا كما تخطف الإنجليز كذلك بعض الأراضى التى تجاور مستعمرتهم بلوخستان شرقى إيران وضموها إليها، فى حين سقط الروس على مساحات أخرى جديدة، وكان هؤلاء قد انطلقوا فى زحفهم وسط آسيا وبدأوا يتوغلون فى تركستان.

وفى زمان هذا الشاه اشتد نشاط حركة البابية. وزعيم هذا المذهب وهو ميرزا على محمد كان يتلقب بالباب، إشارة إلى أنه الباب إلى الحياة الروحية الخالصة بزعمه. وتعرف هذه الدعوة أيضاً بالبهائية. وهى دعوة لا تعترف بدين من الأديان بل تزعم أنها ترمى إلى توحيد أصحاب العقائد جميعا تحت رايتها.

وقضى على هذه الدعوى وصاحبها عام ١٨٥٠ م وقتل أربعون ألفا من أتباعها هناك.

وكان ناصر الدين هذا هو أول حاكم فارسى يزور الدول الأوربية. وقد أغرم بمظاهر الحضارة الأوروبية ومال إلى إقتباس بلاده لقدر منها، لكنه تردد فى إرسال البعوث من طلاب فارس إلى هناك، كما عارض الحركة التحررية التى قام يدعو

اليها ببلاده ، وببلاده الشرق كله فيما بعد ، الزعيم المشهور جمال الدين الأفغانى حتى أرغم ذلك الزعيم على مغادرة فارس وأغتيل ناصر الدين شاه عام ١٨٩٦م . ونهج الشاه مظهر الدين (١٨٩٧ — ١٩٠٦م) نهج سلفه فى رحلاته إلى أوربا وانفق فى ذلك أموالا كثيرة حتى اضطر إلى عقد قروض خارجية مع روسيا لتغطية نفقاته هذه مما أشاع الاضطراب فى مالية الدولة . وفى عهده اتفقت روسيا وبريطانيا على أن يكون للأولى نفوذها فى الشمال وللثانية استغلالها فى الجنوب .

وقويت فى عهد مظفر الدين كذلك حركة المطالبين بالحياة الديموقراطية حتى اضطر على كره منه إلى إعلان الدستور وقيام الحكم النيابى فى أغسطس عام ١٩٠٦ على أن خلفه محمد على شاه سرعان ما ألغى هذا الدستور وحل البرلمان بمساعدة الروس مما أدى إلى قيام الثورة بالبلاد ومهاجمة الثوار لمقر الشاه نفسه. وقد لجأ محمد على شاه إلى السفارة الروسية أولا هربا من غضبة الشعب ثم غادر البلاد نهائيا إلى روسيا . وحاول استرداد عرشه من بعد ذلك ولكنه فشل .

وما إن خرجت بريطانيا منتصرة عقب الحرب العالمية الأولى ، وكانت روسيا قد قامت فيها الثورة البلشفية فشغلت بها عما عداها ، حتى أرغم الانجليز إيران على قبول معاهدة خولت لهم السيطرة على الجيش الايرانى وصارت بها مالية البلاد تخضع لرقابتهم .

فعلت بريطانيا ذلك فى الوقت الذى كانت تعمل فيه على تشديد قبضتها على وادى النيل والعراق والهند وتمزيق أراضى الدولة العثمانية مقر الخلافة. فاذا بشعوب هذه البلاد جميعا تهب فى وجهها وتطالب بخروج قوات الاحتلال البريطانية من أراضيها وترفض كل ما كان يعرض عليها من معاهدات ظاهرها الاعتراف بالاستقلال وحقيقتها وواقعها الاقرار بحماية بريطانية مقنعة .

رضا شاه بهلوی :

فى ذلك الوقت ــ عام ١٩٢١ ــ ظهر بإيران زعيم قوى الشكيمة هو الضابط رضا خان الذى تولى العرش فيها بعد باسم رضا شاه بهلوى . وهو والد شاه إيران الحالى . وهو ينحدر من أسرة كان أغلب رجالها من العسكريين .

ودخل هو نفسه الجيش فأخذ يتدرج من أول مراتب الجندية حتى بلغ مرتبة القيادة . ورأى ذلك الضابط القدير بلاده يتنازع النفوذ فيها البلاشفة الروس والمستعمرون البريطانيون ، وحاكم البلاد الشرعى الشاه أحمد القاجارى الضعيف فى شغل بمتعه ومصالحه الخاصة عن ذلك كله، ورجالات الدولة يتهافتون على مناصب الوزراء فى ظل هؤلاء وأولئك من المستعمرين، وهم فى سبيل ذلك يحاولون تسخير الجيش لخدمة أغراضهم .

كان ذلك كله يجرى فى وقت يغلى فيه وادى النيل بالثورة على البريطانيين ، والعصيان المدنى يسود الهند ، ومقاومة المستعمرين فى كل شبر بالعراق ، ومصطفى كمال (أتاتورك) يقود الشعب التركى فى الأناضول فى حرب ضارية لطرد جنود العصبة الاستعمارية ــ من اليونانيين والبريطانيين ومن ورائهم الفرنسيين والطليان ــ من بلاده ، وأمان الله خان يؤمن استقلال البلاد الأفغانية بقوة السلاح .

واستطاع رضا خان أن يجمع من حوله فريقاً من كبار رجال جيش إيران انطلق يعمل معهم على تحرير بلاده من الروس والبريطانيين على السواء . هنالك تقدم السوفييت يخطبون ود هؤلاء الأحرار فاعترفوا لهم باستقلال بلادهم وتنازلوا لهم عن كافة الأراضى الايرانية التى كانت فى حوزة روسيا منذ القرن التاسع عشر بل وكذلك كل الديون القديمة التى كانت روسيا تطالب بها فضلا عن كثير من المعونات الأخرى التى وعدوا بتقديمها إلى ايران .

بإزاء ذلك لم ير البريطانيون مناصا من أن يعلنوا بدورهم قرار إجلاء قواتهم كلها عن إيران ونقل قاعدتهم العسكرية إلى البحرين .

ورابط الروس عند الحدود الشمالية وفى آمالهم أن تقوم بإيران حكومة شيوعية فى حين أخذ البريطانيون — وهم أصحاب امتياز منابع الزيت (البترول) فى عبدان بإقليم خوزستان (الأهواز) — يعملون على كسب أنصار لهم بين السياسيين بإيران .

وأفلح هؤلاء المستعمرون فى دفع بعض العشائر الإيرانية إلى إشعال نار الفتنة فى أماكن متفرقة بإيران وأخطر هذه المواقع كانت خوزستان ،وهى التى تعرف كذلك بعربستان وتضم أضخم آبار الزيت الايرانية .

وبتحريض من البريطانيين اتحد الشيخ خزعل زعيم تلك المنطقة مع البختيارية، أقوى القبائل هناك وأغناها،وراحوا جميعا يعارضون رضا خان وينادون بالانفصال عن إيران كلها .

ولم تكن نوايا الاستعمار وخططه لتخفى على زعيم إيران الجديد ، فبذل جهده فى إعادة تنظيم جيشه ومده بالأسلحة الحديثة ثم انطلق من بعد ذلك الى مناطق الفتن ببلادة فقضى على كافة الاضطرابات هناك وأقر الامور بها .

واستقر اتجاه الرأى العام من بعد ذلك على التخلص من الأسرة المالكة القاجارية . ونادى فريق من الإيرانيين بضرورة الأخذ بالنظام الجمهورى فى حين رأى فريق آخر الابقاء على النظام الملكى فى حد ذاته بعد التخلص من القاجاريين .

ورجحت كفة الفريق الثانى ، فخلع السلطان أحمد آخر القاجاريين وكان قد غادر بلاده من قبل ذلك الى فرنسا ، ونودى فى ديسمبر من عام ١٩٢٥م برضا خان شاها على ايران باسم رضا شاه بهلوى .

وبهمة رضا شاه شهدت ايران اصلاحات عديـــدة وأفادت من جملة من

المشروعات النافعة ، ومنها إصلاح الجيش والتعليم والإدارة ومد جملة من الخطوط الحديدية ، وأهمها ذلك الخط الذى يربط الشمال بالجنوب وكانت روسيا وإنجلترا تعارضان تنفيذ هذا المشروع على الدوام .

وإلى جانب إنعاش شاه إيران الجديد لاقتصاديات البلاد فقد توصل كذلك عام ١٩٢٨م إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية تلك التى كان يعانى منها أغلب بلاد الشرق، وكان من نصوصها أن لا يحاكم الأجانب عما يرتكبون من جرائم إلا أمام محاكم أو قضاة من جنسهم ، وبهذا كان يتاح لهؤلاء الدخلاء العبث باقتصاديات البلاد والاعتداء على حرماتها كلما أرادوا دون وازع أورادع فعّال .

وعمل رضا شاه على توثيق علاقاته مع جيرانه حتى انتهت جهوده عام ١٩٣٥م إلى عقد ميثاق سعد آباد بين إيران وتركيا وأفغانستان أى بين البلاد الإسلامية التى كانت تتمتع باستقلال حقيقى فى الواقع ، وانضمت اليه العراق فيما بعد حين أخذت الانتفاضات الوطنية تتوالى فيها . وقد رأى البريطانيون على الخصوص فى هذا الميثاق مايهدد مصالحهم الاستعمارية فى الشرق ، وأدركوا خطورة هذه الجبهة ، فلم يقعدوا عن محاولة السيطرة عليها بشتى الطرق ، حتى تم لهم إنشاء حلف بغداد لصالحهم بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الثانية، وإن قضى على آمالهم فيها انتفاضات القومية العربية الجبارة فى قلب المنطقة من بعد ذلك .

كذلك أعلن رضا شاه عام ١٩٣٢ إلغاء الاتفاق القديم الذى أبرمته الحكومات السابقة مع شركة الزيت الإنجليزية التى تستغل آباره فى عبدان ، وكانت البحرية البريطانية نفسها تساهم فيها بثلاثمائة مليون من الجنيهات الاسترلينية . وبرغم محاولة بريطانيا أن تثير هذه المسألة فى عصبة الأمم إذ ذاك ، فقد نجح شاه إيران فى أن يحمل الشركة البريطانية على تعديل اتفاقها مع الحكومة بما يكفل صيانة مصالح إيران المادية والأدبية .

وحين اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية أعلن رضا شاه أنه يلتزم موقف الحياد بين الجبهات المشتركة فى القتال ، ولكن ذلك لم يرض الروس والانجليز ومعهم أمريكا فهاجموا بلاده بوارجهم ومدافعهم ، وانتهى القتال الذى استمات فيه الايرانيون فى الدفاع عن بلادهم إلى استسلام الشاه نفسه فنفوه إلى جنوب افريقية وبقى هناك حتى مات عام ١٩٤٤ . وخلفه ابنه محمد رضا بهلوى شاه ايران الحالى. وظلت ايران تعد من مناطق النفوذ الأمريكى المهمة ، ذلك النفوذ الذى ما فتىء الشعب هناك يعلن سخطه عليه ومقاومته له ما أتيحت له الفرصة وواتته الظروف ، حتى استطاع الشاه الحالى محمد رضا بهلوى آخر الأمر أن يحقق لبلاده كل مقومات الاستقلال السياسى والاقتصادى على السواء .

٣

بـــلاد

ماوراء النهر

اقليم بخارى الكبرى او التركستان

عصر ما قبل الاسلام

بلاد ما وراء النهر التى تعرف أيضا باسم التركستان ، وتشتهر كذلك باسم إقليم بخارى الكبرى ، هى تلك المنطقة التى تضم أقاليم سيحون وجيحون ، بآسيا الوسطى وكانت تمتد فى بعض الأوقات حتى تشمل أجزاء من خراسان .

ويقترن تاريخ بخارى الكبرى فى أوله بقصة أسطورية تقول بأن هذا الإقليم كان فى زمن قديم خواء تسوده البرك والمستنقعات وفيها الغاب والأحراش ، أما أنهارها وغدرانها فكانت جمداً يذوب فى الصيف فيغمر كل أراضى الإقليم الواطئة . ولم تكن هذه الأراضى تصلح للزراعة ولكنها كانت بركة على الصيادين والسماكين الذين كانوا يقدمون اليها من أقصى التركستان ، ثم ما لبثوا بالتدريج أن أقاموا فيها واختاروا لهم أميرا من بينهم يدعى « أبرزى » وعرف مقامه باسم (بيقند) أى مدينة الأمير ، فلم تكن مدينة بخارى حاضرة الاقليم فيما بعد قد قامت . وكان من أثر استبداد أبرزى هذا أن نزحت عنه أعيان الاقليم إلى الشمال حيث بنوا مدينة عرفت باسم « جمكند » أى المدينة الطيبة الجميلة . أما عامة القوم فقد استعدوا عليه الأمير التركى فى المنطقة التى تجاورهم وكان يدعى « قراجورين» فبعث اليهم بجيش عليه ابنه « شركشور » أوقع أبرزى فى أسره ثم قتله صبرا . وعند ذاك عاد أصحاب الاقليم إلى بلادهم من جديد وجعلوا من أنفسهم طبقة نبيلة عرفت باسم « الخُـدات » ويقال إن شركشور هذا قد حكم قرابة ثلاثين عاما وخلفه من بعده أمير اقترن بابنة إمبراطور الصين التى كانت قد أتت معها بجملة أوثان ذهبية كجزء من صداقها . وتقول الرواية من بعد ذلك إن حاكم بخارى الذى كان يعاصر ظهور الإسلام كان يدعى « بندون » وقد خلد اسمه بتشييده للقلعة التى كان قد أقامها أفراسياب أوسياوش ابن كيكاوس فى رواية

أخرى ، وكان سياوش هذا قد هرب من إيران لجاء بخارى حيث كرمه أفراسياب وزف إبنته إليه .

وكان « بندون » قد حفر اسمه على لوحة حديدية ثبتها على بوابة القلعة وقد بقي هذا الشاهد فى مكانه أكثر من خمسمائة عام .

وترك « بندون » من بعده ولدا يدعى « طغشاده » وكان صغير السن فانفرد بشئون الملك زوجة لبندون كانت تدعى « خاتون » حكمت ما يقرب من خمسين عاما ، وقد قدم العرب إلى تلك البلاد فى عهدها ، وكانت على حصافة وحزم ، وكانت هذه السيدة تقصد كل يوم عند الشروق بوابة ريغستان فتجلس فوق عرش ومن حولها رجال الدولة والأعيان فتجرى العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها فى مجلسها هذا كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب ومعهم سيوفهم الذهبية ، وكان هؤلاء يستبدلون بغيرهم كل يوم . وهذه السيدة هى آخر من كان يحكم بالفعل فى بخارى فقد أبقى المسلمون من بعد ذلك لأمراء بخارى ألقابهم دون النفوذ والسلطان .

هذا وكان طغشاده بدوره قد استطاع أن يحتفظ لنفسه بقدر من النفوذ مدة ثلاثين عاما ذلك بعد أن اعتنق الإسلام وحارب الترك الوثنيين لصالح العرب . وترك طغشاده هذا ولدا له كان قد سماه « قتيبة » تيمنا باسم القائد العربى المشهور وقد خلف أباه على عرشه . وكان يمارس سلطانه فى الوقت الذى كان يقوم فيه أبو مسلم بدعوته فى خراسان . وقد قتل قتيبة هذا بتهمة بالزندقة بعد أن اكتشف المسلمون ممارسته لطقوس المجوس فى الخفاء . وسار ابنه ، وكان يدعى « بنيات » على نهجه ، إذ أظهر أول الأمر تمسكه بالإسلام ثم جهر من بعد ذلك بتعلقه بدينه القديم حتى صار من أعظم أنصار المقنع دعى النبوة الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد تفصيلا .

وحين بلغ مسامع الخليفة المهدى أمر ارتداد صاحب بخارى أمر بتسيير الجند إليه فقتلوه . ولا يصل إلينا من بعد هذا الحادث شيئا بالكاد عن الحكام القدامى فى بخارى . هذا وكان الإغريق قد سمعوا عن وجود الحياة المتحضرة فى آسيا الوسطى وقيام دول قوية هناك بالتالى وذلك قبل زحف الاسكندر بزمن طويل ، ولعلهم كانوا قد سمعوا بذلك فى بلاط الأكمينيين .

وهذا والمعروف كذلك أن زرادشت كان قد لاذ بدينه الجديد باقليم « بقتيريا » بعد أن رفض مواطنوه فى آذربيجان الاستجابة له . ومن هذا الاقليم « بقتيريا » نفذت عبادة النار إلى الصغد وخوارزم القديمة وانتشرت فيهما . ومن معبد نوبهار ، وهو الذى يذكره المقدسى بأن أسرة البرامكة كانوا يقومون بالسدانة فيه قبل هجرتهم إلى بغداد ، حملت أنوار المذهب الجديد إلى فارس القديمة وميديا . وهكذا نجد مهد الملحمة ، التى تؤرخ إيران القديمة والتى حاول تصنيفها حمزة الأصفهانى والشاعر الدقيقى ثم أتمها الفردوسى فيما بعد ، نجد مهد هذه الملحمة هو غرب فارس وجنوبها لا شرقيها . وقدم الحضارة البعيد فى هذه الأمصار يؤكده لنا بطريقة قاطعة الكاتب العربى أبو الريحان البيرونى ، وهو من أبناء آسيا الوسطى ، وهو الباحث الناقد الوحيد فى تاريخ آسيا القديم .

هذا وكان الايرانيون هم أصحاب الفضل فى نشر الثقافة القديمة فى تلك المناطق، مناطق بخارى ، ما وسعتهم الأرض هناك فاستقروا فيها وبعدوا عن خطر غارات التورانيين . كذلك من الثابت المعروف أن تجارة الحرير التى كانت تقوم بين إمبراطورية الصين وروما أيام أغسطس كان يضطلع بها أهل بخارى والصغد فيسيرون بقوافل الحرير العظيم عبر الامبراطورية الساسانية إلى شرق الامبراطورية الرومانية . فضلا عما كانوا يمارسونه من نشاط صناعى وزراعى فى تلك المناطق، ذلك النشاط الذى وجده العرب قائما هناك .

ونتبه هنا إلى أن العرق الايرانى كان منذ العصور الأولى يلتحم مع جماعات التورانيين لا سيما بعد أن يستقر الايرانيون على ضفاف جيحون وسيحون . فى حين كان بدو الترك يقيمون عند آخر مناطق الحضارة إلى الشمال من بلاد الشاش التى تعرف باسم ججج ، ويذكرهم البلخى باسم « الغز » . ومن هؤلاء الغز من تدفقوا حتى حدود الهند وحتى بقتيريا . ويقال إنهم أقاموا لهم دولة على أنقاض بقتيريا الاغريقية استمرت حتى منتصف القرن السادس الميلادى . ويؤيد بعض المؤرخين وجودهم هناك مستشهداً بكلمة « بلخ » . وبلخ هذه ليست إلا بالق أو بالخ وهى اللفظة التى كان يعرف بها الترك مقر أميرهم . وقد فعل المغول مثل ذلك من بعد فكانوا يدعون مقر خانهم الأعظم « خان بالق » .

أما عن أحوال سكان آسيا الوسطى الدينية الأولى فقد أشرنا من قبل إلى انتشار الزرادشتية فى تلك المناطق . وقد بلغت هذه منازل الترك عند تيان شان وبحر آرال . والمعروف أن الزرادشتية قد تعرضت لكبوة شديدة فجر التاريخ ببلاد ما وراء النهر وذلك بانتشار البدُهية القادمة من الهند وهو أمر ترى ذكره واضحا فى قصص الشاهنامه .

وفى الغالب أن النضال بين البدُهية والزردشتية فى بلاد ما وراء النهر اتخذ صورته بين عرقين هما : التورانيون والايرانيون . ونحن لا نعلم التاريخ بالضبط الذى أطلق فيه الاسم التورانى بخارى على المدينة الايرانية القديمة « جموكت » . ذلك أن بخار لا يزال حتى اليوم علما تورانيا على الدين أو المعبد البدهى . . (البوذى) . وعلى ضوء ما كان من انتشار نفوذ الصين بين ترك الشمال فيما بين جوبى وبحر قزوين ، ذلك النفوذ الذى كان يقوم قبل المسيح ، لنا أن نستنتج أن العقائد البدهية قد وجدت لها أتباعا عند زرفشان فى القرون الميلادية الأولى . وقد يتصل هذا بما سبق أن أشرنا إليه نقلا عن النرشخى عن ابنة امبراطور الصين وما ضم صداقها من أوثان ذهبية . ولا ننسى كذلك أن نشير إلى تقرير جوآ بين بوذيين

هما : « فاهيان وهيون سنغ » عن إزدهار البدهية (البوذية) فى التركستان الشرقية فى القرن الخامس الميلادى وما شاهده المسلمون أول فتحهم لتلك البلاد من نشاط البدهية وما كان فى معابدها من أوثان ذهبية عظيمة الحجم لها عيون من الجواهر.. وعلى ما يذكر النرشخى فقد كان يقوم ببخارى كل عام حتى بعد الإسلام سوقان كبيران للدمى والصور . ويرى الكاتب العربى أن مرد ذلك إلى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يعبدون الأوثان إذ كانوا يشترون أوثانهم من هذه الأسواق وكذلك كان للمسيحية بعض النشاط قبل الإسلام وكان معتنقوها يعرفون فى مناطق بلاد ما وراء النهر بالكشكوشان ، وكانوا يشتغلون بالتجارة . وقد حاول هؤلاء النصارى أيام حكم المغول البدهيين « البوذيين » أن يستعدوا هؤلاء الهمج على مواطنيهم المسلمين .

هذا وبالرغم من اتصال الحروب بين الساسانيين والبيزنطيين قبل الإسلام — الأمر الذى استطعنا من خلاله الوقوف على كثير من العلائق والأحداث التاريخية فى تلك المناطق - إلا أن تلك المادة التاريخية لا تشكل حجماً كبيراً . فكل ما نعلمه أن بهرام الخامس تحارب مع خان الترك الذى كان قد اندفع إلى خراسان محاربا ثم لحقت به الهزيمة فتراجع إلى ما وراء جيحون كذلك وقعت الحرب بين بيروز (فيروز) وهو كسرى إبرويز وأمير تركى يسميه الفرس خوشنواز . وتذهب الرواية إلى أن الأمير التركى كان قد ساعد إبرويز فى ارتقاء العرش ولكن الشاه الفارسى قابل ذلك بمهاجمة بلاد ما وراء النهر ، وحين نزلت الهزيمة عفا خوشنواز عنه وكرمه وعاود الملك الساسانى محاولته ثانية فخسر حياته وجيشه . وما يصلنا من بعد ذلك من أخبار تلك البلاد نذكره نقلا عن النرشخى والطبرى بأن أفراد من الترخانيين كانوا يحكمون فى بيكند وسمرقند وفرغانة عند قدوم العرب . ويبدو أن هؤلاء الأمراء الترخانيين كانوا على تعاون معاً . ذلك أن ترخان السمرقندى حين اشتبك فى الحرب مع قتيبة سارع إلى نجدته أمراء من بنى جنسه ممن كانوا يحكمون فى تركستان وفرغانة والثابت المؤكد على كل حال أن الترك كانوا

فى القرنين السادس والسابع الميلاديين يسودون مناطق كثيرة فى بلاد ما وراء النهر . وكانت جموع من بنى جنسهم تتوالى من الشمال . وكانت هذه كفيلة بدفع السكان الايرانيين الأصليين فى دائرة نفوذ الترك الخالصة لولا ظهور المسلمين العرب فاتحين على مسرح التاريخ ، أولئك الذين أحدثوا بفتوحاتهم انقلاباً ساد أكثر من نصف القارة الآسيوية المترامية الأطراف فضلا عن مناطق واسعة أخرى بافريقية .

غزوات العرب وانتشار الاسلام

٤٦ - ٩٦ هـ (٦٦٦ م - ٧١٤ م)

خرج العرب المسلمون منذ عهد أول الخلفاء الراشدين للفتوح فلم يمض إلا القليل أو بعبارة أدق لم ينتصف القرن الأول الهجرى إلا وكانت كتائبهم المظفرة تطرق أبواب بلاد ما وراء النهر بعد أن فتحت فارس ، وقد سلكت إلى مناطق سيحون وجيحون نفس الطريق التى سلكها الإسكندر المقدونى من قبل. وما لبثت أن سقطت مدينة بلخ بأيديهم بعد أن قضوا القضاء المبرم على آخر ملوك الساسانيين، لينطلقوا من بعد ذلك إلى مناطق الصغد ذات الثراء العريض ويعودوا من هناك بكنوز وفيرة حملوها إلى دار الخلافة فى حاضرة الأمويين أى فى دمشق ، فاذا بمعاوية يبعث من جديد منتصف القرن بجيش عليه عبيد الله بن زياد وجهته بخارى ، وإذا بعبيد الله هذا يفتح فى طريقه مدينة بيقند ذات المركز التجارى الممتاز والتى كان منها تُدار ما حولها من بلدان ، ثم يصل إلى بخارى ومعه غنائمه فيبلغها أواخر عام ٥٣ هـ (٦٧٢ م) ، وإذا بصاحبتها الملكة خاتون تستنجد بجيرانها الأتراك على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ولقد تغلب عبيد الله على أعدائه ولكنه لم يلبث هناك طويلا حتى يتم له إخضاع بخارى فرجع إلى مرو ومعه كنوز وأسلحة من بينها نعال للملكة رصعت بالحجارة الكريمة ، وقد صالحته تلك الملكة على جزية مقدارها ألف ألف درهم . وعاد العرب المسلمون من جديد إلى بخارى بعد سنوات ثلاث فأقروا الأمور بها ثم اتجهوا إلى الصغد وسمرقند . وكان على سمرقند إذ ذاك ترخان يعرف باسم « ترخان الصغد » ، فتغلبوا عليه ثم عادوا إلى بلادهم ، فاذا بخارى تعود فى تلك

الفترة إلى العصيان من جديد وقد شجعها على ذلك قدوم جموع كثيفة من الترك الشمالية لعونها . وقد انتهى القتال بهزيمة هؤلاء الترك . وبلغ من كثرة الغنائم أن خص كل جندى منها ما يقوم بعشرة آلاف درهم على أن الأمر لم يستقر فى تلك المناطق إلا بظهور قتيبة بن مسلم ذلك القائد الشجاع الذى يرد إليه الفضل فى القضاء على الوثنية الايرانية فى تلك المناطق وغرس تعاليم النبى العربى فى وديان تيان شان المترامية الأطراف . فقد أمر الحجاج قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر فولج تلك المناطق ومن أعظم أهدافه نشر الإسلام فيها ، ويشهد له فى ذلك المؤرخون بمنعه لجنده دواماً عن ارتكاب السلب والنهب .

ولقد سار قتيبة من مرو إلى بلخ ثم اتجه إلى بيكند فسقطت فى يده بعد قتال عنيف ففتح بذلك الباب الجنوبى الغربى لبلاد ما وراء النهر . وأخذ من بعد ذلك يتقدم حذراً فى تؤدة برغم انتصاراته هذه حتى لنراه لا يعمد إلى مهاجمة بخارى رأساً قبل أن يعزلها عن حلفائها . وبرغم تكاتف شيوخ الترك حتى حدود الصين، وبرغم ما كان من كثافة جندهم ، فقد استطاع قتيبة أن يثير بجواسيسه الشحناء والخلاف بين أمراء الترك هؤلاء ، فضلا عما ألقى هؤلاء الجواسيس فى روعهم من قدوم الامدادات الكبيرة إلى قتيبة فلم ينته الأمر إلى انسحاب أغلب هؤلاء الترك بقواتهم فحسب بل كان منهم من صالح العرب سراً على جزية سنوية يدفعها لهم . وبفضل هذه الخطة نجا قتيبة وجنده من خطر جسيم ظل يتهددهم أشهر أربعة . وقضى قتيبة الشتاء فى مرو وانتهى الأمر مع قتيبة إلى أن أرسخ أقدامه ببخارى ليقبل الناس من بعد ذلك هناك ليس على الدخول فى دين الله فحسب بل وعلى الذود كذلك عن تلك العقيدة الجديدة عليهم فى غيرة شديدة ، وظلوا على ذلك قرون طويلة من بعد

وانطلق قتيبة من بعد ذلك فغزا فرغانة عام ٩٥هجرية ثم توغل فى التركستان الشرقية فهاجم أمراء الأويغور وبلغ ولاية قانسو الصينية فى الغالب . وآب قتيبة

إلى مرو عن طريق فرغانة ، وكان ما دعاه إلى تلك العودة ما بلغه من موت الخليفة الوليد وخوفه من خلفه سليمان بن عبد الملك إذ كان سليمان هذا يكره الحجاج وشيعته كراهية شديدة . وما لبث قتيبة أن أعلن خروجه على الخليفة الجديد وإن سلك طريق الحذر فى ذلك ، فقد بعث رسول من لدنه إلى دمشق ومعه ثلاثة رسائل : الأولى يعرض فيها ولاءه ، والثانية يسخر فيها من منافسه القوى يزيد ابن المهلب ربيب الخليفة ، وفى الثالثة يعلن أنه لن يتردد فى الجهر بالخروج على الخليفة إذا ما بعث بيزيد مكانه . ووقع ما كان يخافه قتيبة . هنالك أعلن عصيانه وفى خاطره أن ما معه من الجند لن يخونه وهو الذى سار بهم فأحرزوا أعظم الانتصارات واستحوذ على الأموال الطائلة التى فرق أغلبها فيهم . ولو كان قتيبة قد استمع إلى نصح أخيه عبد الرحمن بالمسير إلى بلاد ما وراء النهر وإقامة ملك مستقل له هنالك لأفاد من روح التمرد وحب المغامرة التى كانت تسود سكان تلك البقاع . وما لبث فريق من قواده أن تآمروا عليه وقتلوه مع أغلب إخوته .

وهكذا سقط فى شهر ذى الحجة من عام ٩٦ هـ ، وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، ذلك القائد الفذ الذى أقام للاسلام دولة عظيمة فى أقصى الشرق وأجهز الاجهاز التام على دين زرادشت ، ذلك الدين الذى اثخنته الجراح فى القادسية والنهروان، والذى غرس تعاليم الاسلام فى ارض صارت لقرون طويلة أخصب البقاع حمية لدين الله وتحمساً لنصرته .

الفتن السياسية والدينية

٩٦ — ٢٦١ هـ (٧١٤ — ٨٧٤ م)

حكم العرب فى مناطق التركستان هذه منذ أواخر القرن الأول الهجرى إلى ما بعد منتصف القرن الثالث الهجرى بقليل ، وكانت مناطق بلاد ما وراء النهر هذه تعد قسما من ولاية خراسان ، وكان الحكام الذين يولونها من قبل أصحاب دمشق أو بغداد يبعثون بنواب عنهم إلى تلك الولاية الشرقية عند أقصى حدود دولة الخلافة .. وظل الحال كذلك حتى أيام السامانيين الذين اتخذوا لهم من بخارى قصبة لهم .. وظل هذا الاقليم طوال الحكم العربى تظهر فيه الفتن متصلة فى الغالب، وكان مما شجعهم على ذلك بطبيعة الحال بعد بلادهم الشاسع عند مركز الخلافة من جهة ، وميل السكان الفطرى إلى الحروب ومناصرة كل ثائر ، من جهة أخرى . وقد حاول الخلفاء بطبيعة الحال دواماً إقرار الأمور فى هذه الأقاليم .

وتفصيل ذلك أنه بعد أن سير الخليفة سليمان بن عبد الملك قائده يزيد بن المهلب، فاتخذ مكان قتيبة ، نرى هذا القائد الحاكم الجديد يلقى فى الحبس بعمال سلفه ويشتط فى ارتكاب المظالم وجمع الثروات ، حتى استطاع الخليفة عمر بن عبد العزيز فيما بعد أن يُلقى به فى السجن . فى تلك الفترة نجد فرغانة تخرج على حكم العرب يتزعم ثورتها أمير يدعى (خـلج) ، ويحذو حذوها فى ذلك سمرقند ، ويجتمع للترك أكثر من مائة ألف رجل وينزلوا بالمسلمين هزائم شديدة وإن لم ينعموا بنصرهم هذا طويلا . وقد انتهى الأمر بإقامة نصر بن سيّار عاملا للخليفة فى سمرقند . وما لبث أن عهد بحكومة خراسان كذلك إلى نصر هذا أيام هشام بن عبد الملك وقد استطاع نصر هذا بكفاءته أن يحتفظ بمنصبه فى ظل خمسة من الخلفاء على التوالى، وهم: هشام والوليد

ويزيد الثانى وإبراهيم ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . فلم يخلع من منصبه فى الواقع إلا على يد أبى مسلم الخراسانى حين سقطت الدولة الأموية وذلك عام ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) .

وعمد نصر على إخضاع العناصر التركية ، وهى العناصر المحاربة فى تلك المناطق ، وسار فى زحفه حتى تخطى فرغانة الشرقية إلى كاشغر . وقد عرفوا عنه لين العريكة وحب العدل. وهى صفات عوقت أبا مسلم عن أن يكسب بلاد ماوراء النهر بصفه فيما بعد . هذا ونرى فى كفاحه وحربه أبى مسلم هذا أن العناصر التركية تقف فى صف أبى مسلم فى حين بقى السكان الإيرانيون وهم الذين عرفوا باسم التازيك على ولائهم للأمويين أمداً طويلا وإن لم يستطع فى الواقع نصر أن يقف فى وجه الدعاية التى كان يحذقها أبو مسلم هذا . على أن سيطره نصر بن سيار ومن بعده أبى مسلم على تلك المناطق لم تمنع من قيام هزات عنيفة فى بلاد ما وراء النهر قوى من أمرها اضطهاد الشيعة فى إيران وما حولها . وقد توسل أهل بلاد ماوراء النهر بدعوة الشيعة فى ذلك للتخلص من نفوذ العرب . وقد تجلى أول مظهر لذلك فى بخارى . وكان أول ثائر فى تلك المناطق هو شريك بن شيخ المهدى الذى دعا إلى مبايعة خليفة من صلب الإمام على . ولئن أفلحت الخلافة العباسية بفضل أبى مسلم ومن جاءوا من بعده فى القضاء على فتن الشيعة فى تركستان ، فقد ظهرت من بعد ذلك فتنة عاتية ظلت مايقرب من ربع قرن ونيرانها متأججة ، وارتوت فى سبيلها الأرض هناك بالدماء الغزيرة هذه الفتنة العارمة تتمثل فى ظهور النبى المزعوم الذى يعرف باسم « المُقنّع الخراسانى » .

كان المقنع ، أو هاشم بن حكيم كما يدعى ، من أهل غزة باقليم مرو ، وكان على ذكاء خارق ، وذاع عنه اطلاعه على معارف الأسرار وسار فيها بعدفى خدمة أبى مسلم . وفى عهد أبى مسلم قال بصفات النبوة عنده وإن لم يجهر بذلك إلا بعد

وفاة أبي مسلم حين انفلتت أزمة النظام فى خراسان . على أن المقنع مالبث أن قبض عليه وسير إلى بغداد . ثم عاد من هناك فجمع من حوله بقايا اتباعه القدماء. وراح يعمل فى حماس بالغ ، ونادى بأنه هو رب العالمين ظهر فيما مضى فى صورة آدم وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبي مسلم، وأن هؤلاء جميعاً بلغوا درجة النبوة فقط فى حين بلغ هو درجة الربوبية ، وذلك لأنهم متجسدين أما هو فروحانى يتخذ الصورة التى تتراءى له . وسير دعاته إلى التركستان يدعون الناس للدخول فى ملته وانضم إليه كثيرون ممن كانت رواسب المجوسية القديمة لاتزال تجرى فى دمائهم . وقد أمر أصحابه بلبس البياض ، وكانوا فى بخارى وسمرقند وكش ونخشب . وما لبث أن خرج المقنع من مرو وأقام مع ست وثلاثين من أتباعه المخلصين بإحدى حصون كش (شهرسبز) ، وأخذ يخفى وجهه وراء قناع أخضر ، أو ذهبى على بعض الروايات ، ومن هنا عرف بالمقنع .

وقد بقى المقنع هناك أربعة عشر عاما ، وكان يدير شئونه بواسطة نوابه الأقوياء وهم قواده . وهاجم أصحاب البياض أحد المساجد فقتلوا من به فأشاع صنيعهم هذا الفزع حتى سير إليهم أمير بخارى قوة كبيرة . وبرغم سقوط سبعمائة من أصحاب البياض قتلى فإن ذلك لم يؤثر فى رواج دعوة المقنع وانضمام عناصر أخرى تركية إليه طلبا للسلب والنهب . واستطاعت قوات الدولة أن تستولى على حصن نرشخ ، وعلى أى فإن هذا النصر لم يخفف من مخاوف الخليفة المهدى العباسى الذى أمر بتسيير جند كثيف للقضاء على المقنع وأصحابه .

وقد نجح جند الدولة فى الاستيلاء على حصن نرشخ بعد أن أحدثوا ثقباً عظيما فى سوره ، وهناك وعدوا أصحاب البياض فيه بالمعاملة الحسنة إن هم رجعوا

عن غيهم . واستسلم أغلبهم بالفعل وفيهم المقنع نفسه ولكنهم كانوا قد أخفوا بعض أسلحتهم تحت ثيابهم ، وما لبث هؤلاء على كل حال أن انقلبوا من جديد على جند الخلافة وخلصوا أنفسهم من الأسر . وهال الأمر الخليفة المهدى فبعث بنجدات جديدة إلى سمرقند . وأتيح آخر الأمر لمعاذ قائد المهدى أن يطوق مكمن المقنع بجيش قوى . وما لبث أن قدم أمير خراسان نفسه ويدعى سعيد الجرشى إلى هناك ، وإذا بأحد إخوة المقنع يستسلم له ومعه ثلاثون ألفا من الرجال . وتوالى استسلام أتباعه حتى لم يبق هناك إلا ذلك المقنع وقداعتصم بالقلعةالداخلية للحصن . وتقول الرواية إن المقنع فى أيامه الأخيرة جمع من حوله زوجاته بعد أن انصرف عنه أخلص خلصائهوسدت طرق الفرار فى وجهه ثم دعاهن للشراب ، وكان نبيذاً خلط بالسم ، فشربن منه إلا واحدة تدعى « بانوكه » سكبت الشراب فى صدر ثوبها وتظاهرت بالموت ، فكانت من بعد ذلك هى الشاهد الوحيد الحى الذى روى تفاصيل اللحظات الأخيرة للنبى المزعوم . وعلى ماروواه من يدعى أبو على محمد من أهل كِش نقلا عنها فإن المقنع بعد أن ماتت كل زوجاته قطع رأس غلامه ، وكان هو الرجل الوحيد بين خاصة خدمه ، ثم اندفع إلى موقد مستعر كانوا قد أوقدوه لثلاثة أيام خلت فلم يخرج منه أبداً .

ويقال إنه كان اطلع نساءه على ما كان قد اعتزم عليه وقال لهن أيضاً إن الغلبة ستكون له آخر الأمر بعون من الملائكة الذين سيأتى بهم معه . وكانت بانوكه هذه هى التى فتحت أبواب القلعة للقائد سعيد الجرشى نظير مبلغ كبير من المال من أموال المقنع . وبموت المقنع قضى على تلك الفتنة التى طالت سنين عديدة . والمقنع على ما يبدو كان فى عقيدته هذه يؤمن بالتناسخ متأثراً بما ورد فى ذلك عند الهنود والفرس . . وعلى ما يقول النرشخى فقد كان لايؤمن بالصلاة ، ويدعو إلى شيوعية النساء ، ويعد قتل المسلم تقرباً إلى الله .

والواقع أن الاضطرابات السياسية فى بلاد ماوراء النهر ظلت تشتعل بين حين وآخر . ففى آخر حكم الرشيد ترى رافع بن الليث حفيد نصر ابن سيار يخرج على الخليفة . والمعروف أن هارون الرشيد مات وهو فى طريقه إلى ذلك الثائر . . وفى سبيل القضاء على رافع هذا نجد المأمون بعد أن خلف أباه يخطب ود أسره السامانيين التى ظهرت من بعد ذلك فى أرض التركستان أولا وصار لها فيما بعد من الشأن العظيم حتى لتدين لها أقاليم جيحون وبخارى بأزهى عصورها .

السامانيون

٢٦١ هـ — ٢٩٥ هـ (٨٧٤ — ٩٠٧ م)

تقول الرواية عن السامانيين إن أمير خراسان ، وكان يدعى أسد بن عبدالله ، استنجد به أحد أعيان بلخ ، وكان من بقايا الزرادشتين ويدعى سامان . استعان به على عدو له كان قد أخرجه من بلده وقابل سامان صنيع حاكم خراسان ومساعدته له ، بالدخول فى الإسلام ، ثم باطلاق اسم أسد (أى اسم الأمير الخراسانى) على أول ما رزق به من الأبناء . ثم زرق هذا من بعد ذلك بأبناء أربعة هم : نوح وأحمد ويحيى والياس وكانوا جميعا من حزب العرب على ما نهج عليه أبوهم من قبل حتى أوصى المأمون بهم أمير خراسان . وتقول الرواية أيضاً إن سامان عريق النسب ينتهى أصله بهرام جوبين . وساهمت تلك الأسرة فى حرب رافع بن الليث فكافأ المـــأمون أولاد أسد ، فأقطع نوح سمرقند ، وأحمد فرغانة . ويحيى ججج (بلاد الشاش أو طشقند) وأشروسنه ، وأقطع إليـاس هراة . وحين مات نوح صارت سمرقند إلى أخيه أحمد ثم إلى ابنه نصر من بعده .. واستطاعت هذه الأسرة أن ترسخ أقدامها فى بلاد ما وراء النهر والتركستان وخراسان على ما سوف ترى من بعد .

وكان نصر بن أحمد على صفات عالية إلا أنه كان ضعيفاً كثير الشكوك وكان أخوه الأصغر اسماعيل يبذل جهده فى معـــاونته على خلاف أخيه نصر نفسه . . وبهمة اسماعيل هذا دخلت بخارى فى حوزة السامانيين فى رمضان عام ٢٦١ هـ . واشتبك اسماعيل فى موقعة كبيرة عند جيحون مع حسين بن طاهر الخوارزمى فهزمه وردّه عن بخارى . واشتبك إسماعيل فى وقائع متكررة كذلك مع أخيه نصر

انتهت بسقوط نصر فى الأسر . إلا أن أخاه وكان أصغر منه أحاطه بكل اكرام وتبجيل ورده إلى سمرقند فى إعزاز كبير وعقب موت نصر عام ٢٧٩ هـ ، بسط اسماعيل سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر . وكان اسماعيل حريصاً على ولائه للخليفة العباسى ، وكان المعتضد بالله إذ ذاك ، وإن لم يقض هذا على تشكك الخليفة نفسه إزاء أمراء الفرس والترك فى القسم الشرقى من دولته . ففى الوقت الذى كان يكتب فيه — أى الخليفة — إلى اسماعيل السامانى ، ويخلع عليه ألقاب التشريف ، بوصفه المدافع عن العقيدة ، نراه يكتب سراً فى الوقت نفسه إلى عمرو ابن الليث يحرضه على قتال اسماعيل . وقد وقعت الحرب فعلا بين الأميرين وإن دارت الدائرة على الصفارى (عمرو بن الليث) ووقع هو نفسه فى الأسر . وقد أحاطه اسماعيل بالتكريم حتى جاءت رسل المعتضد بالله تطلب من الأمير السامانى أن يبعث بأسيره إلى الخليفة إذ هو وحده له أن يعاقب المذنب ، مع أنه هو نفسه الذى حرضه على تلك الحرب . وسيق عمرو إلى بغداد حيث ألقى به فى السجن ثم قتل عام ٢٩٠ هـ . وقد بادر الخليفة على أثر ذلك بارسال البراءة إلى إسماعيل بولاية خراسان وكان عليها عمرو الذى أشرنا إليه من قبل .

ونرى اسماعيل من بعد ذلك يخرج عام ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) إلى حدوده الشمالية فى التركستان حيث كانت جموع الأتراك تتهدده . واستطاع اسماعيل أن يوقع الهزيمة بهم . وبهذه المعركة ختمت سلسلة الوقائع التى استطاع بها هذا السامانى الكبير منذ أن ولى العرش أن يضم ولايات غنية كثيرة إلى ما ورثه من ملك عند جيحون ويجعل من بلاد ما وراء النهر دولة قوية بعد أن كانت مجرد إقليم يتبع إمارة خراسان .

وشهدت بخارى أيام اسماعيل أروع عصورها إذ صارت حاضرة آسيا الوسطى كلها ، وبات صاحبها يحكم إقليما يمتد شمالا حتى مشارف صحراء آسيا الكبرى «جوبى»

وشرقا حتى وديان جبال تيان شان وجنوبا حتى الخليج الفارسى وحدود الهند الشمالية ، وغرباً إلى ما وراء العراق بمسيرة يومين من بغداد . وخضع سكان تلك المناطق كلهم ، وكانت غالبيتهم من الفرس ، لسلطان اسماعيل على اتحاد فيما بينهم . وصارت بخارى بالتالى من أهم مراكز النشاط الفكرى ونهضت الثقافة الفارسية الإسلامية مشرقة بفضل السامانيين هؤلاء . ولقد اشتهرت بخارى أيام الزرادشتيين بأنها مثابة العلوم كلها ، ثم استردت صيتها القديم فى ظل الإسلام . وأول من اشتهر بها كانوا من الفقهاء والمتصوفة ولا تزال قبورهم من أعظم المزارات حتى اليوم . ويكفيها فخراً ظهور شيخ المحدثين المسلمين الإمام أبى عبد الله البخارى صاحب جامع الصحيح أعظم مرجع للحديث فى الثقافة الإسلامية كلها ويحوى ستمائة ألف حديث . وقد أنفق صاحبه ستة عشر عاما فى جمعه وتصنيفه . ويقال إن ظهور هؤلاء الأعلام ببخارى كان من أهم العوامل التى دفعت بالأمير السامانى إلى اتخاذها حاضرة له بدلا من سمرقند ، وكان حفيا بالعلم وأهله . وقد أقام بحاضرته مدرسة ومكتبة قصدها الدارسون من كل حدب وصوب وقد حبس عليها الحبوس . وفى ظل السامانيين هؤلاء أخذت اللغة الفارسية كلغة أدبية فى الإزدهار . ومن طريف ما روى عن إجلاله لأهل العلم أن إبنه أحمد كان يجلس مع مربيه فإذا بالشيخ يثور على تلميذه ويلعنه ويلعن من أنجبه ، واسماعيل داخل عليه فى نفس اللحظة ، فاذا بالأمير يعتذر للشيخ ويهدىء من روعه ويصله . ولئن لم يستطع اسماعيل أن يقيم من المنشآت ببخارى نظير ما أقام تيمور مثلا فيما بعد بمدينة سمرقند إلا أن آثاره التى بقيت من بعده تدل بالقطع على عنايته بالعمارة . ومن هذه المنشآت « قصر ريغستان » و « قصر الموليان » وبهما نوافير ونقوش رائعة . هذا ويقال إن عدد المدارس الجامعة ببخارى كان أيام اسماعيل يزيد على كل ما بعدن شرق آسيا الإسلامية مجتمعة . وهكذا أخذت تلك المدينة ، التى تقوم على نهر زرفشان والتى غدت قلب نصف آسيا الإسلامية تقريبا ، أخذت يزيد إزدهارها ويعلو قدرها يوما بعد يوم

بوصفها عاصمة المال والعلم ومركز إنتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . . وقد توفى اسماعيل بها ، فى شهر صفر من عام ٢٩٥ هـ « ٩٠٧ م » وهو فى الحادية والستين من عمره بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاما عاهلا مستقلا فى الواقع بالقسم الشرقى من آسيا الإسلامية .

سقوط السامانيين وظهور الترك

٢٩٥—٣٩٥ ه (٩٠٧—١٠٠٤ م)

يأخذ بيت السامانيين فى الانهيار السريع من بعد اسماعيل فيما عدا ومضات قليلة تظهر من حين لآخر متمثلة فى جهود بعض أعضاء هذا البيت . . والواقع أن بلاد ماوراء النهر كانت تشهد قدراً كبيراً من الازدهار ماحزم حاكمها أمره وتمكن بالذات من كبح زمام جموع الترك فى تلك المناطق ، هؤلاء الذين انتهزوا فرصة ضعف خلفاء اسماعيل فزادوا من قوتهم حتى أخذوا بزمام الأمور فلم يقضوا على السامانيين فحسب بل وبسطوا سلطانهم على مناطق واسعة بوسط آسيا كذلك .

وخلف اسماعيل ابنه أحمد . وفيما كان فى رحلة صيد عام ٣٠١ ه (٩١٣ م) عند شواطىء سيحون جاءته الأخبار باستيلاء ثائر علوى يدعى الأطروش على طبرستان ، فأثر ذلك فيه كثيراً وقد كان أصلا يقيم فى خوف دائم من أتباعه حتى كان ينام وعلى بابه أسدان يقومان بحراسته على ماتفعل الكلاب اليوم . ونسى احتياطه هذا ذات ليلة وهو فى معسكره فاذا بخدمه ينتهزون هذه الفرصة ويغتالونه فى التو . . وخلفه من بعده ابنه الأمير نصر الثانى الذى حاول أن يعيد للدولة قدراً من الاستقرار والقوة . وقد اشتبك فى حروب مع بعض أقاربه ومع العلويين بصفة خاصة الذين كانوا قد استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى طبرستان وإلى أجزاء من خراسان . وقد نجح نصر هذا بالفعل فى الحد من نفوذ العلويين وحكم ثمانية وعشرين عاماً . وفى عهده بدأ ظهور شعراء الفرس الكبار وعلى رأسهم الرودكى . وخلفه أخوه الأكبر نوح وقد اشتبك نوح هذا فى حروب متوالية مع ركن الدولة البويهى الذى استطاع أن يدفع بالسامانيين إلى ماوراء حدودهم القديمة ببلاد ماوراء

النهر . وتوالى من بعد ذلك أمراء ضعاف على عرش السامانيين ومنهم منصور بن نوح الذى خسر مواقع حاسمة مع ألبتكين التركى وركن الدولة البويهى، واضطر نتيجة لذلك أن يصالحهما على جزية سنوية كبيرة . وقد وقع ذلك عام ٣٩١ هـ (٩٧١ م) ونتج عن ذلك كله أن استقل الزياريون فى جرجان وطبرستان، وبسط البويهيون أيديهم على العراقين .

فى ذلك الوقت يطل خطر جديد على الحكام السامانيين يتمثل فى ظهور دولة الأويغوريين بالتركستان الشرقية وعند سفوح جبال تيان شان بالذات. وإنا لنجد عند هؤلاء الأويغور أول آثار لرسوم اجتماعية وسياسية نشأت تركية خالصة . ومهد بداية اضمحلال السامانيين إلى ظهور دولة جديدة قوية لهم . فقد استطاع إيليك خان زعيمهم أن يوحدهم ليأتى من بعده بُغراخان . . (وبغراهى بقرا : أنثى الجمل) فيحمل ألوفاً من أتباعه الوثنيين ، ممن كانوا على البوذية والمسيحية ، على الدخول فى الإسلام ، وبه على ذلك يبدأ إسلام الترك الجماعى ، ثم ينطلق بهم ليغزو المناطق الغربية مما كان فى حوزة السامانيين حتى استولى على سمرقند نفسها التى تركها الأمير السامانى الضعيف أبو القاسم هارباً . ويحالف الأمير السامانى الحظ من جديد فيموت بغراخان ويعود بدوره إلى قصبة ملكه كما يقدم إليه سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية . وكان سبكتكين إذ ذاك يحكم كل المنطقة الواقعة بين غزنه وضفاف الهند ، وقد ذاع صيته بما جمعه من ثروات طائلة فى غزواته الهندية المعروفة . وغنى عن البيان أنه كان من الناحية الشكلية يعد من عمال السامانيين . فساند سبكتكين الأمير أبا القاسم السامانى فى حربه مع الثائرين عليه حتى دخل أبو القاسم بخارى دخول الظافرين ومن ثم لقب سبكتكين بناصر الدولة وابنه محمود بسيف الدولة. هذا كما دفع سبكتكين كذلك خطر إيليك خان عن ملك السامانيين، ومات أبو القاسم السامانى ، واسمه أصلا نوح بن منصور ، مات عام ٣٨٧ ، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما ، وخلفه ابنه أبو الحارث منصور ، فدخل فى نزاع مع

محمود الغزنوى أضعف من شأنه حتى أقدم أحد رجاله ويدعى بكتوزن فسمل عينيه وأجلس مكانه طفلا صغيراً من السامانيين . وأتاح هذا الاضطراب لأيليك خان التوغل فى بلاد ماوراء النهر من جديد حتى ألقى بكل من صادفه من أمراء السامانيين فى السجن وقد أمتد ملك إيليك خان هذا من داخل الصين حتى بحر الخزر . وهكذا انقرضت أسرة السامانيين عام ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) تلك الأسرة التى ظلت قرابة ونصف قرن تحكم كل آسيا الوسطى . وقد استمسك أمراؤها بحق بتعاليم الاسلام على ما كان عليه السلف الصالح، فكانت بخارى وبلخ وسمرقند هى مثابة أهل السنة. وكان هؤلاء السامانيون هم آخر أسرة إيرانية حكمت فى أرض سادتها الحضارة الإيرانية القديمة ، وقد تركوا لخلفائهم من تاتار الترك تراثاً لاينكر شأنه . وبسقوط السامانيين ساد الاضطراب بلاد ماوراء النهر وانتهى النزاع بين الترك والفرس إلى سيادة الأولين سيادة لامنازع لهم فيها ، وتجلت هذه السيادة بأظهر صورها فى نفوذ السلاجقة الجارف .

السلاجقة

٣٩٥—٥٢٨هـ (١٠٠٤—١١٣٣م)

يشتهر السلاجقة فى التاريخ بأنهم من الغُز الذين كانت منازلهم تبدأ من حدود الصين حتى شواطىء بحر الخزر على إتصال مستعمر ببلاد ماوراء النهر لاسيما مناطق التركستان الشرقية . وأصل السلاجقة يريم عليه الغموض . ويقال إن سلجوق وقومه كانوا قد نزحوا من مواطنهم ومعهم قطعانهم فاستقروا عند المشارف الجنوبية للصحراء غير بعيد من بخارى ثم دخلوا فى الإسلام على حماس شديد له ، ومالبثوا أن ناصروا السامانيين فى حربهم مع إيليك خان ، وبهذا ثبتوا أقدامهم ماوراء النهر . وعنى سلجوق بحفيديه طغرل وجغرى فنشأهم تنشئة عسكرية ليراهم فيما بعد يشتبكون فى حروب متلاحقة مع أقدر أمراء آسيا الوسطى إذ ذاك من أمثال إيليك خان فى بخارى وبغراخان فى كاشغر . وتزايدت قوة السلاجقة حتى خشى محمود الغزنوى بأسهم . ثم نجدهم من بعد ذلك أيام مسعود بن محمود يضعون أيديهم على خراسان وقد استجاب لهم سكان مرو حين أدركوا قوتهم ورحبوا بهم ولم تنفع معهم جهود مسعود لاسترداد ذلك الاقليم . وقد هزموه عند دامغان فى معركة حاسمة « داندانقان » لاذ مسعود من بعدها بالفرار إلى غزنه ، وقد وافاه أجله بعد ذلك بقليل .

وبرسوخ أقدام هذين الأخوين فى خراسان وُضع الأساس بقوة لمستقبل مزدهر مكين لبنى قومهم دون أن يجرؤ أحد على التعرض لهم . وأقوى مراكز السلاجقة كانت فى بلخ شرقاً ونيسابور غربا ومالبثوا أن استولوا على خوارزم واندفعوا إلى أذربيجان فقضوا على بقايا البويهيين بها . ونفذ طغرل بك إلى قلب الامبراطورية البيزنطية . ومالبث أن تقدم إلى بغداد حيث أعلن خضوعه للخليفة ، وأوقع بالملك الرحيم الديلمى وأجلس القائم بأمر الله على عرش

أجداده خلفاء بنى العباس عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) . وفى هذا العام انطلق وراء عمه الثائر إبراهيم إينال . وصحبه فى حملته هذه ألب أرسلان ابن جغرى بك الذى كان قد مات بموطنه قبل ذلك بقليل . وما أن انتهى من ذلك حتى عاد إلى بغداد فأطلق سراح القائم بأمر الله من سجنه إذ كان قد ألقى فيه وأعاده إلى العرش من جديد . ونشير هنا إلى أنه فى أول لقاء بين طغرل والخليفة ظهر الخليفة العباسى وقد أسدل نقاباً على وجهه ، وقباء العباسيين الأسود على كتفيه وفى يده راية الرسول . وقد بعث هذا المظهر هيبة شديدة فى قلب طغرل فتقدم إلى الخليفة خاشعاً فى خضوع وقنع بتقبيل يده فحسب . وما لبث طغرل أن اكتشف ضعف الخلافة حتى اضطر الخليفة إلى أن يقبل تزويجه من إبنته برغم فارق السن الكبير . وفيما كان طغرل يعد العدة لزواجه هذا وافاه أجله عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وكان فى السبعين من عمره والعام السادس والعشرين من حكمه . وخلفه ألب أرسلان وكان جندياً كفؤاً . وهو أول تركى قاد فرسانه عبر الفرات وأخضع أراضى غرب آسيا النصرانية لحكم الجنس الذى لايزال يسيطر عليها حتى اليوم . وتقول الرواية بأن القيصر البيزنطى رومانوس دياجينس كان قد بلغ به الغرور إلى أن أعلن عن عزمه بأن يغرس الصليب المقدس فى قلب مدينة الإسلام الكبرى حاضرة الخلافة ويحرق كل المصاحف ولا يرجع عن زحفه حتى يبلغ سمرقند . ولم يستطع جند بيزنطة ومعهم الفرنجة والنورمان أن يثبتوا أمام عنف محاربى الترك ، ووقع القيصر رومانوس نفسه فى الأسر . وقد عامل ألب أرسلان خصمه وأسيره فى شهامة زائدة . وقد تزوج ملكشاه بن ألب أرسلان من إبنة رومانوس هذا .

وكانت هزيمة الرومان هذه فاتحة لسلسلة طويلة من الانتصارات التركية على الدولة البيزنطية بلغت غايتها بعد ذلك بخمسمائة عام بالاستيلاء على القسطنطينية . وأرغم ألب أرسلان عدوه على دفع الجزية له ثم عاد من بعد ذلك إلى عاصمته ، وهناك استقبل حال وصوله إبنة خاقان سمرقند الأكبر حيث زفت كذلك إلى إبنه ملكشاه . وهناك نصيب كذلك ملكشاه وليا للعهد وأقام من

أبنائه الآخرين وذوى قرباه حكاما على مختلف نواحى دولته الواسعة . وفيما هو فى بعض حلاته سقط عليه أحد جنوده فاغتاله وهو فى الرابعة والأربعين من عمره والعام الثانى عشر من حكمه .

يعد عصر ملكشاه أوج عظمة السلاجقة ، وقد استطاع أن يرسخ عمد دولته بفضل وزير قدير كفء وناصح مجرب هو نظام الملك . وتدين الثقافة الإسلامية، فى مختلف نواحيها بهذه المناطق ، بازدهارها إلى ملكشاه العظيم هذا الذى صار نفوذه يمتد من اليمن غربا حتى أقصى جيحون فى الشرق ، وهنا تنقلب الآية فنرى الخليفة العباسى المقتدى بالله يرى الشرف الأكبر فى أن يصهر إلى الأمير السلجوقى ويطلب يد إبنته .

ولقد حرص ألب أرسلان على قيام السلام بين خلفائه حفاظا على دولته فقسم بلاده بين مختلف أقاربه ولكن حذره هذا لم يجنب دولة السلاجقة من أن تنحدر إلى مزالق التفسخ ، فلم يكد ملكشاه يوسد الثرى عام ٤٨٦هـ (١٠٩٢م) ويرقى إبنه برقيارُق العرش حتى نشب الخلاف الشديد بين أمراء السلاجقة .

ومما يلفت النظر أننا نجد حكام السلاجقة من بعد ملكشاه لايلتفتون كثيراً إلى بلاد ماوراء النهر برغم إمتداد سلطانهم حتى بلغ إفريقيا نفسها. ومن ثم صارت مناطق التركستان ولا سيما بخارى وسمرقند وفرغانة لاتخضع لهم إلا خضوعا إسميا وانتقلت السلطة الحقيقية هناك إلى الأويغوريين . ولقد إلتفت السلطان سنجر السلجوقى إلى ذلك من بعد وحاول أن يستعيد نفوذ السلاجقة الفعلى على بلاد ماوراء النهر . وحالفه التوفيق أول الأمر ثم تخلى عنه من بعد ذلك ونزلت به هزيمة ساحقة على أيدى الأمير كرخان الأويغورى وقد فر سنجر من الميدان تاركا خلفه حريمه وكل متاعه . . وقدرت خسائر السلاجقة فى هذه المعركة بثلاثين ألف رجل ، وضاعت بذلك شهرة سنجر العسكرية وقد كانوا يعدونه يوما الإسكندر المقدونى الثانى . وتلاشى كل نفوذ للسلاجقة ببلاد ماوراء النهر .

وتوالت المصائب على سنجر هذا فسقط أسيراً بأيدى التركمان وأمضى عندهم سنوات ثلاث فى بؤس وشقاء . وأفلح آخر الأمر فى الهرب ولكن الأرزاء كانت قد أحاطت بعقله . ووافاه أجله ، وخلفه ابن أخيه محمود خان . وفيما كان الخوارزميون يقتطعون أجزاء من خراسان كان أمراء الغور بدورهم يقتطعون أجزاء أخرى ، فى حين انطلق الغز ينتهبون كذلك أجزاء أخرى . حدث ذلك كله فى الوقت الذى كان فيه كرخان الأويغورى يثبت من سلطانه على مناطق كثيرة فى بلاد ماوراء النهر .

هكذا انتهى حكم أول أسرة تركية فى بلاد ماوراء النهر . ونعجب إذ نراهم لم يلتفتوا إلتفاتا جديا إلى موطنهم الأصلى بل عنوا بالمواطن التى كانت تروج فيها الثقافة الفارسية ، ومن هنا رأينا من السلاجقة من أمثال طغرل وملكشاه وسنجر يعملون على إحياء آداب الفرس فى حين أن اللغة التركية ، لسان عوام أهل السلاجقة ، لم يكونوا يستخدمونها إلا بوصفها لسان الحياة العادية ، ونجد هذه الظاهرة تتكرر عند أمراء خوارزم الترك وحكام بلاد ماوراء النهر .

سلاطين خوارزم

٥٢٨ — ٦١٥ هـ (١١٣٣ — ١٢١٨ م)

كانت خوارزم ، وهى اليوم خانية خيوه الحديثة ، فى زمن السلاجقة من أملاكهم ، وقد أقطعها السلطان ملكشاه السلجوقى لقائده نوشتكين غرجه ، ثم خلفه عليها ابنه محمد قطب الدين عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) لحكم خوارزم ، وذلك حين هان شأن السلاجقة .

وخلفه ابنه اتسز أمير كفؤاً اشتهر برعايته الآداب ، كما عرف بطموحه الذى دفع به إلى حرب أوليائه السلاجقة أيام السلطان سنجر . وقد مهدت هذه الحروب لظهور أمير أو بغورى قوى جارلهم بوسط آسيا هو الأمير كرخان الذى استولى على بلاد ماوراء النهر كلها ودخل بخارى وسمرقند وانزل ضربات شديدة بخوارزم نفسها .

وفشل إيل أرسلان بن اتسز فى الوقوف فى وجه كرخان بدوره حتى خلفه ابنه تكش أعظم أمراء خوارزم ، إذ تم له الاستيلاء على عرش إيران كما هاجم الحشاشين الإسماعلية فى حصونهم وصار له آخر الأمر دولة لا تقل فى رقعتها عن دولة السلاجقة أو السامانيين فى أوجهم .

وقد أوصى أولاده عندما حضرته الوفاة عام ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) بأن لا يتوقفوا عن دفع الاتاوه إلى جيرانهم الشرقيين من الاويغوريين ، الكرخانيين ، وهى الأتاوة التى كاى يدفعها لهم آباؤه من قبل . إذ كان تكش يرى فى قوة هؤلاء الكورخاييين متراساً منيعاً يقف فى وجه همج صحراء جوبى وهم الذين خرج من بينهم جنكيزخان وقومه من بعد ذلك

فأنزلوا الدمار والخراب الشامل بكل بلاد المسلمين فيما بين بلاد ما وراء النهر وبلاد الشام .

وخلف تكش ابنه محمد قطب الدين علاء الدين ، وكان طموحاً كأبيه ، لحارب السلطان شهاب الدين أمير الغور الأفغاني وانتصر عليه بمعاونة كرخان له ، ثم ما لبث أن انقلب على حليفه هذا فما زال به حتى هزمه بعد مواقع دامية حاسمة تمّ فيها آخر الأمر لخوارزمشاه (سلطان خوارزم) الاستيلاء على التركستان كلها .

وعزم سلطان خوارزم من بعد ذلك على السير إلى بغداد وفي خطته عزل الخليفة العباسي — وكان على عداء شديد متواصل معه — وتنصيب أحد رجاله مكانه وهو العالم علاء الملك الترمذي . وما إن بلغ همدان في زحفه فعوقته ثلوج الشتاء عن التقدم في طريقه حتى جاءته رسالة من خير خان نائبه على أترار ينبئه فيها بالقبض على أربعمائة من عيون جنكيز خان كانوا قد قدموا في لباس التجار المسلمين إلى تلك المدينة على حدود تركستان الشرقية .

وأمر سلطان خوارزم بقتل هؤلاء الأسرى التجار جميعاً ، ولم يكن يدري العواقب البعيدة التي خبأتها الأيام لهذا القرار . فعلى حد قول المؤرخ الجويني صاحب « تاريخ جيهانكشاي » الفارسي : إن دمهم قد أريق ، ولكن كل قطرة قد كفر عنها بسيل جارف من دماء المسلمين ، وأن رؤوسهم قد سقطت ولكن كل شعرة قد كلفت مئات الألوف من المسلمين حياتهم » .

الغزو المغولى

٦١٥ — ٦٢٤ هـ (١٢١٨ — ١٢٢٦ م)

كان المغول ، وهم قوم يشبهون الترك حداً ما فى اللغة والسحنة ، يقيمون منذ زمن موغل فى القدم بصحراء جوبى بوسط آسيا إلى الغرب من الصين ، حياتهم بدوية قاسية بتلك الأرض الجدباء الموحشة ، لا يدرى حتى أقرب جيرانهم إليهم من أمرهم شيئاً إلى أن ظهر من بينهم بطل ذو أطماع وإرادة قوية وحَّد من صفوف بنى جلدته ثم سار بهم إلى فتوحات واسعة بآسيا وفى ركابه الخراب والدمار الذى أشاعه فى مهاد الحضارة والمدنية التى اجتاحها . ذلك هو تيمورجى الذى اشتهر فيما بعد باسم جنكيزخان حين ظهر على مسرح التاريخ وهو فى الأربعين من عمره . وما يعرف عنه قبل بلوغه هذا السن لا يعدو قصصاً قليلا .

وأخضع جنكيز لسلطانه أغلب قبائل الترك من جيرانه غرباً ومن بينهم الاويغور الذين أقامهم على دواوينه ، وكان الإسلام يشيع بينهم ، وأدمجهم فى قواته ، لينطلق من بعد ذلك بقواته عام ٦١٥ هـ (١٣١٨ م) لحرب سلطان خوارزم . وصحبه فى هذا الغزو أبناؤه جغتاى وأوكتاى وجوجى وقوة قوامها ستمائة ألف من خير جنده ، إلى جانب ما انضم إليه فى الطريق من قوات القبائل التركية الأخرى .

وكان من رسوم جنكيزخان ألا يشرع فى غزو جديد حتى يتم له أولا إدماج القبائل التى انتصر عليها فى قواته إدماجا تاما وتدريبها وفق قواعد الياصا . والياصا ، تلك التى يعرفها العرب والفرس باسم ياصاق كذلك ، هى دستور جنكيز فى الحياة وقد قننها بنفسه . وتشتمل على قوانين سياسية واجتماعية وعسكرية تلائم الحياة القبلية وتنظمها تنظيما صارما .

وسار جنكيز بقواته عبر وادى إيلى وشمال فرغانة صوب أُترار ، وهناك وجه قواته إلى اتجاهات أربعة :

١ — ينطلق قسم منها وعليه ولداه جغتاى وأوكتاى لإخضاع اترار .

٢ — يتجه قسم آخر يقوده ابنه جوجى على طريق جنَد .

٣ — يتقدم القسم الثالث منها إلى بناكت وخُجند وعليه القائدان نويان وساتتوبغا .

٤ — يضطلع جنكيزخان بنفسه بالعملية الرئيسية فيزحف بجنده إلى مدينة بخارى قلب آسيا .

على أن تلتقى هذه القوات جميعـــا بظاهر سمرقند بعد الفراغ من عملياتها الحربية هذه .

هكذا انطلقت قوات المغول فى تيارات مدمرة عاتية تجتاح بلاد ما وراء النهر ومدنه الزاهرة ومراكز الحضارة والثقافة بها . تستسلم لهم مدينة فيعفون أهلهـا من القتل ليسترقونهم . وتدافع أخرى عن حياضها ، فيقتلون سكانهـا جميعـا بعد اقتحامها على أهلها لا يستثنون فى ذلك كهلا أو امرأة أو شيخا اللهم إلا أصحاب الحرف والصنائع إذ كانوا يبقون عليهم ليقوموا على خدمتهم وينهضوا بتعمير منازلهم ومدنهم فى بلاد المغول . وهم فى جميع الأحوال ينزلون الخراب والدمار بكل بلد يحلون به وينتهبون كل ما به من مؤن أو متاع .

ودخل جنكيزخان مدينة بخارى بعد أن استسلمت له وقصد مسجدها الجامع الفخم ، وقد ظنه أول الأمر قصر السلطان ، وترجل عند منبره . وانطلق جنده بدورهم يمزقون المصاحف ويتخذون من صناديقها مذاود لخيولهم ، وانتهبت دور المدينة جميعا ، وسيق الشيوخ والعلماء الأعلام ليقوموا على خدمة الجند فى مجالس الشراب .

وجمع الناس لجنكيز بظاهر المدينة فخطبهم منددا بسلطانهم شاه خوارزم ومهددا بأنه إنما هو سوط الله الذى بعث به إليهم لينزل بهم عذابه ، وطلب إليهم فى ذلك أن يخرجوا إليه كل ما أخفوه من متاع ، ثم أمر من بعد ذلك باشعال النيران فى المدينة ، وكان أغلب بيوتها من الخشب ، حتى صارت المدينة كلها رمادا بعد أيام قليلة . وقد قتل من جندها ثلاثون ألفا واسترق الباقون . واستطاع أحد السكان أن يفلت من هذا الجحيم ففر هاربا إلى خراسان . وحين سأله الناس عما صار إليه حال مدينتهم أنشد ذلك الشعر الفارسى الذى اشتهر فى الآفاق منذ ذلك الوقت :

آمدند وكندند ، وسوختند وكشتند وبردند ورفتند

(قدموا وخربوا وأحرقوا ، ثم قتلوا ونهبوا ورحلوا) .

ويصف ابن الأثير هذا الحال فيقول :

« وإنه كان يوم أسود لم يسمع فيه إلا العويل والنحيب ، انفصلت فيه النساء عن أزواجهن وأطفالهن إلى الأبد بل لقد عمد هؤلاء الهمج إلى الاعتداء على النساء والفتيات تحت بصر أوليائهن ، ومن كان يعترض منهم كان الموت مآله » .

وجاء الدور من بعد بخارى على سمرقند أعظم مدن بلاد النهر . وقد جد جنكيز خان السير إليها ومعه أسرى البخاريين ، وقد ساقهم فى مقدمة قواته ليتلقوا الصدمة الأولى حين يحتدم القتال .

وفعل المغول بسمرقند — أعظم مدن العالم تألقا وازدهارا لوقتها — مافعلوه ببخارى من قبل وأكثر ، لينطلقوا من بعدها صوب مدن أخرى .

وفى ترمز على نهر جيحون فرّق الأهلون بين الجند ليتولوا قتلهم جميعا . ويروى المؤرخ الجوينى أن إحدى السيدات استحلفت الجندى الموكل بقتلها أن يطلق سراحها نظير جوهرة كبيرة كانت قد ابتلعتها . فاذا بهذا المغولى

يعمد من فوره إلى شق جوفها حية وحين بان صدق قولها صدرت الأوامر في الحال بشق أجواف الموتى بحثاً عما قد يكون بها من جواهر ابتلعها أصحابها .

هذا وكان السلطان الخوارزمي محمد قطب الدين قد سارع يتصدى لقوات جوجي بن جنكيز وهي في طريقها إلى جند ولكنه مني بهزيمة ساحقة كاد يفقد فيها حياته لولا شجاعة ابنه جلال الدين الذي يعرف باسم منكوبردي ، ومن ثم انسحب إلى سمرقند ، وقد ركبه الهلع والفزع من بعد ذلك فأخذ يضرب في الأرض والمغول في أثره حتى انتهى به الأمر إلى جزيرة صغيرة في بحر الخزر حيث مات شريداً معدماً حتى لم يجدوا ما يكفنونه به إلا ثوبه الذي كان يرتديه .

وانطلق البطل جلال الدين منكوبردي بفلول أبيه محمد قطب الدين ينزل الضربات المتلاحقة بالمغول حتى سار جنكيزخان بنفسه لقتاله ، ومازال يطارده حتى ماء السند ، فاذا بمنكوبردي بعد أن سقط كل من حوله من رجاله يقفز في النهر بفرسه من علو مايزيد على ثلاثين قدم ، وإذا بجنكيز يأمر رجاله عند ذلك بالكف عن مطاردة الأمير الخوارزمي الفار مثنياً على شجاعته وإقدامه .

وحاول هذا الأمير من بعد ذلك بسنوات قليلة أن يشق طريقه إلى بلاده ، فلقى حتفه بيد المغول عام ٦١٨ هـ ، وبهذا انتهى حكم آخر شواهين خوارزم وختم عهد أسرة حكمت مايقرب من قرن ونصف القرن في عظمة وقوة تضارع ما كان للسلاجقة .

وعاد جنكيزخان من بعد ذلك إلى بلاده ، فعقد هناك « القرلتاى » مجلس شورى المغول عام ٦٢١ هـ (١٢٢٤م) وفيه قسم مملكته المترامية الأطراف بين أبنائه على الوجه الآتي :

١ – الصين ومنغوليا ويحكمها أوكتاى وقد جُعلت له زعامة المغول بعد أبيه .

٢ – تركستان وبلاد ماوراء النهر وقسم من منازل الاويغور ، وتكون لجغتاى .

٣ – أما جوجى فكان قد مات فى ذلك الوقت ومن ثم صار ابنه باتو حاكما خوارزم وصحراء القبچاق .

٤ – وقد ُنصب تولى على خراسان وبلاد فارس والقسم المفتوح من الهند .

ومات جنكيز عام ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) بعد أن أشاع الدمار فى كافة بلاد ماوراء النهر وأحرق الحرث والنسل حتى بلغ ضحاياه فى مدينة واحدة هى مرو أكثر من سبعمائة ألف قتيل على رواية ابن الأثير والمليون على رواية الجوينى ، وخرب أعظم مراكز الثقافة الإسلامية هناك فى سمرقند وبخارى وجرجان ومرو ونيسابور .

وفى عهد جنكيز فصلت بخارى وسمرقند ، هاتين « الدرتين الغاليتين » فى العالم الإسلامى الشرقى ، عن جيرانهما فى الجنوب الغربى ، وهما اللتان يرتبطان معاً برابطة الدم والثقافة والعقيدة ، وألحقتا قسراً بذلك القسم من الدولة المغولية الذى اشتهر باسم « خانية جغتاى » ويضم كل مناطق الأويغور الترك ومعهم فريق آخر من بنى جلدتهم ممن كانوا على همجية وبداوة .

وكان جغتاى ، ثانى أبناء جنكيز ، هو الذى حكمت أسرته بلاد ماوراء النهر عموماً حتى ظهور تيمور لنك .

وكان جغتاى عادلا حكيما إلتزم فى الواقع قيام المساواة بين أصحاب العقائد المختلفة والعروق المتباينة حتى أخذ الفلاحون وأصحاب الحرف يعودون من

جديد لممارسة أعمالهم وكان أغلبهم قد لجـــأ إلى الاختفاء هرباً من أهوال الحرب .

وعهد جغتاى بحكومة بلاد ماوراء النهر إلى مسلم هو مسعود بك ابن محمود يلواج (السفير) الذى كان قد سفر من قبل لجنكيز عند سلطان خوارزم . وبجهود مسعود بك أخذت الحياة تدب من جديد فى مدن بلاد ماوراء النهر الخربة وتقام المنشآت وتفتح المدارس ودور العلم أبوابها للدراسين .

وساد الاضطراب من جديد ببلاد ماوراء النهر على أثر موت جغتاى ، وتناحر أبنائه وذوو قرباه على الملك من بعده ، حتى ولى عرش المغول خانهم الأكبر مانكو (مانجو) بن تولى بن جنكيز خان فثبت على عرش خانيه بلاد ماوراء النهر هولاكو حفيد جغتاى ، وأصدر إليه أوامره بالزحف بقواته غرباً فخرب معاقل الإسماعيلية الحشاشين فى إيران ، وبلغ بغداد فأنزل بها ذلك الخراب المشهور المعروف الذى قضى فيه على ثمانمائة ألف من سكانها قتلا ودمر كل الكنوز المادية والعلمية التى ظل خلفاء بغداد وعلماء المسلمين يجمعونها بها جيلا بعد جيل، كما قتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين بها عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) . ثم بعث بقواته غرباً تواصل ممارسة الدمار والخراب والتقتيل . ولولا صد المصريين له عند عين جالوت فى نفس العام ، لعاود هؤلاء الهمج زحفهم وواصلوه تدميراً لما بقى للمسلمين من الحضارة والمدنية والثقافة .

ووقع الشقاق بين أبناء هولاكو من بعده لحكم فريق منهم إيران وهم الذين يعرفون باسم الايلخانيين . وحكم الفريق الآخر ببلاد ماوراء النهر .

ودخل الفريقان — إيلخانيو فارس وجغتائيو بلاد ماوراء النهر — فى حروب متواصلة لاهوادة فيها انتهت بزوال ملكهم جميعاً واستيلاء تيمور لنك التركى على بلادهم جميعاً مبتدئاً ببلاد ماوراء النهر من خانيه جغتاى ومثنيا بإيران .

هذا وكان أغلب سكان بلاد ماوراء النهر من الترك، وقد عرفوا باسم الأتراك الجغتائيين، وقد اتخذ منهم حكام المغول وزراء وحكاما، مالبثوا أن استقلوا بالأمر كله حين هان شأن أحفاد جغتاى بتلك البلاد.

وكان من بين هؤلاء الوزراء الترك من يدعى قزعان، وقد وزر للأمراالجغتائى قازان بن يساور عام ١٣٣٣هـ (١٩٣٣م) ثم مالبث أن خرج عليه،وطفق من بعد ذلك يوالى اجلاس أمراء جغتاى على العرش على هواه حتى قتله صهره فى الصيد. وانفرد من بعد ذلك بالسلطة هناك الأمير حاجى سيف الدين برلاس. واضطر هذا الأمير بدوره إلى الهرب من وجه الخان تغلق تيمور وكان قدم من المالق إلى خراسان ليضع حداً لحالة الفوضى هناك. ولكنه لم يتعرض للجانب الآخر من جيحون حيث كان ابن أخته تيمور الذى لم يقدر له أن يطرد خلفاء جغتاى من بلاد ماوراء النهر فحسب بل ويدك كذلك بناء الحكومة المغولية المتعفن فى آسيا.

تيمور لنك

(٧٦٥ — ٨٠٧ هـ (١٣٦٣ — ١٤٠٥ م)

الواقع أن غزو المغول لآسيا الوسطى قد فتح الباب على مصراعيه أمام النفوذ التركى ، فقد صحب كثير من الأتراك المغول أنفسهم فى حروبهم واستخدمهم المغول أنفسهم كذلك فى دواوينهم ، بل لقد صارت التركيـــة هى لسان البلاط والمجتمع فى بلاد ما وراء النهر حين بدأ نفوذ المغول فى الاضمحلال وأخذت دولة جغتاى بالذات فى التفسخ . وعند ذلك نجد قبائل جلاير وسولدوز التركية تغتصب لنفسها السلطة عند سمرقند ويشاركها بيت برلاس فى الجنوب من تلك البلاد . وإلى بيت برلاس هذا ينتسب تيمور الذى يعرف أيضاً باسم تيمور كُركن (المليح). وقد ولد تيمور عام ٧٢٦ هـ فى شهر سبز (المدينة الخضراء) وكان أبوه شيخاً لقبيلة برلاس وقد ندبه الأمير قزعان سالف الذكر على إقليم كش ونخشب . وعى الأب بتنشئة ابنه . وقد أعجب الأمير قزعان بتيمور إعجاباً شديداً حتى زوجه بحفيدته . ونشبت الفوضى فى بلاد ما وراء النهر فقصد تيمور إلى بلاط الجغتائيين فرحبوا به وأقروه على ولاية كش . ونجد تيمور من بعد ذلك يعهد إليه الأمير المغولى القوى تغلق تيمور بتأديب إلياس خواجه ابنه . وما لبث تيمور من بعد ذلك أن غادر سمرقند فى نفر قليل من أتباعه فضربوا فى تلك الصحراء الواسعة فيما بين إقليم بخارى وخيوه وبحر الخزر حيث عاشوا فى مغامرات متلاحقة هناك . وقد وقع تيمور أثناء ذلك مع زوجته أسرى بأيدى بعض التركمان غير أنه استطاع الهرب . ومن ثم عاد إلى كش من جـــديد لجمع حوله بعضا من رفاقه القدامى وأخذ يغير بهم على بعض حصون سيستان وقراها ، وأصيب فى إحدى

الغارات بجرح فى ساقه نتج عنه عرجه طول حياته ومن ثم عُرف باسم تيمورلنك أى الأعرج .

ونرى تيمور من بعد ذلك يطارد قبائل الجتة بل ويخرج كذلك الجغتائيين جميعا من بلاد ما وراء النهر . وكان يعاونه فى ذلك أخو زوجته الأمير حسين حفيد تغلق تيمور الذى أشرنا إليه من قبل .

ونجد أن هذا الأمير ينفصل من بعد ذلك عن تيمور فلا يأبه لذلك كثيراً . ويعاود مطاردة الجتة أولئك البدو المتوحشين حتى يُبعدهم عن بلاد ما وراء النهر كلها .

وما لبث تيمور أن نادى بنفسه فى بلخ سلطانا على بلاد ما وراء النهر واتخذ من سمرقند حاضرة له وأول ما اتجه إليه بعد أن أمسك بأعنة الحكم هو تنظيم حكومة بلاد ما وراء النهر مهتديا فى ذلك بالياصا المغولية فيما لا يتعارض مع القرآن والسنة . .

واتجه تيمور من بعد ذلك إلى اشباع نهمه فى الفتوح فتطلع إلى غزو خوارزم وزحف إليها عام ٧٧٣ هـ فى جيش كبير ومما يلفت النظر أن حادثا طريفا وقع فى تلك الحرب إذ عرض يوسف أمير خوارزم على أن يتبارزا على انفراد حقنا لدماء المسلمين ، وبرغم سرور تيمور بهذا الاقتراح فإن صاحبه عدل عنه. ومن ثم دخل تيمور خوارزم منتصرا عام ٧٨١هـ ووقع بيديه هناك كنوز طائلة حملها إلى كش هى وكثير من مهرة الصناع وأرباب الحرف وجملة من العلماء. وهكذا باتت كل آسيا الوسطى تخضع لسلطانه ولما تتسع بطبيعة الحال لأطماعه بعد . فقد كان يرى فى جنكيز بلاده الواسعة التى فتحها مثاله المقتدى ، وقد كان يبرر اعتداءاته بترديده لقول الشاعر : « إذا كان هناك رب واحد فحسب فالواجب أن يحكم الدنيا سلطان واحد فقط ، وما تكون الدنيا بأسرها بالقياس إلى طموح أمير عظيم ». وقد كان يرى من واجبه أن يقضى على الفتن حيث كانت ويخلص الناس من المستبدين بهم ،

وعلى حد قوله فى سيرته : « وهذا هو الأمر الذى دفعنى إلى فتح خراسان وتخليص ملك فارس والعراق والشام من الفوضى التى كانت تعمها . وقد هيأ ذلك له كله ما توفر له من عبقرية عسكرية وجند ثابت مدرب وقواد أكفاء تجلت كفايتهم الحربية حين كانوا يحاربون فى صفه وحين كانوا يناصبونه العداء على السواء .

وكانت أول فتوحات تيمور فيما وراء حدود آسيا عند الشمال فى بلاد خلفاء جوجى ، فقد لاذ الامير تختمش بتيمور بعد أن طرد من بلاده فرحب به تيمور، وخرج مع قواته فثبت تختمش فى بلاده بعد أن استولى على كل خانية القبجاق ، واندفع من بعد ذلك فى داخل روسيا نفسها حتى بلغ موسكو عام ٧٨٦ هـ وأحرقها .

وخرج تختمش بدوره على تيمور ولكن الغازى التركى أنزل به هزيمة شديدة وطارده من جديد حتى موسكو ، وعاد إلى حاضرته ومعه عدد كبير من الأسرى وفيهم أسرة خصمه ونساؤه وكثير من الكنوز والجواهر . والتفت تيمور من بعد ذلك لغزو خراسان وإيران واستسلمت له أسرة سربدار فى خرسان الشمالية وحاربته أسرة كرت وما لبثت حاضرتها هراة أن سقطت فى يده بعد مقاومة شديدة فى حين استسلمت كبوشان وطوس ونيسابور وسبزاور له صلحاً وكانت من مراكز الفنون والعلوم المشهورة . وانطلق تيمور من بعد ذلك إلى بلادفارس والعراق . وكان يحكم بمناطق إيران أسرتان : فى الجنوب كان آل المظفر فى حين كان الايلخانيون فى العراق وآذربيجان . واستسلم شاه شجاع المظفرى لتيمور وزف ابنته إلى أمير محمد حفيد الغازى الكبير . ولم يستطع السلطان أحمد الجلايرى بدوره أن يقف فى وجه تيمور فغادر عاصمته سلطانية إلى بغداد . وانطلق تيمور فاجتاح القوقاز واستولى على أرمينيا . وكان ممن تعرض لسخط تيمور أسرة

قره قوينلو وإصفهان البلد الثائر الذى قتل تيمور من سكانه سبعين ألفا لقتلهم ثلاثة آلاف من جنده غدراً .

واستطاع تيمور من بعد ذلك أن يخضع له مازندران واستراباد ثم آمل ، وكانت مركزاً قوياً للحشاشين ، فأنزل تيمور بها مذبحة بشعة . وعاد بعض أمراء آل المظفر للخروج على تيمور ومنهم شاه منصور الذى كاد يوقع بتيمور نفسه . . وما أن أخضع تيمور آذربيجان وبلاد الكرد حتى عبر دجلة فدخل بغداد وانطلق من بعد ذلك يطارد حليفه السابق تختمش حتى موسكو حيث قضى عليه القضاء الأخير . وعاد تيمور بعد هذه الرحلات إلى وطنه عام ٧٩٩ هـ بعد غيبة دامت خمس سنوات ولبث يشرف على تجميل سمرقند فى أبهة لم يسبق لها مثيل ، ومن ثم اتجه إلى ميادين الفتوح من جديد فولى وجهه صوب الهند فلم يزل بها حتى دخل دهلى نفسها .ووقع بأيدى ذلك الغازى هناك كنوز وتحف لاحصر لها . ورجع إلى سمرقند عام ٨٠١ هـ ومعه قدر كبير من الفيلة ومهرة الصناع الهنود أسارى بعد أن أنزل بسكان دهلى مذبحة مروعة . ودفعه طموحه مرة أخرى لحرب سلطان العثمانيين القوى بايزيد عاهل الترك الكبير فدحره وأوقعه هو ونساءه جميعا فى الأسر ، ولولا البحر لسقط على أوربا نفسها . وآب إلى عاصمته فعزم من جديد على الخروج إلى حدود الصين لغزو تلك الإمبراطورية الواسعة ، والشتاء على أشده ، فداهمه الردى فمات فى السابع من شعبان عام ٨٠٧ هـ ، فى الحادية والسبعين من عمره . وما اتسمت به حروبه من إغراق فى سفك الدماء ، وما كان يبعثه من الرعب فى نفوس معاصريه ، قد بعثت الكراهية فى نفوس الكثير من الناس حتى فرحوا بموته . وها هو أحمد بن عربشاه العدو اللدود لتيمور يجرى حديثا على لسان الشتاء وفيه يصف غلبة البرد والصقيع على هذا المحارب المحنك إبان تقدمه عبر الوديان الثلجية بآسيا الوسطى حيث لقى حتفه .

« مهلا يا شوم . . ورويدا أيها الظلوم الغشوم ، فإلى متى تحرق القلوب بنارك وتلهب الأكباد بأوامك وآوارك ، فإن كنت أجد نفسي جهنم فأنى أنا ثاني النفسين ، ونحن شيخان اقترنا في استئصال البلاد والعباد ، فانحس بقران التحسين ، وإن كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريري منك أبرد ، أو كان في جرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصمهم وأصمك ففي أيامي بعون الله ما هو أصم وأجرد ، فوالله لاحابيتك فخذ ما آتيتك ووالله لايحميك ياشيخ من برد ريب المنون لواعج حرة بجمرة ولاواهج لهيب كانون » .

إن أولئك الذين يقرنون تيمورلنك بجنكيز خان في صفاته فيقولون عنه إنه كان مثله مجرد متوحش وظالم مستبد ، إنما يبالغون في ذلك كثيراً . ذلك أن أغلب ما ارتكبه من ضروب القسوة إنما فعله إنتقاماً لما كان قد لحق به من ضرر أو غدر بجنده كما صنع باصفهان وشيراز ؛ ومع ذلك فإنا نراه حين انطلق جنده ينهبون باصفهان يأمرهم ألا يتعرضوا بسوء للحي الذي كان يقطنه العلماء . فقد كان يسعى دواماً لكسب ود رجال العلم كلهاً باسترضائهم وإن خالفوه في الرأي أو حتى ناصبوه العداء جهاراً ، كما فعل مع العالمين المشهورين شمس الدين الفناري ومحمد الجزري وكانا قد وقعا في أسرة ببلاط عدو له . ويروى عنه كذلك أنه أمر ذات مرة بنقل مكتبة بأكملها على متون البغال من بروصة إلى سمرقند . وقد أقام تيمور عديداً من المدارس في دولته منها مدرسة في بغداد وأخرى في كش موطنه وثالثة في سمرقند حاضرته ، وكان يجلب إليها الأساتذة من خوارزم وبخارى وفرغانه ، هذا إلى جانب منشآته الأخرى من المساجد والقصور .

كذلك جلب إلى حاضرته أمهر الصناع والنساجين من دمشق وحلب وبلاد الدولة العثمانية .

وصارت سمرقند كذلك لعهده أعظم سوق لتجارة آسيا كلها تحمل إليها قوافل الهند التوابل وكل طريف ولطيف من منتجاتها ، وتصدر الصين إليها الحرير

والخزف والمسك والحجارة الكريمة ويأتى إليها الفراء الثمين من الشمال . ويتولى تجار سمرقند من بعد ذلك تصدير هذه المنتجات لا إلى مدن العالم الإسلامى غرباً فحسب بل وإلى أوربا نفسها كذلك فيصيبون من وراء ذلك الربح الوفير .

والواقع أن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى إنما يبدأ بتيمور . ذلك أن أمراء خوارزم ومن سبقهم من السلاجقة والغزنويين برغم أنهم أصلا من الترك إلا أنهم كانوا يميلون كل الميل إلى الثقافة الإيرانية وثقافة العالم الإسلامى العربى دون اهتمام يذكر بثقافة عرقهم .

التيموريون

(٨٠٧ — ٩٠٦ هـ (١٤٠٥ — ١٥٠٠ م)

لقد لبث الجنكيزيون يحتفظون بسلطانهم فى آسيا الوسطى والغربية قرنين من الزمان ، أما خلفاء تيمور فبرغم ما كان فيهم من رجال أكفاء وما ورثوه من أرضين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بما ورثوه أكثر من قرن . وكان أولاد تيمور قد ماتوا جميعا فى حياته باستثناء شاهرخ ميرزا الذى كان يقوم على حكومة خراسان . واقد اختار تيمور حفيده « بير محمد » خليفة له . وتقاعس هذا الأمير عن حقوقه فى العرش فاذا بخليل ميرزا بن مير انشاه ، وهو حفيد آخر لتيمور ، يسرع إلى سمرقند وما لبث بير محمد وخليل على أى حال أن اشتبكا معا فى حروب أرغم فيها آخر الأمر خليل على التنازل عن حقه فى العرش إلى شاهرخ ميرزا بعد انسحاب بير محمد وانصرافه إلى شهواته . وكان شاهرخ هذا هو أكبر الأمراء التيموريين ممن بقوا على قيد الحياة .

وهكذا وضع شاهرخ ميرزا يده على كل أملاك أبيه فيما عدا سوريا والعراق العربى ، فعهد بحكومة العراق إلى ابنه ألغ بيك الذى يشتهر بحبه للعلوم والفنون حتى لا تجد له غزوات تذكر قام بها ، بل لقد قضى حياته فى الغالب مجتمعا بالعلماء حفيا بإقامة المنشآت الثقافية ومنها مدارسه فى بخارى وسمرقند التى كتب على واجهتها بخط ضخم يرى من بعيد « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . هذا فضلا عن مرصده المشهور وكان يدرس بنفسه مع العلماء والطلبة فيه . وقد تحدث عبد الرازق صاحب كتاب مطلع السعدين باعجاب شديد عن الآلات المختلفة التى شاهدها بذلك المرصد لمسح الأرض وتحديد خطوط الطول والعرض ثم

الـكرات السماوية وعليها النجوم، والـكواكب فى مسالـكها والخرائط الدقيقة تبين التلال والصحراوات والبحار . وكان يقدم إليـه العلماء من كافـة أركان الدنيـا وأصحاب الفنون والآداب فيجدون عنده كل ترحيب .

وولى الغ بيك العرش بعد أبيـه فتعرض لـكثير من المتاعب ، وكان أقساها عقوق ابنه حتى اشتبك فى حرب قتل ألغ بيك فيها عام ٨٥٣ هـ على يد ابنه ، ولم يستطع عبد اللطيف قاتل أبيه أن يجنى ثمار عقوقه فقد استولى على السلطان فى سمرقند أبو سعيد ميرزا . وما لبث عبد اللطيف أن قتل بدوره وفصل رأسه عن جسده وعلق بأعلى رواق المدرسة الفخمة التى كان قد أقامها ألغ بيك .

ويعد أبو سعيد هذا أعظم خلفاء تيمور طموحا ، وقد غـدا السيد المطلق فى بلاد ما وراء النهر وفرغانة وكذلك فى خراسان وسيستان وكرمان وفارس ، ومن ثم أخذ يرنو بأنظاره إلى سهول أذربيجان الخصبة فحارب صاحبها ، حسن بيك زعيم أسرة آق قويونلو التركمانية (الخروف الأبيض) . ويعرف هذا الزعيم فى التـاريخ باسم أوزون حسن ـ فاذا بأبى سعيـد يقع فى أسره ويقتل بعـد أن حكم ثمانية عشر عاما امتد حكمه فيها من جبال تيان شان إلى بغداد ، ومن مروج القرغيز إلى نهر السند والخليج الفارسى .

وخلفه أبناؤه العشرة فى ملـكه ومنهم أحمـد ميرزا ثم عمر شيخ ميرزا فى فرغانة . ذلك فى الوقت الذى كان الصفويون يمهدون لقيام دولتهم المقبلة ، وكان السلطان التيمورى الآخر حسين بيقرا فى هراة يبعث أمجاد خراسان القديمة متمثلة فى تلك الحياة الفـكرية والثقافية الرائعة التى شهدتها هراة فى عهده .

ودخل أبناء سلطان أبى سعيد ومن بعدهم بعض أحفاده ـ ومنهم ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية بالهند ، ثم السلطان حسين بيقرا وأولاده من بعده ـ

دخلوا فى عراك فيما بينهم من جهة ومع المغول وبالأخص الاوزبك يقودهم شيبانى خان من جهة أخرى ، حتى أخرجوا جميعا من بلاد ما وراء النهر وقضى القضاء التام على الأمراء التيموريين هناك كحكام . ولم ينج منهم إلا ظهير الدين بابر حيث أتاحت له الظروف إقامة تلك الدولة العظيمة فى الهند ، وهى التى عرفت باسم الدولة المغوليـة ، وإن كان هو نفسه يذكر صراحـة بأنه تيمورى تركى ويرمى المغول بأبشع الصفات مع أن خؤولته كانت فيهم .

الأوزبك والشيبانيون

(٩٠٦ — ١٠٠٦هـ (١٥٠٠ — ١٥٩٧م)

ظهر سلطان الترك أول ماظهر جارفا على يد الدولة السلجوقية . وقد انفلت بطون من هؤلاء الترك فتوغلوا فى أرض الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى وأقاموا لهم دولة لاتزال قائمة حتى اليوم هى الدولة العثمانية (تركيا الحالية) ، وتوالت من بعدهم موجات المغول ، وهنا ألفت النظر إلى أنه ليست ثمة فروق حاسمة فى الجنس بين المغول والترك .

توالت موجات هؤلاء المغول إبتداء من جنكيز وامتدت فى مناطق متعددة . وكان من نسل تلك القبائل من سكن بين الفولجا وبحر آرال وعلى الأخص من ينتسبون إلى جوجى ، وكان من بين أمراء تلك القبائل من أحفاد جوجى هناك أمير يدعى أوزبك هو تاسع الحكام من بيت جوجى ، وقد دخل بجهوده كثير من بنى قومه فى دين الإسلام وصارت قبائل تلك الجهات تعرف باسم القبجاق ، وقد أشار إليهم ابن بطوطة فى كتاب رحلته . ونجد من بعد ذلك الأمير أبا الخير أمير الأوزبك ينزل مع رجاله فى مناطق السهول الشرقية ويستنجد به فريق من أحفاد تيمور ومنهم أبو سعيد والسلطان حسين بيقرا .

وكان هؤلاء المغول على فطرة شديدة ، وكل نشاطهم الدينى يتجلى فى تمجيدهم لوليهم الزاهد أحمد اليسوى . ومالبثوا أن اقتربوا من منازل الحضر حتى ظهر فيهم ، أى فى هؤلاء الأوزبك ، زعيم قوى هو محمد شيبانى خان سار أول الأمر سيرة أسلافه إذ كان يضع نفسه فى خدمة الأمراء التيموريين . ومالبث من بعد ذلك أن استهوته بلاد ماوراء النهر ومابها من ثروات وخيرات كثيرة ، وكان يحكمها إذذاك جملة من أحفاد تيمور وفريق من بقايا المغول الجغتائيين ، وكان أولئك وهؤلاء

متحابين على الدوام ، فاذا بشيبانى خان الأوزبكى هـذا يرسم خطته على الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر والقضاء وبالتالى على الأمراء التيموريين بالأخص ومعهم بقايا المغول .

فى ذلك الوقت كان الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر قد خرج من فرغانة واستطاع أن يستولى على سمرقند من أيدى بعض أقربائه وهو يطمح أن يتخـذ من هذه المدينة — التى كانت حاضرة لجده الأكبر تيمور — قاعدة للملك عريض كالذى أقامه جده هذا . وينتهى الحال بأن يخرج شيبانى خان بابر من بلاد ماوراء النهر كلها ، ولا يكتفى بذلك حتى ينطلق إلى خراسان حيث كان يحكم السلطان حسين بيقرا وكانت حاضرته هراة قد صارت بهمته مثابة للعلماء والأدباء ورجال الفنون على اختلاف أجناسهم .

ويدخل شيبانى فى حروب مع حسين بيقرا وأولاده من بعـده لينتزع منهم كل بلادهم ويصبح جاراً للشـاه الصفوى القوى اسماعيل . وكان اسماعيل هذا من أصل تركى . ونسبته إلى الامام السابع موسى الكاظم هى نسبة موضوعة . على أى فقد أعلن شاه الفرس نفسه إماما للشيعة وحامياً لها وتحـدى بذلك كل جيرانه من السنيين العثمانيين فى الغرب والاوزبك فى الشرق . ونجد شيبـانى خان يحذر شاه إيران من مسلكه هـذا ويدعوه للعودة إلى المذهب السنى . وينتهى الأمر بنشوب الحرب بينهما . هنالك نجد الشاه الصفوى يتظاهر بالانسحاب عائداً إلى عاصمته وكان إذ ذاك عند مرو ، فانطلق شيبانى يطارده فاذا بالشاه الصفوى يستدير بقواته على خطة رسمها فينزل بشيبانى هزيمة حاسمة سقط فيهـا زعيم الأوزبك نفسه وكان فى الحادية والستين من عمره . ويقال إن الشـاه اسماعيل أمر بجمجمة عدوه فاتخذ منها كأس شراب، وفى رواية أخرى أنه بعث بها إلى السلطان بايزيد فى القسطنطينية وكان على صلات مودة وصداقة بحاكم بلاد ماوراء النهر .

وبعد موت شيبانى نرى الشاه الصفوى يمد بابر بجند من الفرس ليسترد بهم بلاد آبائه فى إقليم ماوراء النهر ، ولكن ماسلكه الفرس من العنف لحمل الناس على الدخول فى مذهب الشيعة جعل القوم ينفرون من بابر ، بعد مارحبوا به وفتحوا له أبواب بخارى وسمرقند ، وينضمون إلى الأوزبك من جديد . ويقودهم عبيد الله الأوزبكى خليفة شيبانى ويطرد بهم بالتالى جنود الفرس من بلاده ماوراء النهر بعد أن أنزل بهم هزيمة حاسمة عند « غجديوان » سقط فيها وزير شاه الفرس وقائده فى الوقت نفسه مع أغلب قواته .

ومالبث الأوزبك أن زحفوا على خراسان وأنزلوا بقوات شاه إيران هناك ضربات متلاحقة . وهكذا استطاع الأوزبك أن يستردوا فى الغالب كل أراضى زعيمهم شيبانى خان التى استولى عليها بسيفه ولمّا يمض أشهر قلائل على وفاته . وتوالت الحروب بين الأوزبك والصفويين فى عهد الشاه اسماعيل ثم فى عهد ابنه طهماسب وأيام عباس الاكبر كذلك . ومما شجع الأوزبك على هذه الحرب اشتباك الفرس المتكرر مع جيوش الدولة العثمانية ، أيام السلطان سليم ثم ابنه سليمان القانونى ومن جاء من بعدهما ، حتى غزا عبيد الله الأوزبكى خراسان أكثر من ست مرات .

ونلاحظ هنا أن الأوزبك باتصالهم بالبلاد المتحضرة نلاحظ أن شيبانى خان وخلفاءه يبذلون جهداً كبيراً فى إقامة كثير من المنشآت من مساجد ومدارس ودور للشفاء وغير ذلك وإن لم تبلغ الثقافة عندهم مابلغته عند التيموريين بطبيعة الحال . وحين ضعف شأن الأوزبك خلفهم مَن يعرفون فى التاريخ باسم الاشترخانيين الأول .

الأشترخانيون الأول

(١٠٠٦ — ١٠٩٩ هـ (١٥٩٧ — ١٦٨٩ م)

هؤلاء الاشترخانيون هم بدورهم من المغول من بيت جوجى ، وزعيمهم يعرف باسم قتلق تيمور ذاع صيته حين انتصر عنـد خيوه عام ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) على تختمش الذى أشرنا إليه من قبل فى الحديث عند تيمورلنك ، وكذلك انتصاره على الجيش البولندى . واضطر خلفاء قتلق تيمور هذا الظروف صادفتهم اضطروا الانسحاب إلى خانيه استراخان ، وتعرف كذلك باسم اشترخان ، فنُسب هؤلاء الجنكيزيون إلى ذلك الإقليم . وتعرضوا لهجوم الروس عليهم فيما بعـد فرحلوا عن ديارهم . وهاجر زعيمهم يار محمد خان ومعه ابنـه جانى خان إلى بلاد ما وراء النهر حيث رحب بهم الشيبانى وأصهـروا إليهم . وقد شـــارك هؤلاء الأوزبك حروبهم مع الصفويين . ونودى بابن جانى خان ملكا على بلاد ماوراء النهر بعـد انقراض الشيبانيين ، وكان يجرى فى عروقه دماء الشيبانيين عن طريق المصاهرة على ماذكرنا من قبل ، ويدعى دين محمد خان . وسقط دين محمد خان هذا فى ميدان القتال وهو يحارب قوات شـاه الفرس عباس الأكبر ، وخلفه أخوه باقى محمد خان على عرش بلاد ماوراء النهر عام ١٠٠٧ هـ فى حين ولى أخوه الثانى — ولى محمد خان — ولاية بلخ . وما لبث ولى محمد خان أن خلف أخاه على عرش بلاد ماوراء النهر لوقت قصير ثم عزل وأقيم مكانه إمام على خان . وفر ولى محمد خان إلى إيران لاجئاً عند الشاه عباس الذى أكرم وفادته ثم سير معه ثمانين ألفاً من جند فارس . على أنه ما لبث أن هزم وسقط فى يد أعدائه فقتلوه . وظل إمام قلى مستمسكا بالسلام حتى بلغه مقتل ابنه حين خرج للقضاء على الثائرين فى طقشند، ومن ثم ارتكب مذبحة رهيبة هناك حتى بلغ ارتفاع الدماء فى الطرق رسغ فرسه.

واستطاع قلي خان أن يحتفظ بعلاقات المودة مع فارس فى الغالب وذلك بجهود أخيه نظر محمد خان . وفى عام ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) نزل به المرض فأعلن عن رغبته فى أن يقضى أيامه الأخيرة مجاوراً لمقام النبى الأكرم بعد أن تنازل عن الملك لأخيه ، ومات بالمدينة فى الثانية والستين من عمره .

وتعرض نظر خان بدوره لخروج أبنائه عليه وانفضاض كثير من رجاله من حوله ، وقد انتهى به الأمر بدوره إلى الخروج مهاجراً إلى المدينه المنورة ولكنه مات فى الطريق وخلفه ابنه عبد العزيز ولكنه لم يستطع مقاومة إخوته الآخرين طويلا بعد أن أنهكت قواه فى حروبه المستمرة معهم ، فعزم بدوره كذلك على أى ينزل عن عرشه لأخيه سبحان قلى ويتجه إلى الأراضى المقدسة الحجازية .

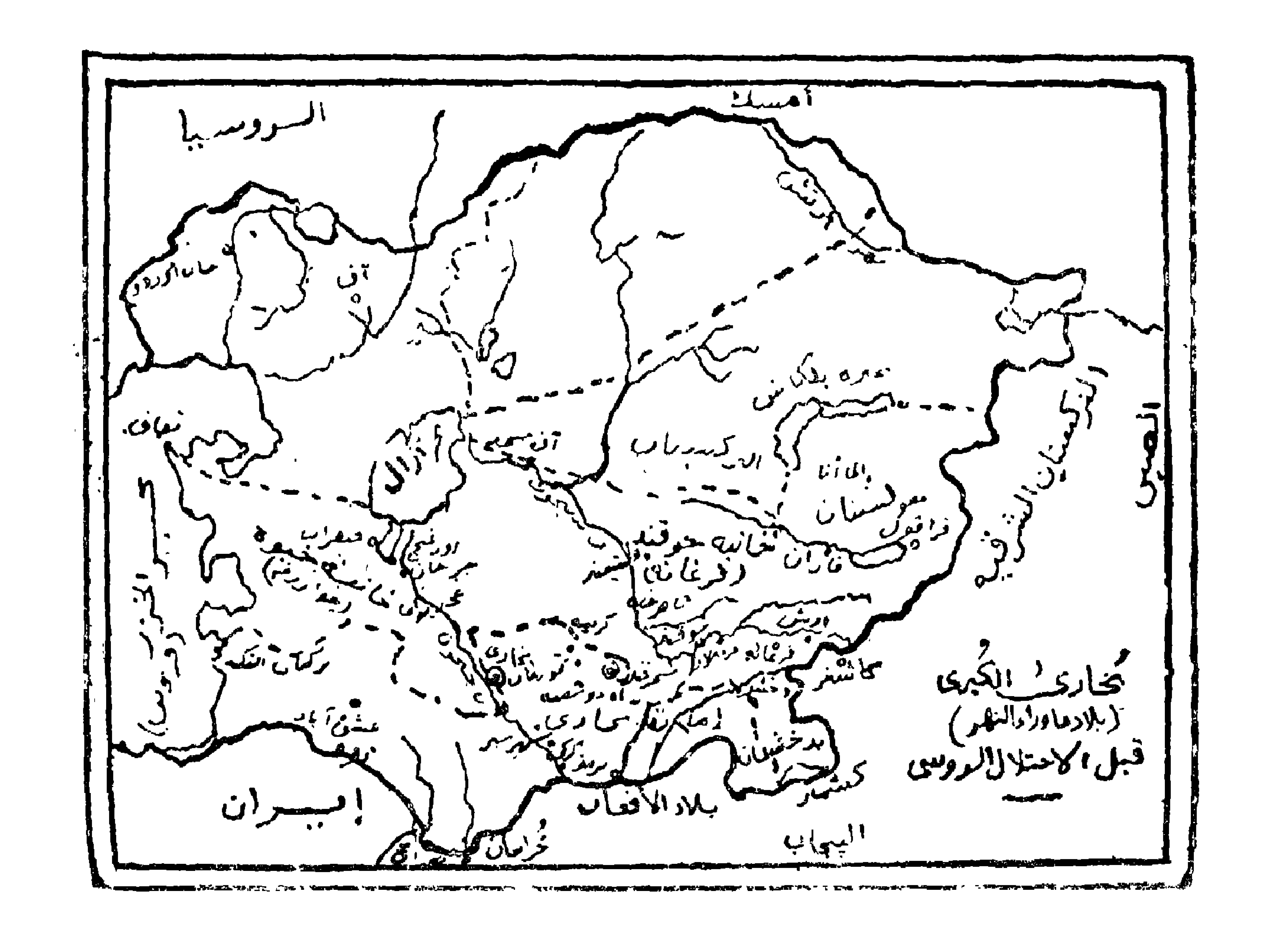
ومما هو جدير بالذكر أن عبد العزيز لقى بإيران كل ترحيب أثناء الطريق ، حتى إذا ما ضرب فى الصحراء تعرضت له عصابة كبيرة من قطاع الطرق حاول جهده معهم أن يتجنب إراقة الدماء حتى عرض عليهم مالا كثيراً . وانتهى الأمر بأن قاتلهم بعد أن قال لهم « فإن مت ففى سبيل الله » وانتصر عليهم وبلغ هدفه فى سلام . وقد وافاه أجله بعد قليل ، بعد أن حكم أربعين سنة ، وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ودفن فى المدينة المنورة إلى جوار أبيه وعمه .

سبحانقلى خان ونهاية الأشترخانين

١٠٩٩ ﻫ — ١١٥٧ ﻫ (١٦٨٠ — ١٧٣٧ م)

ولو سبحانقلى العرش عام ١٠٩٩ ﻫ (١٦٨٠ م) فاشتبك فى حروب مع جيرانه والخارجين عليه من رجاله ومنهم بعض أبنائه . وبعد أن استولى على بلخ آثر مقتنعاً أن يبتعد عن تقليد أبنائه المناصب الهامة فى الدولة فعهد بها إلى فريق من رجاله الآخرين . ونتج عن تلك الحروب الداخلية التى شغل بها أن انتهز خان خيوة جاره الغربى هذه الفرصة فأغار على خانيه بخارى حتى بلغ سمرقند نفسها . على أن سبحانقلى بفضل محمود باى قائده انتصر على أنوشه خان صاحب خيوه فى غجديوان ، ومن ثم انطلق يطارده حتى خوارزم .

واستطاعت بخارى أيام سبحانقلى أن تبلغ إلى تقدير عواهل المسلمين السنيين لها حتى رأينا السفراء يوفدون إليها من ختن البعيدة وكاشغر وبلاد القرم والهند وظل سبحانقلى يحكم حتى بلغ الثمانين من عمره . وأوصى بالملك من بعده لابنه مقيم خان بوصاية أخيه الأكبر عبيد الله وفارق سبحانقلى الدنيا عام ١١٢٤ ﻫ (١٧٠٢ م) واستطاع عبيد الله أخو سبحانقلى أن ينتزع الملك لنفسه ولكنه ما لبث أن قتل وجلس مكانه أخوه أبو الفيض خان الذى آثر الاستكانة ومن ثم طالت مدة حكمه أربعين عاماً كانت السلطة الفعلية فيها بأيدى من يدعى رحيم بى أتاليك زعيم قبيلة المنغيث . وفيما كانت بخارى آخر أيام الاشترخانيين هؤلاء تعانى من الضعف ظهر على مسرح التاريخ « نادرشاه » سلطان فارس الذى وصل بفتوحاته دهلى . ولم يبدأ نادرشاد فى توسيع رقعة بلاده شرقا إلا بعد أن هزم العثمانيين فى جورجيا



بخارى الكبرى
(بلاد ما وراء النهر)
قبل الاحتلال الروسي
الروسيا
الصين
التركستان الشرقية
إيران
بلاد الأفغان
البنجاب
كشمير
بدخشان
كاشغر
خراسان
بحر الخزر (روسي)
آرال
خانية خوقند
(فرغانة)
سمرقند
بخارى

والعراق العربي . وقد بعث كذلك بابنه رضاقلي فاستولى على مدينة بلخ . وقد كافأه أبوه على ذلك بأموال طائلة وهدايا ثمينة . وأراد رضاقلي خان أن يتوغل فى بلاد ما وراء النهر ولكن أبا الفيض صاحب بخارى استنجد بيولبرس خان أمير خيوه القوى الذى رد الفرس عند قارش وأنزل بهم ضربة شديدة حتى لم يتردد نادرشاه بأن يعتذر إلى أمراء آسيا الوسطى بأن ابنه إنما قام بهجومه هذا دون إذن منه وأنه هو بدوره لم يفكر أبداً إلا أن يعيش معهم فى مودة وسلام .

على أن نادرشاه ما لبث من بعد ذلك أن أنزل الهزيمة بشاه خوارزم وأرغم صاحب بخارى على إعلان ولائه له ثم دخل مدينة مشهد دخول الظافرين فأهدى إلى مقام الإمام على الرضا قفلا من ذهب محلى بالجواهر مما غنمه من التورانيين . على أن مكاسب نادرشاه عبر جيحون هذه سرعان ما ضاعت عقب موته وإن نتج عنها القضاء على الاشتراخانيين بعد أن هان أمرهم .

المنغيتيون والأمير معصوم

١١٩٩ — ١٢٤٢ هـ (١٧٨٤ — ١٨٢٦ م)

صار السلطان فى بخارى بأيدى بيت منغيت ابتداء من عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤ م). وابتداء من المنغيتيين هؤلاء يغيم تاريخ بخارى فلا تصل إلينا تفصيلات واضحة عن مجريات الأمور هناك . والمنغيتيون هؤلاء كانوا من الأوزبك وكان موطنهم بعد أن خرجوا من منغوليا عند شواطىء جيحون وقد استعان بهم أمراء خيوه فى حروبهم كما اشتركوا مع شيبانى كذلك فى حروبه . واستقروا من بعد ذلك فى خانيه بخارى وقد صار لهم نفوذ ملحوظ حتى رأينا زعيمهم رحيم باى يتقلد منصب الوزارة عند أبى الفيض ويغتصب السلطة لنفسه . وكذلك صار شأن ابنه دانيال باى . وكان لدانيال هذا ولد يدعى معصوم لزم فى شبابه فرق المتصوفة واستعاض عن ثوب الإمارة بخرقة الدراويش وعرض عليه منصب الوزارة ولكنه تظاهر بالعزوف عنه والاعتكاف فى المسجد . وبالحاح الناس عليه خرج من خلوته فقاد الجند للقضاء على فتن أشاعها من يدعى نياز على بيك أمير شهرسبز. ونتيجة لانتصاره عليه ازداد نفوذه السياسى . وثبّت من هذا النفوذ بين الناس دعوته فى حزم إلى أن يجرى العمل بأجهزة الحكومة كلها على قواعد الشرع وسنته . وما لبث آخر الأمر أن ثار على الأمير أبى الغـازى آخر الاشترخانيين بدعوى تهاونه فى أمور الشرع فعزله ورقى العرش بنفسه عام ١١٩٩ هـ ليتجه من بعد ذلك فى جنده إلى ولايات فارس الشمالية الشرقية . وكانت خراسان إذ ذاك يتقاسمها عدة أمراء متحاربون ، وكانت بلخ أمنع مراكزها . وقد دخلها الأمير معصوم هى ومرو وأنزل بهما خرابا شاملا . حتى إذا ما امتنعت عليه مشهد ادعى أن الإمام قد ظهر له فى الرؤيا وطلب إليه أن يترك مشهد بوصفها مكان استشهاده

وقد ساق الأمير معصوم فى ركابه حشوداً كبيرة من الفرس سكان تلك المناطق بيعوا بيع الرقيق الرخيص فى أسواق بخارى . وقد ظل الأمير معصوم يهاجم ولايات فارس هذه اثنى عشر عاماً . حتى اعتزم شاه الفرس أقا محمد القاجارى أن يضع حداً لاعتداءات معصوم هذا على حدوده بلاده لولا ما كان من زحف كاترين قيصرة روسيا على إيران ومهاجمة أقا محمد خان هذا انتقاماً منهـــا لعصفه الشديد بأهل جورجيا . ولو كان أقا محمد خان قد التقى مع الأمير معصوم فى الميدان لشهد الناس أعجب مشهد للحرب بين طواشى ودرويش مسن ، وكان حرياً بهذين الزعيمين أن يأتلفا لمواجهة عدو آخر قوى اعتزم مهاجمة بلادهم ، وهذا العدو يتمثل فى روسيا التى أخذت تتطلع نحو أواسط آسيا .

ومات الأمير معصوم عام ١٢١٧ هـ . بعد أن حكم ثمـــانية عشر عاما ذاع فيها صيته باستمساكه الشديد بالشرع وإحيائه للسنة ورقابته الشديدة على جميع رعاياه فى ذلك .. وقد كان فى الواقع يكتفى بأبسط الطعام ويقنع بثوب واحد كل عام ويبذل المال الكثير لطلبة العلم والفقراء ، وإن كان هذا لم يمنع فريق كبير من رجاله من أن يعيشوا عيشة البذخ حتى كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الذهب والفضة . وقد نعمت بخارى فى الواقع فى عهده بدرجة كبيرة من الرخاء فضلا عن شيوع العدل بين الناس .

وخلفه ابنه سعيد حيدر توره عام ١٢١٨ هـ باسم الأمير السعيد فسلك سبيل العنف حتى قتل أخاه ناصر الدين وكان يتولى حكومة مرو ، ولم يجد هذا الأمير فتيلا طلبه العون من فتح على شاه القاجارى . وقضى الأمير السعيد ثلاثة وعشرين عاما يحكم فى سلام ويلتزم خلوته ساعات طويلة كل يوم حتى نسبوا إليه كثيراً من خوارق الكرامات .

الامير نصر الله

(١٢٤٢ — ١٢٧٧ هـ (١٨٢٦ — ١٨٦٠ م)

ولى عرش بخارى بعد الأمير سعيد إبنه ، الأمير نصر الله وكان أصغر أبنائه ، ولكنه استطاع بالغدر والوقيعة أن يقضى على إخوته ، وكان يعاونه فى ذلك قوشيجى حاكم باى ومؤمن باى . وما أن استقرت له الأمور من بعد ذلك حتى أنشب مخالبه فى قوشيجى حاكم باى ، ذلك الرجل الذى عاونه حتى جلس على العرش وصادر أمواله وكانت طائلة . وسلك الأمير نصر الله كذلك سبيل العنف مع رعاياه حتى صادر الكثير من أموالهم وبث العيون بينهم يرصدون كل حركاتهم وسكناتهم .

كان هذا يحدث فى بخارى فى الوقت الذى زاد تطلع الروس للاستيلاء على تلك البلاد ، وأخذ البريطانيون بعد أن استولوا على الهند كلها يتطلعون بدورهم إلى بلاد آسيا الوسطى .

فى هذا الوقت كذلك تطلع نصر الله للاستيلاء على أراضى جارته خوقند ، وكان عليها أمير قوى يدعى محمد على خان استطاع أن يصد جموع الصينيين عند التركستان الشرقية وينزل بهم هزيمة كبيرة . وكان مما شد فى عزيمة نصر الله لمهاجمة خوقند ظهور مغامر فارسى يدعى عبد الصمد خان وكان على خبرة باستخدام الأسلحة الحديثة والنظم الحربية الحديثة. واستطاع نصر الله بالفعل أن يرغم صاحب خوقند بالاعتراف بسلطانه وتسليمه مدينة خجند وماحولها . وقد أقام نصر الله على تلك البلاد المفتوحة أخا لغريمه محمد على كان قد لجأ من قبل إلى بخارى . على أن الأخوين ما لبثا أن ائتلفا معا واستردا كل بلادهما التى فقداها . وأعاد نصر الله الكرة مرة أخرى

على خوقند وأنزل بها كثيراً من التخريب والدمار . وكان من نتائج هذه الضربات المتلاحقة بخوقند أن ضعفت مقاومتها للروس حين زحفوا إلى حدودها . ومما يلفت النظر أننا نرى نصر الله حين يبلغه هجوم الروس على جارته خيوه يخرج بدوره فيغزو بعض أراضي تلك الخانية بدلا من أن يأتلف معها لدفع العدو المشترك . وكذلك كان موقف نصر الله مع إيران إذ ذهب يتخطف أراضيها هي وبلاد الأفغان التي كانت إذ ذاك تدفع عنها خطر البريطانيين وكانوا قد قدموا من البنجاب يهاجمون أراضيها .

هكذا نرى روسيا وبريطانيا تصلان إلى مشارف بلاد ماوراء النهر ، هذه من الغرب وتلك من الشرق ، وكانت روسيا قد حاولت من قبل أن تقيم علاقات تجارية وسياسية مع بخارى بوصفها أقوى وأعظم الخانيات هناك. وقدرمى الروس من وراء ذلك إلى أن يفرغوا أول الأمر من الخانيات الأخرى الضعيفة والصغيرة ثم يلتفوا إلى بخارى من بعد ذلك وأدى التنافس بين هاتين الدولتين الاوربيتين لكسب نصر الله صفوفهما أدى ذلك إلى أن زاد من غرور نصر الله ووهمه في قوته فلم يلتفت إلى الأهداف الحقيقية لأولئك المستعمرين ، وقوى من غرور نصر الله كذلك ما بلغه من أخبار الهزائم المتكررة التي أنزلها الأفغان بجيوش بريطانيا حين تعرضت لغزو بلادهم .

وتوالت بعوث الروس والبريطانيين إلى بخارى . وعرض البريطانيون بالذات على حاكم بخارى أن يتحالفوا معه لدفع أى عدوان يتعرض له . ولكنه أعلن لهم بأنه لاحاجة به إلى مثل هذا التحالف وإنما عليهم أن يمدوه بالأسلحة والمال فقط كدليل على صداقتهم له . ولم تخل بعثات بريطانيا وروسيا من التعرض لكثير من

المضايقات فى بخارى حتى قضى بعض أعضاء تلك البعوث فترات طويلة فى سجون بخارى .

وكان نصر الله كلما تقدمت به السن كلما اشتدت قسوته وحنقه ، حتى لم يتردد فى أن يسوق إلى الموت كثيراً من أقربائه وممن وقع بأيديه من أعدائه ، ومات عام ١٢٧٧ هـ بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما .

الامير مظفر الدين والاستعمار الروسى

١٢٧٧ — ١٢٨٧ هـ (١٨٦٠ — ١٨٧٠ م)

خلف مظفر الدين أباه عام ١٢٧٧ هـ . ويعد مظفر الدين هذا آخر عاهل مستقل فى سلسلة الحكام المستقلين الطويلة من مختلف الأسر الحاكمة الذين حكموا فى بخارى لفترة ألف عام ابتداء من السامانيين .

ودخل مظفر الدين هذا فى حروب بدوره مع خوقند بدلا من أن يفكر فى الائتلاف معها فى وجه هؤلاء المستعمرين الذين كانوا يتسابقون فى الاستيلاء على أواسط آسيا . وقد يسر بصنيعة هذا للروس إخضاع خوقند والاستيلاء عليها بقيادة الجنرال بيروفسكى برغم استماتة الأهلين فى الدفاع عن بلادهم . والواقع أن سكان التركستان عموما لم يفرطوا أبداً فى الدفاع ببسالة واستماتة عن كل شبر فى بلادهم. ومن أسف أن حكام وسط آسيا هؤلاء جميعا لم يعملوا على الإفادة من اشتباك الروس فى حرب القرم ليدفعوا عنهم هذا الخطر الداهم فلم يلتفوا إلى محاولات الدولة العثمانية وغيرها معهم لانتهاز هذه الفرصة والاتحاد فى وجه الغاصبين وإبعادهم عن أراضيهم . حتى إذا ما فرغ الروس من حرب القرم وعقدت معاهدة باريس انطلقوا من جديد لتنفيذ خططهم فى الاستيلاء على وسط آسيا بعزم أشد ، فاذا بهم بعد أن توغلوا فى خوقند شمالا يستولون على طشقند . واندفع الروس فى زحفهم من بعد ذلك بقيادة تشرا تاييف فعبروا سيحون عام ١٨٦٦ م ليغسلوا الإهانات التى لحقت بهم بعد ما كان من امتهان مظفر الدين لبعض وفودهم واحتفاظه بجملة من رعايا الروس رهائن عنده . ونفذوا فى الصحراء من بعد ذلك فاذا بهم يجدون

قوات تبلغ عشرين ضعفا بالنسبة لقوتهم فينسحبوا سريعا خوف الجوع والهلاك في الصحراء .

هنالك وهم مظفر الدين أن باستطاعته أن ينزل بالروس هزيمة حاسمة فخرج على رأس جيش كبير بأمل استرداد طشقند ، ولكن الهزيمة نزلت به فلم ينج هو نفسه بحياته إلا بمشقة . وبانتصار الروس في معركة يرجار هذه كتب على تركسان ضياع استقلالها ذلك الاستقلال الذي ظلت تنعم به قرابة ألف عام . وقرن الروس انتصارهم هذا بالاستيلاء على كافة الأماكن المهمة في خوقند كلها ، وصار خدا يارخان حاكم خوقند بدوره تابعا لقيصر روسيا ، وقد فرضت عليه غرامة حربية باهظة وفتحت مدنه للرعايا الروس وصار بطبيعة الحال لا يبرم أمراً دون موافقتهم وفتت هذه الهزائم في عضد مظفر الدين حين بلغته ، وثار سكان بلاده عليه حتى أشاعوا عنه بأنه يتصل بالروس سراً . هنالك برز السكان وأعيانهم وشيوخهم فحملوا جميعا أسلحتهم وقد أجمعوا أمرهم في إصرار على ضرورة الالتحام مع روسيا من جديد لا يرجعون عن حربها حتى الشهادة أو النصر وما لبث الروس بدورهم بعد أن وصلهم إمدادات قوية أن زحفوا في مايو عام ١٨٦٨م على سمرقند يقود مقدمتهم الكولونيل « بتروشفسكي » . وما لبث قائدهم العام الجنرال « كاوفمان » أن دخل المدينة ، وبذلك سقطت تلك المدينة التي كانت يوما ما حاضرة تيمور الفخمة والتي كانت تعد مركزاً ممتازاً من مراكز الثقافة الإسلامية . وأخذت أراضي خانية بخارى نفسها تقع في أيدي الروس . واتجه الروس من بعد ذلك إلى بخارى . وبرغم مقاومة البخاريين الباسلة فقد هزموا عند سربول . وبهذا لقي الأمير مظفر الدين أقسى مصير واضطر أن يعقد الصلح مع عدوه المنتصر الذي سمح له بالاحتفاظ بعرشه في ظل الروس على أن يدفع لهم غرامة حربية طائلة ، كانت هي في الواقع جزية سنوية ، وأن يسمح للرعايا الروس بحرية التجارة في بلاده على رسوم ضئيلة. ولم يرض الأهلون عن هذا الصلح والتفوا حول ابنه وولي عهده. واستطاع مظفر الدين

آخر الأمر بمعاونة الروس أن ينزل الهزيمة بابنه هذا وإن انطلق هذا الإبن من بعد ذلك يمارس حرب العصابات فى الإقليم كله .

هذا وقد بعث مظفر خان بدوره بأصغر أبنائه ويدعى عبد الفتاح ميرزا وكان فى الثانية عشرة من عمره بعث به إلى بطرسبرج ليفصح للقيصر اسكندر الثانى عن ولاء أبيه له وصداقته ، وكان ذلك أواخر عام ١٨٦٩ م .

وهكذا استطاع الروس أن يتوغلوا فى تلك البلاد ويضعوا أيديهم عليها بلداً بعد آخر . ولو كان حكام تلك الأقاليم قد تنازلوا عن غرورهم واتتلفوا معـــاً هم وجيرانهم من حكام الأراضى الإسلامية لاستطاعوا فى الغالب دفع جحافل المستعمرين عنهم كما فعلت دولة الأفغان جارتهم . على أى فإن سكان تلك البلاد ظلوا يجالدون المستعمر سنين طويلة متلاحقة فى بسالة نادرة ، برغم حرب الإبادة التى كان يمارسها الروس منذ أن دخلوا تلك البلاد وطوال العهد القيصرى وماتلاه ، حتى استشهد ملايين كثيرة من المسلمين من أواسط آسيا ، إلى جانب الألوف العديدة الذين نجوا بدينهم فخرجوا يضربون فى الأرض مهاجرين فى سبيل الحفاظ على ملتهم .

٤

بلاد الافغان

« أفغـانســـتان »

تاريخ بلاد الافغان « أفغانستان »

منذ الفتح الإسلامى

لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم الذى تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، وإن ذكرت القبائل الأفغانية فى التاريخ من قديم واشتهرت مواطنها التى تتألف منها هذه الدولة اليوم ، اشتهرت كابل وغزنة بدورها فى التاريخ الإسلامى ، كما اشتهرت هراة بمكانتها المرموقة فى ميادين الثقافة الرفيعة ، فضلا عما لأراضيها وأراضى بدخشان وسجستان من خصب عميم ، وعرفت قندهار بثروتها التجارية وموقعها الاستراتيجى الهام .

تقع بلاد الأفغان عند الركن الشمالى الشرقى من الهضبة الإيرانية الآسيوية ، وإقليمها جبلى شديد الوعورة فى أغلبه تصل مساحته إلى ربع المليون من الأميال المربعة ، وتحيط به فارس وباكستان وتركستان

وفى امة الأفغان ، التى يبلغ تعدادها خمسة عشر مليونا من الأنفس ، تتمثل الشعوب الإسلامية كلها بعروقها خير تمثيل. ففيهم من ينتسبون إلى العرب بل وإلى خير العرب من قريش ، وفيهم من عناصر الترك والفرس والمغول .

وكما تتمثل شعوب المسلمين فى أمة الأفغان فكذلك تتمثل لغاتهم فى البشتو لغة الأفغان الثانية بعد الفارسية ، تجد فيها ألفاظا ومصطلحات من العربية والفارسية والتركية .

هكذا يتمثل المسلمون ، عروقا وألسنة ، فى قلعة الإسلام الشامخة هذه .

وقد كان للافغان ، قبل دخول الإسلام إلى بلادهم ، مساهمة فى حضارة العالم القديم ، كما عرفوا قدراً من حضارة الهند وحضارة إيران ، بحكم الجوار ، وعرفوا

حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءاً من دولة بقطريا التى أقامها قواد الإسكندر المقدونى فى تلك الأنحاء .

وأول ما دخل الإسلام بلاد الأفغان فى القرن الأول الهجرى ، فلقد فتح المسلمون العرب بلاد فارس أيام ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب كما هو معروف مشهور . حتى إذا ما ولى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء أمر المسلمين . وجدنا عبد الله بن عامر عامله على البصرة يبعث بقائده عبد الرحمن لغزو سيستان، فلا يرجع من غزوته هذه حتى يبلغ جبال الغور ويدخل كابل فيأسر أميرها البدهى (البوذى) ويحطم كل ما صادفه فى طريقه من أوثان البدهيين ، ومنها ما كان من ذهب محلى بالجواهر . وقد استسلمت له كذلك نيسابور وهراة ومرو .

واشتدت غزوات المسلمين فى هذه النواحى أيام الأمويين حتى بلغت آسيا الوسطى وتخطت حدود الهند ، وذلك بحسن تدبير القائد العربى المعروف الحجاج بن يوسف الثقفى بخاصة . واستقر على أثر هذه الغزوات كثير من أفخاذ القبائل العربية فى البلاد المفتوحة استقروا فى بلاد وراء النهر وفى إقليم السند وفى خراسان ومنازل الأفغان . ولم ينتج عن استقرار العرب بهذه المناطق انتشار الإسلام بين الأهلين هناك على نطاق واسع فحسب ، بل لقد ظهر كذلك من بعد ذلك بوقت قصير طبقة من أبناء هذه البلاد المفتوحة تجيد العربية وتشتغل بعلوم اللغة والقرآن والحديث .

وهنا نشير إلى حقيقتين هامتين : الأولى ، هى أن العقائد التى كانت تسود هذه المناطق ، من بوذية وزراشتية وغيرها ، كانت تقوم على نظام الطبقات حتى كان الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم على أتباعها مجالسة غيرهم أو مطاعمتهم ، فضلا عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد بأتباعهم . فحين أقبل الإسلام فوجد فيه الأهلون المساواة التامة ، لافضل فيه لعربى على عجمى إلا

بالقوى ، أقبلوا على الدخول فيه دون إكره . نقول دون إكراه ونستشهد فى ذلك بما ذكره المستشرق بارتولد فى كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية من تشدد المعتصم العباسى فى عقاب نفر من المسلمين كانوا قد تعرضوا لمبدمن معابد المجوس ببلاد الصغد . والحقيقة الثانية ، هى أن ما من بلد دخله الإسلام إلا وتحول أهله فى الغالب عن لغاتهم وعقائدهم وعاداتهم إلى لغات المسلمين وعقائدهم ورسومهم

وخلف العباسيون الأمويين ، وفى عهدهم بدأت تظهر الدويلات الإسلامية المستقلة فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية . فظهر الطاهريون ثم الصفاريون الذين بسطوا سلطانهم على كابل وهراة وطبرستان ، وخلفهم السامانيون فضموا إلى ملكهم أراضى كثيرة فى بلاد ماوراء النهر . وكان من بين عمال الدولة السامانية أمير يدعى سبكتكين كان يحكم ولاية غزنه الأفغانية فى القرن الرابع الهجرى .

وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة أفغانية إسلامية هى الدولة الغزنوية التى اضطلعت بدور من أعظم أدوار التاريخ الإسلامى .

فقد استطاع سبكتكين مدة حكمه القصير أن يمد حدود دولته حتى البنجاب ويضم اليه خراسان وأجزاءاً من بلاد ماوراء النهر . وخلفه ابنه يمين الدولة محمود الغزنوى أعظم سلاطين المسلمين لعصره . ولايرجع إلى محمود الفضل فى نشر الإسلام ببلاد الأفغان كلها فحسب ، بل وفى الهند كذلك التى خرج إليها غازيا مجاهداً سبع عشرة مرة فى مدى سبع وعشرين عاما إبتداء من آخر القرن الرابع الهجرى . ولم يغر محمود ماعرضه عليه الهنادكة من أموال طائلة ليفتدوا بها أوثانهم، وهو فى جهادة لنشر الإسلام ببلادهم ، ورد عليهم بمقالته المشهورة بأنه يؤثر أن يقال عنه بأنه محطم الأصنام على أن يقال عنه بأنه بائع الأوثان .

وهنا نعرض لحادثة مهمة ، ذلك أن المستعمرين البريطانيين ، حين دخلوا كابل في القرن الماضي ، عمدوا إلى نقل بعض حجارة منها إلى الهند انطلقوا بها يزعمون للهنادكة بأنها من بقايا معابدهم التي خربها محمود الغزنوي قبل ذلك بألف عام ونقلها إلى بلاده ليدخلها في بناء مساجده . أراد البريطانيون بصنيعهم هذا أن يزيدوا من الوقيعة بين الهنادكة والمسلمين بالهند ، لكن أمرهم ماغدا أن افتضح وظهر كذب ماادعوه .

وفي عهد محمود ، الذي امتدت دولته من شرق الهند حتى فارس ، صارت حاضرته غزنه الأفغانية مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فكان ببلاطه جمهور كثير من رجال العلوم والآداب والفنون ، نذكر من بينهم العلامة أبا الريحان البيروني والعتبي المؤرخ ثم الفردوسي أعظم شعراء الفرس جميعاً .

وتعرضت الدولة الغزنوية لهزات عنيفة في عهد خلفاء محمود بسبب حروبهم مع السلاجقة والغز ، حتى ورثهم الغوريون الأفغان في القرن السادس الهجري . وكان هؤلاء الغوريون هم خير جند الغزنويين أيام مجدهم .

وإذا كان بمحمود الغزنوي يبدأ دور الحكم الاسلامي بالهند ، فبجهود الغوريين انتشر الإسلام هناك على نطاق واسع ، واستقرت الحكومة الإسلامية التي ظلت بأيدي سلاطين من الأفغان حتى أوائل القرن العاشر الهجري حين انتقلت مقاليد الأمور إلى أيدي الدولة المغولية التي أقامها هناك الأمير التيموري ظهير الدين محمد بابر . وفي عهد هؤلاء الأمراء الأفغان ازدهرت الهند حكماً وحضارة ومدنية .

وتعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولي التي نزلت بالعالم الإسلامي على أيدي جنكيز خان وأولاده ، وأصاب الخراب أغلب مدنه . وظلت بلاد

الأفغان تخضع لأبناء جنكيزخان الذين كانوا يحكمون فى فارس باسم الايلخانيين حتى ظهور تيمور لنك . وفى عهد الايلخانيين بدأت الحضارة الإسلامية تنتعش من جديد . فمن الحقائق المقررة أن جموع الترك والمغول المخربة ، بعد أن دخلوا فى الإسلام ، انقلبوا بفضل الحضارة الإسلامية إلى بناة المدنية ، حتى ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهاراً ملحوظاً نجد مثاله عند الايلخانيين المغول فى فارس الذين تُرجم كثير من المؤلفات فى عصرهم ، أى فى القرن الثامن الهجرى، إلى اللاتينية بأوربا ، وفى آثار تيمور لنك وأولاده من بعده ببخارى وسمرقند وهراة .

واستطاع تيمور لنك أن يقيم له دولة امتدت من قلب الروسيا حتى ضفاف الكنج الهندى . وصحبت انتصاراته الحربية الكثيرة هذه نهضة حضارية واسعة لم يشهدها القسم الشرقى من الدولة الإسلامية من قبل .

وفى عهد الأمراء التيموريين عمرت هراة الأفغانية بالمنشآت الضخمة من مساجد ومدارس ودور الشفاء وغيرها . وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقصدها مشاهير الفقهاء والحكماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والنقاشون (أى المصورون) ، أولئك الذين أفادت الإنسانية جمعاء مما خلفوه من تراث فوائد جليلة . وكانت هـــذه المدينة هى كذلك أعظم مراكز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى فى هاتيك الأوقات ، حتى رأينا الأمير التيمورى ظهير الدين بابر يقول عنها ، فى سيرته القيمة المعروفة ببابر نامه ، بأنها كانت أعظم مدن العالم المسكون إذ ذاك .

وفيما كان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم فى هراة التى بلغ نشاطها الحضارى والثقافى ذروته فى عهده ، كان ابن عمه ظهير الدين بابر يحكم فى كابل وغزنه . وظل بابر فى بلاد الأفغان ماينوف على العشرين عاماً ، حتى تم له حتلم

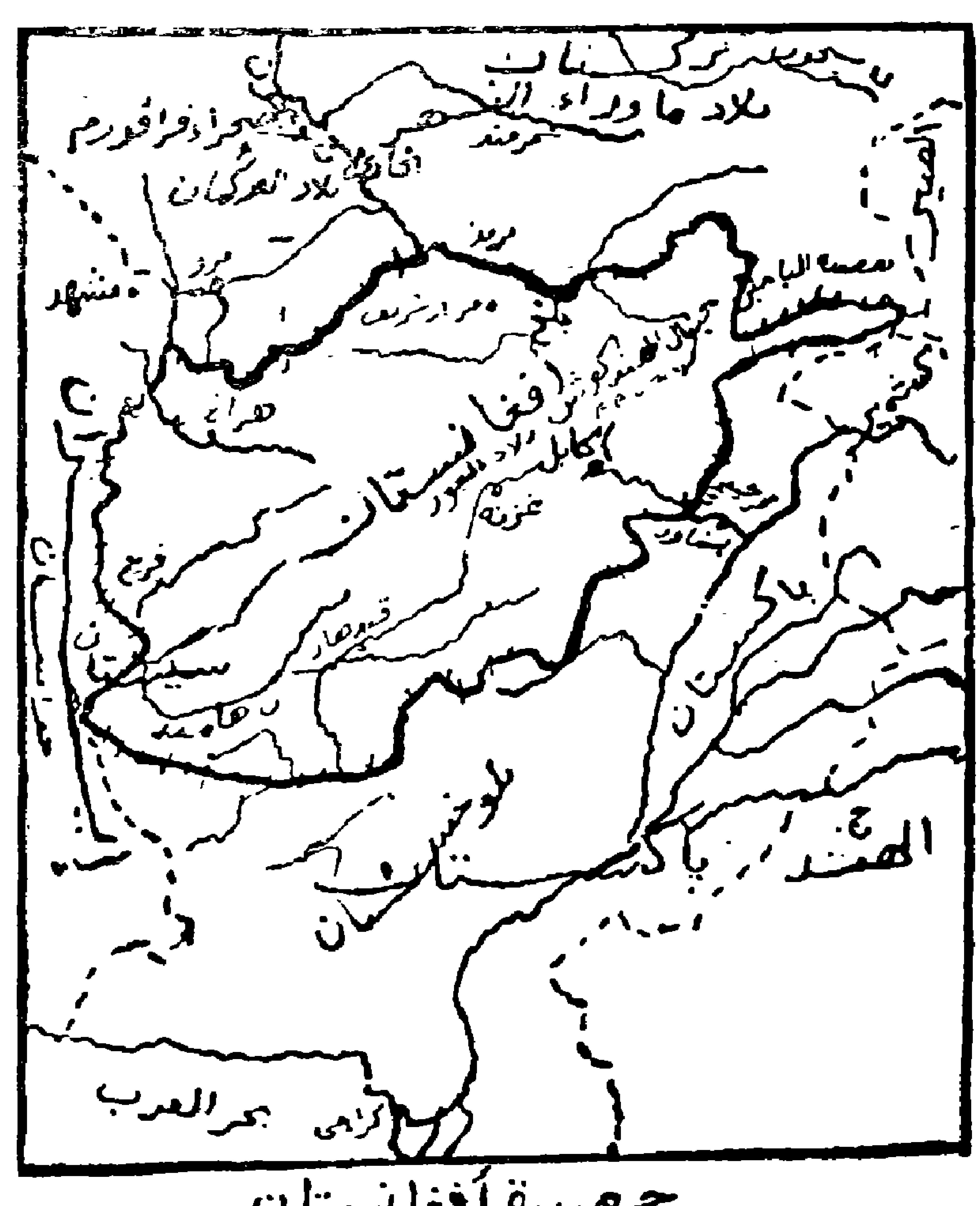
الربع الأول من القرن العاشر الهجرى الاستيلاء على الهندستان، أى شمال شبه القارة الهندية كله ، حيث أقام دولته التى تعرف فى التاريخ باسم الدولة المغوليه ، فظلت تحكم الهند أكثر من ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون عليهم . وفى عهد الدولة التيمورية هذه شهدت الهند أعظم أدوار الحضارة بها .

ولم ينس بابر ، حين تم له الجلوس على عرش الهند ، أن يبعث بقطعة من النقود الفضية تذكاراً منه إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة طفلا أو شيخاً حرا أو عبدا . ولا يفتئ ، وهو بالهند يتغنى بمحاسن كابل ، فلا يقيم جملة من الرياض على نمط مغانيها اشتهرت باسم البساتين الكابلية فحسب ، بل نراه كذلك يوصى بأن يدفن بهذه المدينة ، وكان له ما تمناه فثوى على ربوة تطل على بلده الحبيب .

ظلت بلاد الأفغان تعد فى الغالب جزءاً من الدولة التيمورية أى المغولية بالهند يرى فيها أصحابها موطن أبيهم الأكبر وحصنهم الذى يلوذون به حين تتهددهم الأخطار .

حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغولية بالهند، انطلق حكام الفرس يتخطفون بعض الأراضى الأفغانية فى حين أخذت بعض القبائل الأفغانية بدورها تتطلع إلى الاستقلال ببلادها وتطمح إليه .

واستولى على مقاليد الحكم بفارس ، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى ـــ القرن الثامن عشر الميلادى ـــ نادرشاه الأفشارى مكان الصفويين ليجتاح من بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند فيدخل دهلى وينزل بها . من الدمار والخراب أكثر مما أنزل بها تيمور لنك من قبل ، ويستولى على ما بها من ثروات وأموال طمع من ورائها إلى إعداد جيش قوى يكف به خطر العثمانيين عن بلاده .



جمهورية أفغانستان

وكان نادرشاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى جنده، وكان من بينهم فتى فى الرابعة عشرة من عمره يدعى أحمد قتل أبوه وجده فى حروبه معهم ، وكان من زعماء الأبداليين الأقوياء . وسرعان ما وصل هذا الفتى بطموحه وجده إلى قيادة فرقة الأبداليين الأفغان بالجيش الفارسى ، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء .

وحين قتل نادرشاه ، بتدبير من القاجاريين فى جيشه ، سارعت الفرقة الأفغانية تشق طريقها عائدة إلى بلادها . هناك نودى بقائدها أحمد فى قندهار أميراً على بلاده باسم أحمد شاه الأبدالى الدرانى ، وكان إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره ، فكانت دولته هذه هى أول دولة فى التاريخ تعرف باسم الدولة الأفغانية .

وسار أحمد شاه هذا فى حكمه سيرة عدل ألفت القلوب من حوله ، ولم يكن يبرم أمراً دون مشورة زعماء القبائل فى بلاده .

وما إن تم له إرساء قواعد الحكم حتى انحدر إلى سهول البنجاب فخاض غمار حروب متكررة عند دهلى وما حولها هدف من ورائها الى دفع خطر الجماعات التى كانت تكيد للدولة الاسلامية هناك من المرهتها والسك وغيرهم .

وأعظم هذه المعارك هى التى كسر فيها مائتى ألف من محاربى المرهتها الأشداء فى سهل بانى بت ، وكان هؤلاء قد زحفوا من وسط الهند وجنوبها بغية القضاء على الدولة الاسلامية هناك .

ولولا ما تعرض له أحمد الأبدالى من متاعب ، بسبب تفشى المرض فى جنده وضعف موارده المالية ، حتى اضطر إلى الرجوع إلى بلاده ، لكان قد استطاع فى أغلب الظن أن يعيد للحكومة الاسلامية هناك سابق هيبتها

ويعوّق بلا شك استعمار البريطانيين الشمال الهندى بعد أن كانوا قد تغلغلوا فى الشرق والجنوب .

وسار أبناء أحمد شاه من بعده سيرته فحاول تيمور شاه وزمان شاه فى غزوات متكررة إقرار الأمور فى إقليم البنجاب أهم أقسام باكستان الحالية .

ولم يكن البريطانيون بعد أن تم لهم دخول دهلى ليسكتوا على وجود الأفغان الأشداء بالبنجاب ، وهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء لم يقدموا الهند إلا لشد أزر المسلمين أخطر أعدائهم بها .

هنالك عمد هؤلاء المستعمرون إلى أسلحتهم الاستعمارية المشهورة . فما زالوا بشاه فارس حتى حملوه على مهاجمة بلاد الأفغان ، فلم ينته الحال إلى انسحاب الأمير الأفغانى من الهند فحسب ، بل لقد خُلع كذلك عن عرشه بتحريض منافسيه عليه .

حتى إذا ما جلس على عرش الأفغان الأمير القوى درست محمد أوائل القرن التاسع عشر ، عزم البريطانيون على غزو تلك البلاد التى تعد أقوى قلاع المسلمين بآسيا إذ ذاك ، وكان قد تم لهم تثبيت أقـــدامهم بالهند وتنظيم انتهاب خيراتها وثرواتها . هنالك انبروا يظاهرون شاه شجاع الملك فى منافسته لأمير الأفغان الجديد على العرش حتى سيروا معه فريقاً من رجالهم وأمدوه بأسلحة حديثة خاض بهـا عدة معارك انتهت بانتصار درست محمد انتصاراً حاسمـا . وقرن الأمير الأفغـانى انتصاراته هذه بفوز آخر ، كُتب له عند حدوده الغربية ، إذ دفع عنها خطر الفرس الذين كانوا قد أقبلوا يهاجمونه بتحريض من الروس وعون منهم .

صالح دوست محمد البريطانيين كما صالح الروس بدورهم كذلك ، وكانت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية قد أخذت تتساقط بأيديهم الواحدة بعد الأخرى فضلا عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس .

ولم يعترف البريطانيون بموقف الحياد الذى التزمه أمير الأفغان بازاء المنافسة الشديدة التى قامت بين روسيا وبريطانيا فى هذه المنطقة ، حتى زعموا أن المندوب الروسى فيتكوفتش لم يكن ليمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية لولا تأييد دوست محمد له ، وتذرعوا بهذه الحجة فزحفوا على بلاد الأفغان .

ولئن كان قد تم لهؤلاء المستعمرين دخول كابل وإجلاس ربيبهم شجاع الملك على عرشها بعض الوقت، فان ارادة الأفغان كانت أمضى من أسلحة الاستعمار إذ قاموا قومة رجل واحد فلم يكتفوا باخراج هؤلاء الدخلاء وصنيعتهم من العاصمة فحسب ، بل وتمكنوا كذلك ، على قلة عددهم ، من أن يبيدوا فى بعض المواقع جيوشاً بريطانية بأكلها ، كما حدث عند « خورد كابول » حيث أبيد جيش بريطانى بأكمله قوامه عشرون ألفاً من الجند المجهز بأحدث الأسلحة ، فلم ينج من رجاله جميعاً إلا طبيب شاب يدعى « بريدون » استطاع أن يصل إلى سادته فى جلال آباد ليخبرهم بالكارثة التى نزلت بجيش الامبراطورية التى لم تكن تغرب الشمس عن أملاكها .

وعاد البريطانيون إلى بلاد الأفغان من جديد طلباً للثأر فنزلت بهم الهزائم ، وسقط الوطنيون على ربيبهم شجاع الملك فقتلوه ، فلم يروا بدا آخر الأمر من مصالحة دوست محمد والاعتراف به أميراً على الأفغان .

وما إن مات الأمير عام ١٨٦٢ م وخلفه ابنه شير على حتى عمد البريطانيون إلى محاولة التدخل فى شئون هذه البلاد من جديد بحجة تأمين حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها . والواقع أنهم كانوا هذه المرة يمهدون لتنفيذ خطة بعينها ، رسمها دزرائيلى داهيتهم المشهور ، ترمى إلى مهاجمة الروس فى آسيا الوسطى لو تعرضت الآستانة إذ ذاك لخطر استيلائهم عليها . وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٧٨ م من دخول كابل مرة أخرى فى جيوش كثيفة ، وفر من وجههم أميرها شير على حيث وافاه أجله بعد ذلك .

ولم يقبل الشعب الافغانى أن يولى عليه يعقوب خان بن شير على ، على أن تقوم إلى جانبه بكابل بعثة بريطانية . فانطلق يقاوم المحتلين فى كل مكان حتى قتل كل أعضاء بعثة الاستعمار وأنزل بقوات الاحتلال خسائر كبيرة وهزائم متكررة اضطرتهم إلى الجلاء من فورهم .

هنالك قبض على أزمة الحكم الأمير عبد الرحمن ، حفيد دوست محمد ، فمضى فى عزم وحزم يقر الأمور ويشيع الأمن فى بلاده ويصلح نظم الحكومة وينظم الجيش ويوفر له عدده وأسلحته حتى وفاه أجله عام ١٩٠١ م

وخلفه ابنه حبيب الله خان فسار سيرته ، وآثر أن يهادن البريطانيين إبان الحرب العالمية الأولى حتى رفض أن يستجيب إلى نداء العثمانيين والالمان مع ما بذلوه من جهد لحمل الأفغان على حرب البريطانيين بدعوى الجهاد . ولم تقدر له بريطانيا صنيعه هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الافغانية بدعوى تأمين حدود الهند .

وقتل هذا الأمير عام ١٩١٩ وهو فى مصطاده بلمغان دون أن يهتدى أحد إلى قاتله . ويعد حبيب الله خان رائد النهضة الحديثة فى بلاد الأفغان بلا نزاع .

وخلفه ابنه أمان الله خان . وبجهود هذا الأمير تحقق لبلاد الافغان استقلالها الكامل ، إذ استرد بقوة السلاح كافة الأراضى التى كان البريطانيون قد انتزعوها ، وبلغ إلى أن اعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام ، وضمنت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد عن طريق الهند ، ووافقت على إنشاء شقة حرام بين حدوده وحدود الهند .

هكذا بعثت حكومة الأفغان لاول مرة بالسفراء الرسميين إلى الدول الأخرى ووثقت من علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا وتركيا الحديثة وايران . واهتم أمان الله خان ملك الأفغان اهتماماً بالغاً بتنظيم حكومته ونشر التعليم ، وعنى عناية شديدة

بتعمير بلاده ، كما وضع أسس الحياة الدستورية بها ،غير أنه نزع إلى تقليد مصطفى كمال أتاتورك فى نبذ بعض التقاليد الإسلامية وجهر بذلك فى رحلته المشهورة التى خرج فيها عام ١٩٢٨ م إلى بعض البلاد الشرقيـة والغربيـة . حتى إذا ما عاد إلى بلاده ثار عليه فريق من قومه ومعهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بخروجه من بلاده . هنالك سارع إلى بلاد الأفغان محمد نادر شاه ، أحد أبنـاء عمومته ، وكان يعانى من المرض الشديد بالخارج ، فقضى على أسباب الثورة وسار فى حكم أمته على مقتضى العـدل والحزم ملتزماً قواعد الشرع متمسكاً بمـكارم الأخلاق والتقاليد الإسلامية . وتجلت همة نادر شاه فيما بذله من جهود النهوض بالبلاد من جديد بعد تلك الفتنة العارمة التى كانت قد أنهـكت قواها واستنزفت مواردها ومحمد نادر شاه هذا هو الذى قاد جيوش الأفغان فى حربها مع البريطـانيين عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، فهو بحق بطل استقلالها . وقد اغتالته يد أثيمة عام ١٩٣٣ .

وخلفه ابنه محمد ظاهر شاه فسار سيرته فى تدعيم الحيـاة الدستورية والنهوض بالجيش ونشر التعليم وتقوية اقتصاديات البلاد وتعميرها واستثمار ما بأرضها من ثروات ، فضلا عن توثيق علاقاتها بجيرانها بعامة وبالبلاد الإسلامية بخاصة .

وفى ١٧ يوليو عام ١٩٧٣ أعلنت أفغانستان إلغاء نظام الحـكم الملـكى وقيام الجمهورية ، ورئيسها الحال هو الرئيس محمد داود .

يشير بعض الـكتاب إلى قيام أوجه الشبه بين سويسرا الأوربية وبلاد الأفغان فى الناحيتين الطبيعية والسياسية . وقد يكون الأمر كذلك من حيث قيـام التماثل الطبيعى بين البلدين فى أكثر من ناحيـة ، وهو ما لا نريد أن نتعرض له فى مقامنا هذا .

أما من الناحية السياسية فهناك اختلاف بيِّن من ورائه حقيقة هـامة لا نغفل عنها . ذلك أن الدول الأوربيـة قد اصطلحت مختـارة على احترام سويسرا ، أما

بالنسبة لبلاد الافغان فالأمر مختلف جداً . فالدول المحيطة بها ومنهم المستعمرون فى آسيا ، هؤلاء جميعاً ، لم يتفقوا أبداً على احترام استقلال هذه البلاد بقدر ما ارغموا على ذلك ارغاماً . فتاريخ الأمة الأفغانية يظهرنا على أن الخلافات الداخلية عندها لم تصل أبداً إلى حد تعريض كيان الوطن الافغانى للخطر أو تبلغ إلى التفريط فى حريته والتواطىء مع الأجنبى الدخيل .

وخير مثال لتقديس الأفغان لمعانى الحرية والاستقلال نراه فى تلك الرسالة التى حملها جمال الدين الأفغانى حين انطلق يجاهد فى سبيل يقظة الشعوب الإسلامية وينفخ فيها من روح الجهاد ويحرضها على طلب الحرية والتفانى فى سبيلها .

ولقد رأينا كيف باءت بالفشل كل المحاولات التى بذلها المستعمر لطى بلاد الأفغان تحت نفوذه ، فضاعت له جيوش بأكلها فى غزواته المتكررة ، وعلم أبناء الأمة الافغانية ، ببسالتهم وضراوتهم فى القتال واستماتتهم فى الدفاع عن بلادهم ، علّموا المستمر بذلك كله كيف يحترم مشيئة الأحرار الذين رفضوا على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات لقبوله فى بلادهم .

٥

تركيا

(ابتـداء من قيـام الدولة العثمـانية
حتى قيـام الجمهـورية التركيـة)

تركيا

لئن كان الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل التركية بأواسط آسيا على أيدى الفاتح العربى قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى ، وأخذ نفر من الترك يلتحقون ببلاط بعض الخلفاء العباسيين فكان منهم جند المعتصم العباسى ، وكان منهم عمالا للخليفة العباسى على بعض ولايات الدولة كالطولونيين ، والاخشيديين فى مصر ، إلا أن الإسلام الجماعى للترك لم يبدأ بصورة واضحة إلا أيام السامانيين الفرس الذين كانوا يحكمون فى بلاد ما وراء النهر وخراسان على ما أشرنا إلى ذلك من قبل(١) . ومن بين جموع الترك هذه كان القره خانيون ،وهم من الغزُ الذين كانت منازلهم تمتد إلى بحر الجزر والذين أقبلوا بدورهم على الدخول فى دين الله أفواجا فى القرن الرابع الهجرى، وقد شهروا جميعا بتمسكهم الشديد بتعاليم الإسلام والحدب على نصرته وتفانيهم فى الدفاع عنه .

وكان السلاجقة — الذين تحدثنا عنهم كذلك من قبل(٢) — من بين قبائل الغزُ بدورهم كذلك . وحين أخرجوا من ديارهم فى أرض الخزر سارت بجموعهم إلى بلاد ماوراء النهر وخراسان حيث أسسوا لهم دولة عظيمة ضمت فارس والعراق وآسيا الصغرى وأغلب بلاد الشام .

العثمانيون :

هم أصلا أبناء قبيلة قاى من بين قبائل غزُ الخزر الذين كانوا قد نزحوا إلى خراسان وهاجرت هذه القبيلة من مواطنها الجديدة هذه مرة أخرى هربا من

---

(١) أنظر ص ١٤٢ ، ١٤٣ من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٨٦ .

وجه المغول ـــ حين أخذوا يجتاحون بلاد العالم الإسلامي بقيادة جنكيزخان وأولاده ـــ فاستقرت حينا من الزمان بآذربيجان ، ومن ثم اتجه فريق منهم قوامه أربعمائة من الأسر التركية إلى آسيا الصغرى . وفيما هم سائرون بالأناضول وجدوا جيشين غير متكافئين يقتتلان ، وهناك انضم رئيسهم أرطغرل برجاله إلى الجيش الذي يكاد ينهزم ، فانتصر بهم على جند الغزاة المغول وطردهم من أراضيه .

وكافأ السلطان السلجوقي ، صاحب قونيه ، منجده أرطغرل بإعطائه أرضا واسعة هي سهول سكودا الخصبة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر سقاريا وسفوح جبال أرمينيا وهضابها على تخوم أملاك الدولة الرومانية الشرقية التي تعرف أيضاً باسم الدولة البيزنطية .

وكان من أثر معاونة أرطغرل ورجاله لسلطان قونية السلجوقي ، في حروبه مع البيزنطيين والمغول وحسن بلائهم في تلك الحروب ، أن نصب نصيره الجديد هذا أميراً على مقاطعة إسكي شهرمه على حدوده مع البيزنطيين .

واتخذ الأمير الجديد الهلال ـــ شارة سيده ـــ شعار له على أعلامه وبنوده ، وهو الرسم الذي لا يزال يخفق على رايات الترك وبعض الدول الإسلامية حتى اليوم .

وفي عام ٦٥٦ هـ ـــ ١٢٥٨ م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه تلك الدولة العثمانية التي ضمت الأناضول فيما بعد وامتدت إلى بعض الأراضي الأوربية . وصار سكان هذه الأراضي الترك يعرفون بالتالي باسم العثمانيين .

وفي عام ٦٩٩ هـ - ١٣٠٠ م هاجم المغول آسيا الصغرى من جديد فهرب من وجههم آخر سلاطين السلاجقة لاجئا إلى امبراطور بيزنطه الذي غدر به وقتله عام ١٣٠٧ م ، ومن ثم سارع عثمان إلى بسط سلطانه على الإمارات التركية الأخرى بآسيا الصغرى ، وصارت السكة تضرب باسمه والخطبة

تجرى له ، كما تسلم من حمية الشيخ أدب عالى شيخ الطرق الصوفية منطقة الجهاد والسيف بوصفه غازيا مجاهدا فى سبيل الله وصار من رسوم ولاية سلاطين العثمانيين باستانبول فيما بعد أن يقلدوا سيف عثمان من قبل أمام جامع الصحابى أبى أيوب الأنصارى هناك وبذلك تتم البيعة لهم .

وأخذ عثمان يوسع من رقعة أراضيه بالتوغل فى أراضى البيزنطيين حتى بلغ شوطىء البحر الأسود وبحر مرمره ، كما فتح له ابنه أورخان مدينة بروسه فاتخذها قصبة له ، وقد ثوى بها عام ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م حين وافاه أجله هناك .

أورخان : وواصل أورخان الحرب مع البيزنطيين حتى أصبح أغلب الشمال الغربى من آسيا الصغرى فى حوزة العثمانيين بما فيه من سهول خصبة ومدن عامرة كبيرة وما لبث . أن قامت كذلك علاقات ود وصداقة استمرت أمدا طويلا بين أورخان والإمبراطور البيزنطى أندرونيكوس وبعض خلفائه .

وجنح أورخان إلى السلم فترة من الزمان مقدارها عشرين عاما صرفها فى إرساء قواعد ملكه وتنظيم الحكومة وإصلاح أداة الحكم وتطوير الجيش .

واستبان لأورخان فى حروبه مع البيزنطيين الحاجة الشديدة إلى جند المشاه النظامى المدرب فأنشأ فرق الإنكشارية ، أى الجند الجديد . ورجال الإنكشارية وهم أساسا من أبناء النصارى الذين فقدوا آباءهم فى الحرب ، فكان يختار من بينهم ألف صبى ، ينشئون، بعد تلقينهم تعاليم الإسلام ، على أحدث النظم الحربية والمبادىء العسكرية الصارمة فى ذياك الزمان وقد ألحق بصفوفهم فيما بعد من أبناء الأتراك أنفسهم كذلك . وعرف هذا الجند بالبسالة النادرة والشجاعة وشدة المراس فى الحروب .

ولكنهم، على مرور الزمن، ركبهم الغرور فتطلعوا إلى الاستيلاء الفعلى على السلطة فى الدولة حتى قضى عليهم السلطان العثمانى محمود الثانى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى.

وكان أورخان هو أول سلاطين آل عثمان الذى اتخذ زيا موحدا لجنده، كما صار للأتراك بجهوده جيشاً منظما وذلك قبل أن تعرف أوربا الجيوش النظامية على أيدى شارل السابع ملك فرنسا بعد ذلك بقرن. واستطاع سليمان بن أورخان أن ينفذ بجنده الأتراك إلى الأراضى الأوربية لأول مرة فاستولى على غاليبولى وأرسخ أقدام العثمانيين فى تراقيا. ومات سليمان قبل أبيه الذى أمر بدفنه على ساحل الدردنيل الذى اجتازه العثمانيون بقيادته من قبل إلى أوربا لأول مرة.

وتوفى أورخان عام ٧٦١ هـ — ١٣٥٩ م فى الخامسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ستة وثلاثين عاما.

مراد الأول:

وخلف مراد الأول أباه أورخان فاتجه إلى توسيع رقعة أراضى دولته فى أوربا وما لبثت أن دخلت قواته مدينة أدرنة وانتزعتها من أيدى البيزنطيين. وقد اتخذ العثمانيون هذه المدينة عاصمة لهم ابتداء من عام ٧٦٨ هـ — ١٣٦٦ م حتى سقوط القسطنطينية بأيديهم. كذلك استولى العثمانيون على مقدونيا ودخلوا سالونيك وصار شمال اليونان كله يخضع لهم، كما سقطت مدينة صوفيا حاضرة الصرب بأيديهم، واقتحموا بلغاريا حتى بلغوا بحدود دولتهم منطقة الدانوب عام ٧٩١هـ - ١٣٨٨م.

كذلك استطاع مراد أن يستولى على كل الإمارات الباقية التى قامت على أنقاض السلاجقة بآسيا الصغرى ومنها انقره وقونيه وقرمان وقرمه سى.

وقدم إلى مراد فى حربه مع الصربيين أحد أمرائهم متظاهراً بالاستسلام

له وتمكن من طعنه طعنة نجلاء . وبرغم اصابته الشديدة فقد ظل يدير دفة القتال حتى وقع ملك الصرب نفسه فى يده أسيراً ، فلفظ أنفاسه وهو يتلو حكم الإعدام على خصمه .

بايزيد الاول :

خلف أباه مراد عام ٧٩٢ هـ — ١٣٨٩ ، فانطلق إلى تقوية حصونه فى آسيا الصغرى بعد ما بلغه من اخبـــار انتصارات تيمورلنك واجتياحه لأغلب الممالك الإسلامية فى آسيا .

فى هذه الأثناء قامت دعوة صليبية جديدة فى أوربا لطرد العثمانيين من أملاكهم الاوربية ، فتقاطر إلى بلاد المجر جموع كثيفة من الجند الألمانى والباڤارى والفرنسى والروسى ، وقادهم سيجسموند ملك المجر لحرب العثمانيين الذين خاضوا معهم عدة معارك ضارية ردوهم فيها على أعقابهم بعد أن أنزلوا بهم خسائر فادحة هائلة ، حتى لتقول الرواية بأن السلطان العثمانى جلس من الفجر إلى الساعة الرابعة بعد الظهر أمام فسطاطه حتى تم إعدام أمراء جميعا . هذا إلى جانب أشراف الأوربيين الذين افتدوا أنفسهم بأموال طائلة .

وعقد بايزيد العزم على فتح القسطنطينية هذه المرة . وفيما كان هو يحاصرها بقواته جاءته الأنباء بظهور تيمورلنك عنـد حدود دولته الشرقية وسقوط مدينة سيواس التركية فى يده .

وبرغم استبسال العثمانيين فى حربهم مع عدوهم فقـــد انتهى الأمر بهزيمتهم وسقوط بايزيد نفسه فى أيدى تيمورلنك الذى أحسن معاملة خصمه فى الغالب حتى بعث برسالة عزاء إلى أبناء بايزيد حين بلغه خبر وفاته فى العام التالى (١٤٠٣م) .

محمد الأول :

قام النزاع على الحكم بين أبناء بايزيد عقب وفاة أبيهم ورحيل تيمور عن عن بلادهم ليتحول من بعد ذلك إلى نشوب المعارك بينهم طول سنين عشرة حتى أفلح أحدهم وهو الأمير محمد فى أن يقضي على هذه الفتنة وينفرد من بعد ذلك بالأمر كله عام ٨١٦ هـ - ١٤١٣ م فكان من خيره سلاطين آل عثمان ، أحبه رعاياه جميعا من الأوربيين والأتراك على السواء .

وقد منى السلطان محمد الأول بهزيمة بحرية كبيرة على أيدى أسطول البنادقة فى بحر ايجه عام ١٤١٦ كما فشل كذلك فى غزوه للمجر فيما بين عامى ١٤١٦ و ١٤٢٠ م . وتعرض كذلك لفتنة داخلية عارمة قادها بعض الدراويش وأدعياء التصوف ، ولكنه قضى عليها بعد جهد شاق طويل . ووفاه الأجل عام ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م بعد أن تم له لم شعث الدولة التى كانت تمزقت على أيدى تيمورلنك ، وأصلح ما أفسدته حرب الوراثة مع اخوته ، هذا فضلا عما عمره من مساجد ومدارس وما بذله من جهود لرواج سوق العلوم والآداب فى عهده على ما يشهد له به فون هامر المؤرخ النمساوى المشهور وغيره .

مراد الثانى :

وما إن خلف مراد الثانى أباه على العرش حتى عقد العزم على فتح القسطنطينية. وكادت حاضره البيزنطيين هذه أن تقع فى يده لو أن اضطر إلى الانصراف عنها لإخماد ثورة أخ له صغير فى آسيا بتحريض من البيزنطيين .

وانتهز أمراء الصرب والبشناق والأفلاق والمجـــر فرصة انشغال السلطان بثورة القرمانيين بآسيا الصغرى فزحفوا فى جيش عظيم يقوده هونياد البطل المجرى الشهير لحرب السلطان العثمانى ولكن مراد استطاع أن

ينزل بهم هزائم شديدة متتالية ختمت آخرها عام ١٨٤٨ م بخضوع الصرب كلها للسلطان العثمانى .

وتعرض مراد فى سنى حكمه الأخيرة لمتاعب جمة جرها عليه الثائر الألبانى الذى يشتهر باسم اسكندر بك . وهذا البطـــل ، الذى ما يزال الألبان يقدسونه ذكراه حتى اليوم كرمز لاستقلالهم ، قد ظل يناضل العثمانيين عن بلاده قرابة خمس وعشرين عاما دوّخ فيها جند مراد ثم جيوش ابنه محمد الفاتح من بعده .

هذا ويعد عصر مراد الثـانى هذا بداية النهضة الفـكرية عنـد العثمانيين ، إذ طفقت الآداب والفنون التركية تأخذ مكانها إلى جانب نظائرها الفارسية والعربية ثم تحل محلها من بعد ذلك بالتدريج .

محمد الثانى (الفاتح) :

توفى مراد الثانى بأدرنة عام ١٤٥١ فخلفه ابنه محمد الثـانى ، المعروف بمحمد الفاتح ، ولم يكن يعدو الحادية والعشرين من عمره .

وفيما كان السلطان الجديد منهمكا فى القضاء على ثورة جديدة قام بهـــا أمير القرمان إذا بقسطنطين الحادى عشر إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية يتهدده باطلاق سراح الأمير أورخان حفيد بايزيد وشد أزره فى المطالبة بعرش آل عثمان ما لم تضاعف الدولة الجعل الذى كانت تدفعه إلى بيزنطه لقاء احتفاظها بهذا الأمير عندها .

وأثارت مطالب الإمبراطور البيزنطى هذه ثائرة السلطـان العثمانى ، فما أن انتهى من القضاء على ثورة القرمانيين حتى رجع إلى أوروبا وفى عزمه أن يفتح القسطنطينية ، حاضرة البيزنطيين ، تلك المدينة الحصينة العظيمة التى طالما استعصت على العرب والأوربيين لقرون طويلة . وذهبت بددا كل جهـود البيزنطيين .

يعاونهم البنادقة وحلفاؤهم فى تدمير الأسطول التركى وتخريب الطريق البرى الذى أنشأه العثمانيون بين البسفور والقرن الذهبى ، وكانوا قد سيروا عليه السفن التركية فوق أساطين خشبية تدحرجت بها حتى مياه القرن الذهبى لتشارك فى حصار المدينة. وقد عدت خطتهم هذه من أبرع الخطط الحربية فى التاريخ .

ونجح العثمانيون آخر الأمر فى اقتحام الأسوار من خلال نقب فيها فتدفقوا إلى المدينة ليخوضوا عند ذلك معركة ضارية قتل فيها الإمبراطور البيزنطى قسطنطين باليولوغوس وقائده جستنيان . وحين دخل السلطان محمد الفاتح المدينة وسط النهار منتصراً قصد من فوره إلى كنيسة أيا صوفيا ، فصلى بها الظهر ، فصارت منذ ذلك اللحظة مسجداً جامعاً للمسلمين حتى جعل الأتراك منها متحفاً أيام أتاتورك .

ولم تقف فتوحات محمد الفاتح عند هذا الحد حتى أخضع بلاد المورة وقضى قضاء تاماً على استقلال الصرب . وكان فى نيته من بعد ذلك أن يغير على ألمانيا وايطاليا ويدخل روما كما دخل استانبول لولا ما كان من انشغاله الطويل بحرب الثائر اسكندر بك فى ألبانيا ، تلك الحرب التى طال أمدها ولم تنته إلا بعد موت اسكندر بك نفسه .

ولم تمنع محمد الثانى حروبه الأوربية عن أن يقصد حدوده الآسيوية فيبعد عنها خطر التركمان وزعيمهم أوزون حسن الذى كان يبسط سلطانه على بلاد فارس .

واستسلم لمحمد الفاتح كل جزر الأرخبيل اليونانى بدورها . ولئن لم يفلح فى الاستيلاء على جزيرة رودس من أيدى فرسان القديس يوحنا ، إلا أن قائده أحمد كدك فاتح القرم قد استطاع أن ينزل على شواطىء ايطاليا الجنوبية ويستولى عنوة على أوترنتو ، وإن لم يستطع خلفاء السلطان أن يحتفظوا بها طويلا بعد موته .

ولم تصرف هذه الحروب الكثيرة محمد الفاتح عن التفاته إلى شئون بلاده فأقام بها جملة من المنشآت من بينها مسجده الشهير ، كما جدد مسجد أبي أيوب الأنصاري ، وهو المسجد الذي كان سلاطين العثمانيين يقلدون فيه سيف جدهم عثمان عقب ارتقائهم العرش . وألحقت بهذه المساجد مكتبات زودت بالكتب في مختلف الفنون والآداب والعلوم العربية والتركية والفارسية ، وقام إلى جوارها دور العلم ومنازل للعلماء والطلاب فضلا عن دور الشفاء والمطاعم التي أبيحت للفقراء بالمجان.

وارتقت الثقافة في عهد محمد الفاتح حتى فاقت عنده نظائرها في كثير من أقطار العالم الأخرى . وبلغ من كلفه بها أن طلب من جمهورية راجوزه ، على شاطىء الادرياتيك ، أن تدفع له الجزية المفروضة له عليها مخطوطات مختلفة تُجمع من إيطاليا وكان شديد الإعجاب بنهضتها إذ ذاك .

ووافاه أجله عام ١٤٨١ م وكان في الثانية والخمسين من عمره .

بايزيد الثاني :

ودخل بايزيد هذا في نزاع مع أخيه الأمير جم انتهى بالتجاء جم عند المماليك المصريين الذين طالما أمدوا بالعون نفراً من الخارجين على الدولة العثمانية عند حدودهما المشتركين حتى وقعت الحرب أخيرا بين الفريقين . ودارت الدائرة على الترك عند حلب أول الأمر ولكنهم أفلحوا من بعد ذلك في صد المماليك حين توغلوا في أراضيهم . وزادت حدة التنافس فيما بعد بين العثمانيين والمماليك على زعامة العالم الإسلامي حتى انتهى الأمر بسليم بن بايزيد إلى الاستيلاء على بلاد الشام ومصر .

وعظم شأن البحرية العثمانية في عهد بايزيد الثاني هذا ، فاشتبك الأسطول التركي مع البنادقة عام ١٤٩٩ فدحرهم واستولى على لبانتي ومسينا وذلك بفضل قبطانه الشهير «كمال ريس» الذي سبق له أن أغاث مسلمي غرناطة ،

فى جلاء المسلمين عن الأندلس ، فنقلهم بسفنه إلى شمال أفريقية . هذا كما قاتل هذا الملاح كذلك أساطيل البابا وأسبانيا والبندقية فظهر عليها جميعا . ولم يدفع بايزيد إلى قبول الصلح مع البنادقة إلا بداية ظهور الخطر الشيعى عند حدوده الشرقية على أيدى الشاه اسماعيل الصفوى الذى خلف التركمان فى فارس .

وكان بايزيد شديد الكلف بالعلم عظيم الرعاية للطلاب والعلماء حتى شهر باسم السلطان الصوفى .

سليم الأول :

لم يرتق سليم الملقب بياوز سلطان ، أى السلطان المهول ، عرش آل عثمان بوصية من أبيه بايزيد وإنما انتزعه منه انتزاعاً بعد أن تمرد عليه وخلعه ، ليعمل من بعد ذلك السيف فى رقاب اخوته وجملة من أمراء أسرته خوف خروجهم عليه . وقد اتهمه البعض بدس السم لأبيه وإن يكن الغالب أن بايزيد قضى بأمراض الشيخوخة . وهال السلطان سليم نجاح دعاة الشيعة ، من لدن سلطان فارس الشاه اسماعيل الصفوى ، فى نشر مذهبهم فى كثير من ولايات الدولة العثمانية الشرقية ، فتعقب معتنقى هذا المذهب من سكان بلاده حتى قتل أربعين ألفاً منهم . والمؤسف أن الشاه الصفوى كان بدوره لا يقل عن سليم عنفاً فى معاملة من يرفضون الدخول فى مذهبه حتى قتل من هؤلاء الرافضين مئات الألوف فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وفيهم جملة من أعلام العلماء والأئمة الفقهاء ، هو أمر لامه عليه بعض مؤرخى الفرس أنفسهم .

واستقر رأى السلطان العثمانى على غزو بلاد فارس . والتقى الجيشان الجراران ، العثمانى والفارسى ، بوادى چالدران بين بحيرة أرمية وتبريز بآذربيجان ، أواخر عام ١٥١٤ م فى معركة رهيبة انتهت بفوز السلطان سليم

فوزاً باهراً على خصمة الشاه اسماعيل الصفوى الذى كاد أن يقع في يده بعد أن جرح فى الميدان . وكان مما ساعد السلطان سليم فى هذا النصر استخدامه للمدافع والبنادق والعجلات الحربية ، وهى أسلحة كانت قد اخترعت لتوها فعرفها العثمانيون واستخدموها فى حروبهم قبل أن تصل إلى أيدى الفرس وقد سارع الاوربيون من بعد ذلك يمد الفرس بتلك الأسلحة الحديثة يحاربون بها العثمانيون بغية الحد من زحفهم المتواصل المتكرر فى أوربا .

وكانت دولة المماليك المصرية — القوة الثانية الكبرى فى الإسلام يومئذ — تتاخم الدولة العثمانية ، قد أخذت تحالف أعداء العثمانيين ، ومنهم الشاه الصفوى، وترحب كذلك بالتجاء أمراء آل عثمان ، الناقين على سلاطينهم ، إليها . وكان من بين هؤلاء اللاجئين الأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم نفسه .

ووقعت الحرب آخر الأمر بين السلطان سليم والغورى سلطان مصر فى رجب عام ٩٢٢هـ — ١٥٦٦م عند مرج دابق على مقربة من حلب ، وانجلت عن هزيمة المماليك ومقتل السلطان الغورى نفسه .

ومالبث السلطان العثمانى أن ظهر عند أبواب القاهرة فهزم السلطان المملوكى طومان باى ثم شنقه .

وأقام الفاتح التركى بمصر ثمانية أشهر وضع أثناءها نظاما لحكم البلاد يكفل بقاء خضوعها للدولة العثمانية وعدم استقلال أحد بأمرها . فعهد بمقاليد الحكم إلى سلطات ثلاث حتى يقوم التنافس بينها فيشغلون فيه عما سواه ، وهى : الوالى نائب السلطان العثمانى ، والحامية التركية ، والمماليك حكام المديريات الاربع والعشرين . على أن المماليك سرعان مااستعادوا سالف نفوذهم ، فكان كل مايربطهم بالدولة العثمانية هو قبول الوالى التركى عندهم ودفع الجزية المفروضة عليهم .

وقد نهب السلطان سليم كثيراً من ذخائر مصر ونفائسها ، وصحب معه إلى القسطنطينية ألفا من مهرة أصحاب الحرف والفنون، كما أرغم المتوكل، آخر الخلفاء العباسيين ، وكان يقيم بمصر ، على التنازل له عن خلافة المسلمين ، فصارت من ذلك الحين إلى سلاطين آل عثمان حتى نهاية أسرتهم على أيدى كمال أتاتورك حين نهض ببلاده أواخر الربع الأول من القرن العشرين . وهكذا عاد سليم إلى بلاده بعد أن تم له الاستيلاء على العراق وبلاد الشام ومصر وتسلم مفاتيح الكعبة وبويع بالخلافة .

وكان سليم حفيا بالعلم والعلماء مولعا بالآداب والتاريخ ، حتى نظم بنفسه ديوانا بالفارسية . كما حرص كذلك على أن يصحبه فى أغلب فتوحاته بعض المؤرخين ليدونوا أخباره ، وكان من بينهم المؤرخان المشهوران ابن كمال باشا وادريس بك .

سليمان القانونى :

هذا السلطان ، الذى خلف أباه سليم عام ٩٢٦هـ — ١٥٢٠م وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، هو بحق أعظم سلاطين آل عثمان ، إذ شهدت هذه الدولة إبان حكمه أزهى عصورها فى تاريخها السياسى والثقافى والحرفى على السواء .

وانتزع سليمان جزيرة رودس من أيدى حماتها فرسان القديس يوحنا ، تلك الجزيرة التى طالما استعصت على أسلافه من قبل وفيهم محمد الثانى نفسه فاتح القسطنطينية. كما اقتحم مدينة بلغراد واستولى على بلاد المجر ودخل عاصمتها بودابست عام ١٥٢٦ . ولم يكتف بهزيمة النمساويين وحلفائهم عام ١٥٢٩م،وكانوا قدطمحوا إلى استرداد المجر من أيدى العثمانيين ، حتى زحف إلى مدينة فينا حاضرة النمسا وفى خطته من بعد ذلك أن يواصل زحفه حتى نهر الراين . واستطاع سليمان بالفعل أن يقتحم أسوار المدينة الحصينة برغم تركه لمدافعه الثقيلة ببلغراد . وظل جند

الترك برد النمساويين عن خطوطه برغم بسالتهم واستماتتهم فى القتال حتى نزلت بهم خسائر فادحة فى رجالهم ومعداتهم . وما إن جاء الشتاء ببرده القارس حتى اضطر سليمان بسبب نقص المؤن كذلك أن يرجع عن المدينة إلى بلاده ، فكان ذلك أول فشل حربى يلقاه فى حياته ، وكانت فينا هى آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوربا ، إذ شغلوا من بعد ذلك عنها بحروبهم مع الفرس أعدائهم الأشداء إذ ذاك . وخاض سليمان معارك متكررة مع الفرس حتى عام ١٥٥٤م كلفته خسائر كثيرة فى الرجال والعتاد بسبب حسن بلاء الفرس ووعورة مسالك بلادهم .

وصار سليمان كذلك أسطولا بحريا ضخماً قويا نشر سلطانه مهابا فى بحر الروم والبحر الأحمر حتى المحيط الهندى . والمعروف أن سليمان كان قد بعث إلى بحار الهند الغربية ببعض سفنه لتساعد سلطان الكجرات محمود بيكر إذ ذاك فى حربه مع البرتغاليين الذين كانوا قد بدأوا يقيمون لهم قواعد حربية على شواطىء المحيط الهندى فى زحفيهم الاستعمارى المعروف إلى تلك المناطق .

وظهر فى الدولة جملة من أمراء البحر العظام وفى مقدمتهم خير الدين بربروس الذى صار له أيام السلطان سليم سطوة عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط حتى استولى على جملة من ثغور شمال أفريقية وأخضع بلاد الجزائر لنفوذ الدولة العثمانية ، كما التحم بمراكز الإسبان القوية فى خليج الجزائر فهزمهم واستولى على سفنهم جميعا .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى أنزل هذا الملاح التركى الهزيمة القاسية بأسطول شارلكان ، كما أغار على سواحل ايطاليا ، ثم تعاون من بعد ذلك مع القرصان التركى المشهور سنان على انقاذ سبعين الفا من مسلمى الأندلس فنقلهم إلى الجزائر .

وقامت الحرب بين الدولة والبنادقة بسبب اعتدائهم على السفير العثمانى عندهم، وانضم البابا وشارل الخامس بأساطيلهم إلى البنادقة ، وبرغم ذلك فقد أنزل خير الدين بالأساطيل الثلاثة مجتمعة هزيمة ساحقة بالبحر الادرياتى عام ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م استولى على أثرها على ممتلكات البنادقة فى بحر إيجه حتى سواحل اقريطش (كريت) ولزم خير الدين من بعد ذلك استانبول ، فأخذ هذا القبطان الأكبر يشرف على شئون البحرية فى مقامة الجديد هناك وافاه أجله عام ١٥٤٦م ، فدفن على ضفاف البسفور الذى طالما أبحر منه مرات ومرات لينشر من نفوذ العثمانيون فى البحار .

وبفضل قوة الأسطول العثمانى وكفاية قباطنته ، من أمثال بيرى ريس وسيد على وبياله وطرغود ، بسطت الدولة نفوذها على شواطىء بلاد العرب وعندعدن والخليج الفارسى حتى سواحل الهند وتحطمت أساطيل الأوربيين المجتمعة فى البحر الابيض فى وقائع بحرية متكررة .

وتعرض سليمان من بعد ذلك إلى بعض المآسى العائلية الأليمة ولكنه تحملها فى شجاعه وصمت . ومنها خروج بعد أولاده عن طاعته حتى اضطر إلى إخضاعهم بقوة السلاح . وقد ساهم فى اشعال نار هـــذه الفتنة بعض نساء السلطان من الاجنبيات .

وفيما كان السلطان فى إحدى حروبه بالمجر داهمه المرض حتى قضى أجله فى الخامس من أغسطس عام ١٥٦٦م . وقد أخفى الصدر الأعظم خبر موته حتى تم النصر للجيش العثمانى واطمأن إلى جلوس سليم الثانى بن سليمان على عرش آل عثمان خليفة لذلك السلطان العظيم الذى بلغت الدولة العثمانية الاوج فى عهده فعم نفوذها البحار الثلاثة : الاسود والابيض والاحمر ، وامتدت رقعتها من مكة المكرمة وعدن فى الجنوب حتى بوادبست فى الشمال ، ومن بغداد شرقا إلى الجزائر وحدود مراكش غربا . هذا إلى جانب تعمير

سليمان لبلاده بالطرق ثم المنشآت الفخمة من المساجد والمدارس والرباطات ودور الشفاء التى أقامها له سنان معمار الترك الأكبر . وسنان هذا هو الذى تم على يديه تحويل كنيسة أيا صوفيا تحويلا نهائيا إلى مسجد جامع وألحق بها جملة أبنية فخمة على الطراز الفارسى .

غير أن سليمان - فى سبيل حرصه على النهوض بالاقتصاد والتجارة ببلاده - عمد إلى منح التجار الأجانب من الأوربيين بعض الضمانات التى توفر الأمن والطمأنينة لهم ومنها حق التقاضى أمام قناصلهم ، وصارت هذه الامتيازات فيما بعد حقا مشاعا ثابتا لكل النزلاء الأجانب بكل أراضى الدولة العثمانية وكل الأقطار التى يشملها نفوذها ، فجرت بذلك على شعوبها كثيراً من المتاعب والأضرار الفادحة . وكانت تركيا هى أول دولة كذلك تخلصت من نير هذه الامتيازات الأجنبية بعد أن تم لكمال أتاتورك تحريره لأراضيها ، وتبعتها فى ذلك البلاد الشرقية الأخرى .

وولع سليمان بالثقافة حتى نظم الشعر ودون سيرته فى تفصيل وصدق ووضوح وقد ضمنها حروبه وكافة أعماله .وفى عهده ظهر جملة من الأدباء والمؤرخين المعروفين

بداية ضعف الدولة العثمانية :

بدأ الضعف يدب إلى الدولة العثمانية عقب وفاة السلطان سليمان القانونى عدا فترات قليلة كانت تستعيد فيها نشاطها العسكرى القديم .

ويرجع هذا التفسخ والضعف فى هذه الدولة إلى أسباب متعددة منها ما هو خارجى ومنها ما هو داخلى . فمن الأسباب الخارجية التى أدت إلى انتقاص مساحات واسعة من أراضى الدولة لاسيما فى أوربا هو ظهور طائفة من القواد الأكفاء فى المجر والنمسا وبولنده ثم ظهور الروسيا على مسرح التاريخ قوية ذات خطر . أما العوامل الداخلية التى كانت تفت فى عضد الدولة فكان مردها إلى إختلاف الأجناس

والعقائد فى ولاياتها الواسعة . ولقد دخل نفر غير قليل من المسيحيين فى الإسلام إلا أنهم لم يذوبوا فى البوتقة التركية . وحين فتح الترك أبواب الترقى أمام هؤلاء حتى وصل نفر منهم إلى مرتبة الصدارة العظمى والوزارة ، وجدنا الرشوة والخيانة تتفشى فى عهدهم بأنحاء البلاد ، وإن لم يمنع ذلك من القول بأن نفرا منهم قد خدم الدولة باخلاص وصدق . هذا وقد عرف الترك بتسامحهم مع غيرهم من غير المسلمين فى بلادهم حتى تمتع بطريرك الروم باستانبول عندهم بسلطان ونفوذ أكثر مما كان له فى بيزنطة نفسها وذلك بشهادة المؤرخين الأوربيين أنفسهم .

كذلك رحب العثمانيون باليهود الذين كانوا قد نزحوا من الأندلس ، هربا من الاضطهاد الذى تعرضوا له عقب سقوط حكومة المسلمين هناك ، فنزل عشرون ألفا منهم بالروملى غرب أستانبول . ولم يمض غير القليل حتى صار لهم نفوذ مخرب بالدولة التى آوتهم .

وانصرف أمراء آل عثمان بعد موت السلطان سليمان إلى التناحر فيما بينهم والالتفات إلى شهواتهم فى الغالب ، مما أسقط من هيبتهم فى نظر الناس وبين صفوف الجند على وجه خاص ، فعانت الدولة بذلك من الهزائم والاندحارات المتتالية التى دفعت بها إلى حافة الهاوية .

سليم الثانى :

ويلقب بالمجنون إذ عرف إلى جانب ضعفه بميله الشديد إلى المجون وإفراطه فى تناول الشراب ، ولكن كان من حسن طالع الدولة أنه كان لا يزال على قيد الحياة فيها رجال أقوياء من رجالات السلطان سليمان أمسكوا بمقاليد الحكومة فى جزم على خطة عاهلهم السابق الكبير .

وما لبث يهود الروملى القادمين من الأندلس أن عرفوا طريقهم إلى قصر السلطان الماجن سليم الثانى حتى عهد إليهم بشئونه المالية .

وفى عهده استولى العثمانيون على جزيرة قبرص بعد أن ظهروا على أساطيل البابا وأسبانيا والبندقية . وساد الهدوء البحر الأبيض من بعد ذلك مدة ربع القرن .

مراد الثالث :

وخلف هذا السلطان أباه سليم . وكان بدوره ضعيفاً حتى صارت مناصب الدولة فى عهده تباع لصاحب العطاء الأكبر . وما لبث الفرس فى عهده أن هاجموا أراضى الدولة ، ولكن جند الترك ما طفق أن انطلق يخترق القوقاز ويفتح تفليس ثم يهاجم تبريز وبلاد فارس فلم يرجع عنها حتى أعلن الشاه الصفوى عباس الأكبر تنازله للعثمانيين عن آذربيجان والكرج وجزء من لورستان مع تعهده بالكف كذلك عن الخلفاء الراشدين الثلاثة : أبو بكر وعمر وعثمان ، فى بلاده .

وبوفاة مراد الثالث يظهر على عرش عثمان جملة من السلاطين الضعاف هم : محمد الثالث ، وفى عهده ثار الانكشارية على ولاة الدولة فى دمشق وبغداد ، كما ثار على الدولة فى عهد خلفه السلطان أحمد الأول الأمير جانبلاط الكردى ، واضطر السلطان عثمان الثانى من بعـــده إلى مصالحة البولنديين عام ١٦٠٢م بسبب تمرد الإنكشارية عليه ، وقد تم لهؤلاء المتمردين من بعد ذلك خلع السلطان وتولية السلطان مصطفى نصف الابله مكانه ، حتى صار الامر بعد قليـــل إلى السلطان مرادالرابع .

وفى هذه الفترة تعرضت الدولة إلى كثير من المتاعب إذ استرد الفرس حدودهم القديمة واستولوا على بغداد ، كما بسط الامراء المعنيين ، أصحاب الامير فخر الدين المعنى ، نفوذهم على لبنان وكل شواطىء الشام حتى أنطاكية .

مراد الرابع :

واستقرت أمور الدولة على يد مراد هـــذا بعد أن قضى على تمرد جديد للانكشارية قتل منهم فيه ألوفا عدة . ومن ثم خرج لقتال الفرس فاسترد منهم بغداد كما قضى على ثورة الامير فخر الدين المعنى بلبنان . ولم يطل الاجل بمراد بعد إنتصاراته هذه إلا عاما واحدا فمات عام ١٦٤٠م

وولى الملك من بعد مراد الرابع جملة من السلاطين الضعاف فى الغالب حتى ظهور السلطان محمود الثانى فى القرن التاسع عشر الميلادى . ولكن كان من حسن طالع العثمانيين أن أتاح الله لهم ، منذ وفاة مراد الرابع حتى نهاية القرن السابع عشر أسرة البانية كانت قد إستوطنت استانبول وقد عرف رجالها بالكفاية والحزم والذكاء ، فأمسكوا بزمام الدولة فى قدرة فائقة وشكيمة قوية تلك هى الاسرة التى تعرف فى التاريخ باسم أسرة كوبريلى وقد عرف عهد هذه الاسرة فى التاريخ باسم عهد سلطة الوزراء ، وقد إمتد على مدى خمسين عاما فيما بين عام ١٦٤٠م وعام ١٦٩١م .

فما إن جاء السلطان إبراهيم ، خلفا لمراد الرابع ، وبان عجز قوات الدولة فى الاستيلاء على جزيرة اقريطش (كريت) حتى ثار الجند على ذلك السلطان الذى عرف بانصرافه لشهواته وتبديده لاموال الدولة ، فعزل ثم قتل عام ١٠٥٨هـ ١٦٤٨م .

وفى عهد خلفه محمد الرابع ، وكان لا يزال صبيا، نزلت بالدولة هزائم متكررة فى أوروبا وآسيا ، ودحر الاسطور التركى نفسه على أيدى البنادقة الذين نزلوا عند شواطىء الدردنيل وطفقوا يتهددون العاصمة نفسها .

وبهمة أم السلطان ولى شئون الحكومة وزير سابق مجرب حكيم هو محمد كوبريلى الذى إستطاع فى فترة وجيزة أن يصلح من شئون الحكم فى حزم قوى ،

كما طرد البنادقة عن الدردنيل فى معركة برية حاسمة سقط فيها قبطان البنادقة نفسه كما إسترجع للدولة بعض جزر الأرخبيل .

وخلف أحمد كوبريلى أباه فى رئاسة الدولة ، فسار على رأس جيش كبير إقتحم به البلقان حتى كاد يبلغ مدينة فينا ، ولكنه اضطر آخر الأمر إلى التراجع أمام جموع الجيوش الأوروبية المتحدة ، ليستولى من بعد ذلك على جزيرة اقريطش ويهزم البنادقة هناك ، ثم يعود إلى البلقان من جديد فينتزع من البولنديين بادوليا وأوكرانيا ويلزمهم بدفع جزية سنوية كبيرة للدولة .

وولى الصدارة من بعد ذلك قره مصطفى ولكنه كان دون أسلافه كفاءة وعزيمة وإذ بيت فى نفسة الاستيلاء على مدينة فينا عمد على توثيق صلته ببولنده ، وجدد علاقاته الوديةمع فرنسا ، كما صالح الروسيا، وكان قد دخل معها فى عراك شديد بسبب قوازق أوكرانيا ،فتنازل لها عن مدينة كييف . ثم عبر من بعد ذلك إلى الدانوب فى جيش كبير وضرب الحصار حول فينا ، وكانت حاميتها ضعيفة وأسوارها متداعية قديمة . وآثر قره مصطفى أن ينتظر خارج المدينة مضيقا الخناق عليها حتى تستسلم له سلما فتكون من نصيبه وحده وقد أضاع بجشعه تلك الفرصة المواتية إذ سرعان ما هب البولنديون والألمان لنجدة النمساويين حلفائهم ، فلم يستطع قره مصطفى من بعد ذلك أن يجمع شتات جيشة المنهزم إلا عند بلغراد . وكان من أثر تلك الهزيمة أن ضاع من الدولة المجر وأوكرانيا وسلافونيا وبلغراد ، كما أستولى البنادقة على المورة ودخلوا أثينا نفسها .

وثار الجند على السلطان بسبب تلك الهزائم حتى أرغموه على التنازل عن العرش إلى أخيه سليمان الثانى الذى عهد بالصدارة إلى مصطفى كوبريلى . وقد سار هذا الوزير على نهج أسلافه من أسرة كوبريلى فى الحكم ، فأعاد تنظيم أداة الحكم وأصلح

أجهزة الإدارة والمال بها . واسترد للدولة نيس وبلغراد كما زحف على المجر ولكنه قتل فى تلك الحرب .

وحاول السلطان مصطفى الثانى عام ١٦٩٥م أن يسترد للدولة ماضاع من أرضين لكنه أصيب بالهزيمة أمام النمسا والروسيا واضطر آخر الأمر إلى قبـــول صلح كارلوفتز المشهور عام ١١١٠هـ ١٦٩٩م ، وفى أثرة أخذت هيبة العثمانيين الحربية تضمحل وتسقط فى أعين أعدائها .

وعاد السلطان مصطفى الثانى من بعد ذلك إلى أدرنه ليواجه ثورة عليه عارمة أطاحت به وأجلس مكانه أخوه السلطان محمد الثالث .

العثمانيون وحروبهم مع الروسيا :

كان من أهم العوامل التى ساعدت على تفسخ الدولة العثمانية وضعفها ابتداء من القرن الثانى عشر الهجرى الموافق الثامن عشر الميلادى نهوض روسيا وتحالفها مع النمسا لطرد العثمانيين من أوروبا بل وتخطف أراضيهم كذلك .

ولم يـكن سلطان الروس على الأرض حتى القرن السادس عشر الميلادى يعدو فى الواقع إقليم موسكو وما حولها ، حتى أتيح لأميرهم إيفان الرابع المعروف بالرهيب أن يرد الأوزبك الآسيويين عن بلاده إذ ذاك ويوسع من رقعة ملكه فى نواحى البلطيق . بل لقد أفلح كذلك فى منع العثمانيين من حفر قناة تصل ما بين نهرى الدون والفولجا لتنفذ منها السفن التركية عبر البحر الأسود إلى بحر قزوين فتهاجم بلاد فارس من هناك فى يسر وسهولة متفادية بذلك سير الجيوش التركية براً عبر الصحراوات .

على أن أوزبك القرم ما لبثوا أن اقتحموا موسكو من جديد عام ١٥٧١م هذا والمعروف أن الأوزبك طالما دخلوا موسكو من قبل وارغموا أميرهـــا الروسى على دفع جزية سنوية لهم لسنين طويلة ، بل إنه كثيراً مـا كان ليرتقى عرش بلاده إلا على إرادتهم . ولو كان العثمانيون قد عمدوا إلى الائتلاف إذ ذاك

مع أوزبك القرم على الأخص بدلا من معاداتهم لهم لما اشتد ساعد الروس حتى صار لهم ذلك الخطر الداهم الذى ساعد على تفسخ الدولة العثمانية وانهيارها .

وبتنازل العثمانيين لبطرس الأكبر عن بحر آزوف فى صلح كارلوفتز فتحت أبواب البحر الأسود فى وجه الروس بعد أن كان ذلك البحر بحيرة تركية خالصة .

واتخذ بطرس الأكبر من بتروغراد (بطرسبرج) قصبة له بدلا من موسكو، ثم بسط نفوذه على البحر البلطى بعد أن هزم شارل الثانى عشر ملك السويد الذى لجأ بعد انكساره هذا إلى الترك فأسبغوا حمايتهم عليه .

وقادت بطرس الأكبر أطماعه ، فنزع إلى حرب الترك بهدف بسط سلطانه على البحر الأسود ، لكن القائد العثمانى بلطجى باشا استطاع أن يطوق القوات الروسية كلها عند نهر بروث حتى كاد القيصر الروسى نفسه أن يقع أسيراً ، لولا ما كان من دهاء زوجته كاترين وحيلتها مع القائد التركى وماقدمته له من رشوة اشترت بها ضميره . وعقد صلح بروث مع الروس على شروط مشينه لهم أخلوا من بعدها منطقة آزف كما تعهدوا بنسف حصون طيغان (تاجنروك) .

وحاول العثمانيون من بعد ذلك استرداد المجر ولكن النمساويين أنزلوا بهم هزيمة اضطرتهم إلى عقد صلح ساروفيتز عام ١١٣٠هـ — ١٧١٨م وفيه بقيت المورة بيد الأتراك .

كذلك استطاع نادرشاه سلطان الفرس أن يرغم العثمانيين عام ١٧٣٦م بعد حروب طويلة على أن يرجعوا عن بلاده وما كانوا قد استولوا عليه من أراضيها حتى بغداد .

وعقد العثمانيون صلحا آخر مع الروسيا عام ١٧٣٩م ، هو صلح بلغراد ،

بعد أن أوقف القيصر حربه مع الترك بسبب قيام بعض القلاقل فى بلاده فكان هذا آخر صلح مشرف وقعه الترك فى أوربا ، وفيه تعهد الروس بسحب سفنهم من البحر الأسود الذى عاد بحيرة عثمانية من جديد .

وساد السلام بين روسيا وتركيا فترة طويلة استطاع فيها السلطان القدير مصطفى الثالث ، وكان قد ولى العرش عام ١١٧١هـ - ١٧٥٧م ، أن ينهض بالجيش وينظم شئون الدولة الإدارية والمالية على وجه سليم .

وفى عهده سقطت القرم فى يد الروس الذين هددوا بأسطولهم عاصمة الترك نفسها لولا ما أبداه القبطان التركى حسن باشا الجزائرلى من شجاعة وحسن بلاء .

ولئن استطاع العثمانيون أن يصدوا هجوم الروس فى البلقان ويكرهوهم على رفع الحصار عن سلستره ووارنه ثم الانسحاب من بعد ذلك إلى ماوراء الدانوب، إلا أن هؤلاء استطاعوا من بعد ذلك عام ١٧٧٤ ، أيام عبد الحميد الأول خليفة مصطفى الثالث، أن ينزلوا الهزيمة بالترك ويرغموهم على عقد معاهدة كجوك قينارجه ليزعموا من بعد ذلك أنهم أصحاب الحق الطبيعى فى رعاية المسيحيين من رعايا العثمانيين والإشراف على شئونهم ، بل وإن من واجبهم المقدس أساسا العمل على إحياء الدولة البيزنطية من جديد . وفضلا عما ناله الروس من امتيازات سياسية فى هذا الصلح فقد صار لهم كذلك شمال البحر الأسود، ومنح أسطولهم حق اجتياز الدردنيل والمرور منه إلى البحر الأبيض المتوسط .

وفى عام ١٢٠٦هـ — ١٧٩٢ صار نهر الدنيستر هو الحد الفاصل بين الدولتين العثمانية والروسية ، وتنازل الأتراك نهائيا للروس عن شبه جزيرة القرم وذلك فى صلح ياشى الذى عقد بينهما فى نفس السنة .

وصاحب فترة الضعف السياسى هذه ، فترة ضعف فى الثقافة مواز له ،

إذا لم يلتفت أغلب السلاطين أو وزرائهم إلى بذل قدر من الرعاية للفنون والعلوم والآداب فى بلادهم .

ولقد بدت الآداب التركية فى طابع ساذج استمر منذ عهد السلطان محمد الفاتح حتى أيام السلطان سليمان القانونى ، حتى ظهر من بعد ذلك جملة من الأدباء والشعراء المبرزين كان من بينهم نفر اتصلوا بالحياة العقلية الأوربية وأفادوا منها .

وهكذا كما عمد فريق من المؤرخين الترك إلى تدوين تاريخ بلادهم ، ومنهم المؤرخ سعد الدين معاصر مراد الثالث حتى أواخر القرن السادس عشر ، ثم المؤرخ نعيما الذى وصل بتاريخ الدولة العثمانية حتى منتصف القرن السابع عشر وجاء من بعد ذلك الرحالة أوليا شلبى الذى طوف بأملاك الدولة فى أوروبا وآسيا ودون تاريخه عن شعوب تلك البلاد وأحوالها وثقافتها فى كتابه « سياحت نامه » أى كتاب الرحلة . وقد شارك هذا الكاتب فى بعض حروب الدولة مع الروسيا .

ولم يكن خلفه الحاج خليفة المعروف باسم « كاتب شلبى » يقل منزلة عن سلفه الذى عاصره . يشهد له بذلك مؤلفاته فى التاريخ والسير وكتاباته عن دور العلم ودور الكتب وغيرها من فنون المعرفة .

وكان من أثر اطلاع كتاب الترك على ثقافة الغرب أن ظهر نفر من بينهم ، ابتداء من عصر السلطان محمود الثانى ، تزعموا حركات الإصلاح التى ظهرت فى تركيا ودعوا اليه .

بدأت الإصلاحات التركية (التنظيمات) أول ما بدأت بالنهوض بالجيش عماد الدولة فى حروبها . وكان السلطان سليم الثالث هو أول من شرع فى ذلك لكن الانكشارية مالبثوا يعارضون كل إصلاح حتى طوحوا بالسلطان نفسه عن

العرش . ثم جاء السلطان محمود الثانى فقضى على تلك الفئة العاصية هذه المرة واستأصل شأفتهم جميعا . وكان هذا السلطان قد دخل من قبل فى حرب خاسرة مع الروسيا وواجه ثورات الصرب واليونان عليه تلك الثورات التى انتهت باستقلال تلك البلاد فيما بعد ، هذا إلى جانب متاعب داخلية أخرى منها ثورة الألبان وإعلان محمد على عزمه على الاستقلال بمصر .

واستعان محمود الثانى بمحمد على فى القضاء على ثورة المورة فى اليونان فاذا بأساطيل الأوربيين تستدرج الأسطولين التركى والمصرى إلى مياه نافارين وتحرق جميع سفنها .

ولمس محمد على ضعف الدولة العثمانية فاكتسح بقواته المصرية الشام كله ودحر الجيش العثمانى عند قونيه حتى صار الطريق مفتوحا أمامه إلى استانبول .وكان من أثر تدخل الروسيا لمناصرة الدولة العثمانية فى حربها مع محمد على أن تعهدت لها تركيا بقفل المضايق فى وجه أساطيل الدول الأخرى جميعا فيما عداها .

وأرغمت الدول الأوربية محمد على على الانسحاب إلى مصر وإعلان خضوعه للسلطان من جديد .

وانتهزت الروسيا فرصة قيام الثورات بالشام ، بعد جلاء محمد على عنها ، فطالبت بحقوق جديدة بالأراضى المقدسة بفلسطين وسارعت فى سبيل ارغام الدولة على ذلك إلى احتلال بعض أراضيها فى البلقان وضرب أسطول تركيا فى البحر الأسود . وقد أدى ذلك كله إلى قيام حرب القرم المعروفة التى استمرت من عام ١٨٥٤م إلى عام ١٨٥٦م وساندت فيها انجلترا وفرنسا بقواتهما جيوش الدولة العثمانية . وانتهت هذه الحرب ، بعد خسائر بالغة للطرفين المتحاربين ، إلى ضمان سلامة الأراضى التركية وقفل المضايق التركية فى وجه أساطيل الدول الأجنبية جميعا .

وبدأ السلطان عبد العزيز عام ١٨٦١ م يعمل فى همة بالغة فى إصلاح شئون الدولة لولا ما كان من اسرافه الشديد الذى أدى به إلى تورطه فى القروض الخارجية حتى انتهى الأمر بعزله . وفى عهده استقلت رومانيا ، ونال اسماعيل حاكم مصر لقب الخديوى مع امتيازات كثيرة كاد يبلغ بها إلى ما يشبه الاستقلال التام عن تركيا.

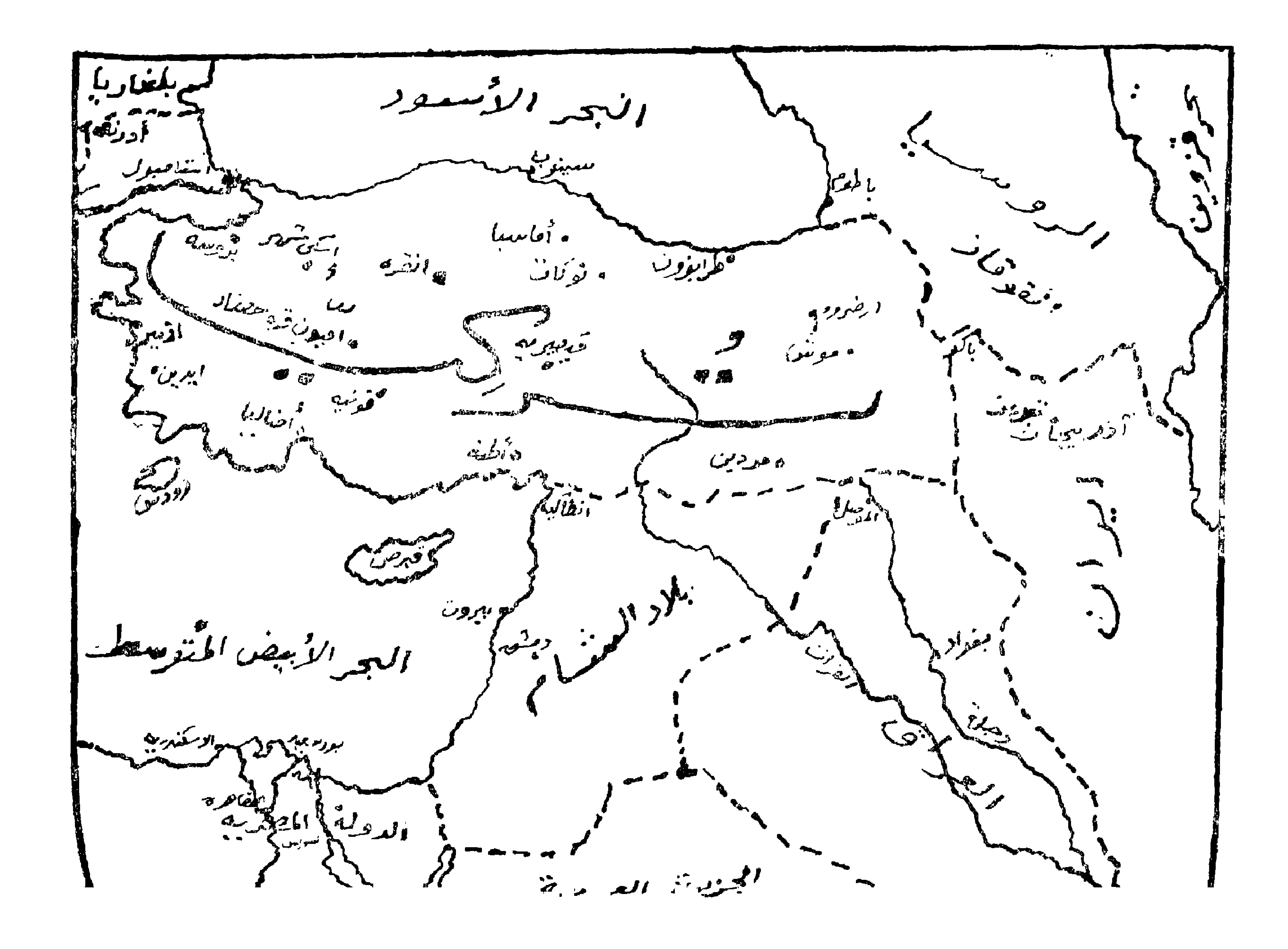
وحين ولى الخلافة من بعد ذلك السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٨٧٦م تظاهر أول الأمر بموافقة وزيره المصلح المعروف مدحت باشا على إعلان الحكم النيابى وقيام الدستور فى البلاد لتجنب الدولة بذلك تدخل الأوروبيين فى شئون تركيا باسم حماية المسيحيين . على أن عبد الحميد مالبث بعد قليل أن غدر بوزيره وكل الأحرار فى دولته فأعمل فيهم النفى والقتل والتشريد .

وانتهت حروب عبد الحميد مع الروس إلى توغل أعدائه فى القوقاز والبلقان حتى كادوا يدخلون العاصمة نفسها لولا تدخل بسمارك مستشار ألمانيا المعروف . وقد عقد على أثر ذلك مؤتمر برلين وفيه تنازلت تركيا عن أراضى كثيرة فى البلقان والقوقاز .

وكان من أثر سياسة الدولة العثمانية الفاشلة أن شرع الأوروبيون جميعا يتخطفون أملاكها ، فاحتلت بريطانيا وادى النيل عام ١٨٨٢ م . ومن قبل نزلت فرنسا فى الجزائر وتونس إلى أن قدمت ايطاليا من بعد ذلك فنزلت بطرابلس الغرب وليبيا بايعاز من فرنسا وانجلترا ترضية لها بسبب الإتفاق الثنائى الذى عقد عام ١٩٠٤ م بهدف اطلاق يد بريطانيا فى مصر نظير اطلاق يد فرنسا فى تونس والجزائر ومراكش .

واستطاع أحرار الترك من أعضاء حزب الاتحاد والترقى أن يرغموا آخر الأمر السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور ثم عزلوه من بعد ذلك عام ١٩٠٩ م .

وثارت شعوب البلقان عام ١٩١٣ م فى وجه الدولة من جديد حتى



البحر الأسود
بلغاريا
أدرنه
استانبول
سينوب
باطوم
بروسه
اسكي شهر
أماسيا
انقره
توقات
طرابزون
ارضروم
موش
ازمير
ايدين
قونيه
أضاليا
أدنه
انطاكيه
رودس
قبرص
بيروت
دمشق
بلاد الشام
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندريه
بور سعيد
القاهره
الدوله المصريه
ماردين
الموصل
بغداد
الفرات
العراق
الروسيا
قفقاس
باكو
ايران
بحر قزوين

هددت قواتهم العاصمة التركية نفسها لولا ما كان من وقوع الخلاف بين البلقانيين أنفسهم من جهة وما أبداه القائد التركى المعروف أنور باشا من حنكة وشجاعة فاستعاد مدينة أدرنة من أيديهم وردهم عن العاصمة بالتالى .

ولم يمض عام على هذه الحرب حتى اعلنت الحرب العالمية الأولى فدخلتها الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا والنمسا ، وخرجت منها ممزقة الأوصال فانتزعت منها كل أملاكها ، وكاد الوطن التركى نفسه أن يضيع لولا أن قيض الله له كمال أتاتورك (مصطفى كمال) منشىء جمهورية تركيا الحديثة وباعث نهضتها .

كمال أتاتورك (مصطفى كمال) :

ولد مصطفى كمال عام ١٨٨١ م بمدينة سالونيك بتركيا الأوربية إذ ذاك أيام السلطان عبد الحميد الثانى الملقب بالسلطان الأحمر لكثرة ما أسال من دماء الأحرار فى بلاده .

وتوفى والده وهو لا يزال طفلا ، ومن ثم عاش فى كنف عم له بالريف ، حتى إذا بلغ أشده الحقته والدته بالمدرسة الحربية فى سالونيك . وقد لفت ذكاؤه أساتذته هناك حتى عهدوا إليه بتعليم الصفوف الأولية بالمدرسة ، ثم انتقل من ذلك إلى مدرسة موناستيرا الحربية ، ومنها بعث به إلى الأكاديمية العسكرية باستانبول حيث رقى ، بعد دراسته فى كلية أركان الحرب إلى رتبة النقيب .

وفى استانبول انضم مصطفى كمال إلى جماعات صغار الضباط الذين كانت نفوسهم تفور بالسخط والغضب ، تلقاء ماصارت إليه حالة بلادهم من التفسخ والضعف ، وفى آمالهم وعزماتهم أن يعيدوا إلى تركيا سالف أمجادها حين يقضوا على كل عناصر الفساد فيها .

غير أن السلطان الطاغية عبد الحميد ما لبث أن قبض على كل زعماء

هؤلاء الضباط ، ومن بينهم مصطفى كمال ، فألقى بهم فى السجون بعض الوقت ثم فرقهم من بعد ذلك فى مختلف أنحاء دولته .

وظهرت جمعية الاتحاد والترقى ، جماعة تركيا الفتاة ، على مسرح السياسة فى تركيا تطالب بالحكم النيابى الذى نادى به من قبل مدحت زعيم الأحرار والذى عصف به عبد الحميد . وتم لهم آخر الأمر عزل السلطان عبد الحميد وإجلاس السلطان محمد رشاد الخامس مكانه. وبرغم اشتراك مصطفى كمال فى هذه الأحداث إلا أنه لم يرض أبدا عن سياسة رجال الاتحاد والترقى ومن بينهم كثير من الانتهازيين واليهود .

وهاجمت ايطاليا عام ١٩١١م طرابلس الغرب بالشمال الافريقى قصد الاستيلاء عليه ، فاذا بمصطفى كمال يصل إلى ميدان القتال عبر مصر متخفيا تحت اسم « شريف بك » الصحفى .

وفى هذه الحرب بزغ نجم مصطفى كمال العسكرى إذ تمكن ، تحت قيادة أنور باشا القائد التركى المشهور ، أن ينزل بالإيطاليين عند طبرق هزيمة نكراء فى يناير عام ١٩١٢ م . وقد تطوع فى هذه الحرب الليبية كثير من المسلمين ؛ من مصر وغيرها من أمصار الإسلام . وقد انتصر الإيطاليون آخر الأمر بسبب تفوق أسطولهم وتعضيد انجلترا وفرنسا لها فى السر ترضية لهم بإزاء اتفاقية عام ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا بشأن نفوذهما فى الشمال الإفريقى على ما أشرنا إليه من قبل .

كذلك كان لمصطفى كمال نشاط ملحوظ فى حرب العثمانيين مع دول البلقان عام ١٩١٣ م .

وخاض العثمانيون غمار الحرب العالمية التى نشبت أواخر عام ١٩١٤ م إلى جانب ألمانيا والنمسا . وفى هذه الحرب ظهرت عبقرية مصطفى كمال الفذة متمثلة فى أعماله العسكرية الباهرة التى اضطلع بها ، دفاعا عن

الدردنيل، فى موقعة أنا فورطه لر التى كبد فيها الانجليز خسائر فى القتلى تبلغ خمسة وأربعين ألفا . هذا كا بلغت خسائر بريطانيا وحلفائها فى حملة غاليبولى هذه أكثر من مائة وثمانين الف قتيل .

وخرجت تركيا من هذه الحرب عام ١٩١٨ م إثر معاهدة مودروس منهزمة ممزقة الأوصال . وما لبث رجال تركيا الفتاة أن غادروا البلاد بدورهم عقب ذلك .

وبدأت الثورة المسلحة من فورها فى الاناضول ، موطن الفلاحين المتجانسين الأشداء ، وقد هالهم استيلاء اليونانيين على أزمير ، بايعاز وتعضيد من الحلفاء ، وما أنزله هؤلاء المحتلين بسكان تلك المنطقة من الفظائع بما لم يسمع بمثله من قبل .

وأتيحت الفرصة لمصطفى كمال بطل اناتا فورطه القدير ، فرحل إلى الأناضول حيث انطلق فى همة بالغة يجند هؤلاء الوطنيين الأحرار ، من الثائرين على الوضع الذى صارت إليه بلادهم ، لتحرير بلادهم ودفع كل معتد عنها . وقطع ثوار الأناضول الأشداء كل علاقة لهم تربطهم بحكومة استانبول التى تعمل تحت راية الحلفاء وبأمرهم .

ومن عجب أن تتهم هذه الحكومة إذ ذاك مصطفى كمال بالعصيان والخروج على طاعة الخليفة السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس الذى خلف محمد رشاد الخامس) ، وهى نفس التهمة التى كان قد وجهها السلطان عبد الحميد من قبل إلى الزعيم المصرى أحمد عرابى وهو يواجه الغزو البريطانى لبلاده عام ١٨٨٢ م .

وفى ابريل عام ١٩٢٠ م انتخب مصطفى كمال فى أنقره رئيسا للجمعية الوطنية لبلاده وعهد إليها بحكومتها .

وفى أغسطس من نفس العام أكره الحلفاء حكومة استانبول على توقيع معاهدة

سيفر ، وقد نص فيها على أن تعطى لفرنسا قيليقية وكردستان الجنوبية ، ويعطى لإيطاليا الأناضول الجنوبي حتى منطقة أزمير ، وأن تمنح منطقة أزمير استقلالا داخليا ، في حين تضم أغلب تراقيا إلى اليونان ، كما يخضع البوسفور والدردنيل للرقابة الدولية

وكان رد الكماليين على ذلك هو موقعة سقاريا المشهورة في أغسطس عام ١٩٢١ م ، وفيها أنزل الترك باليونانيين هزيمة نكراء تقرر على أثرها نهائيا مصير الدولة الفتية الجديدة بالخلود . وبعد هذا النصر المبين خلعت الجمعية الوطنية على مصطفى كمال لقب الغازى .

وكان من أثر هذا الانتصار الكبير أن سارعت كل من فرنسا والاتحاد السوفيتى وايطاليا إلى عقد معاهدات صداقة مع مصطفى كمال، وسحبوا كل قواتهم بالتالى من أراضى الدولة الجديدة .

وفى أغسطس عام ١٩٢٢ م قام الكماليون بهجومهم الكبير والأخير لتطهير بلادهم من العدو الدخيل . وكان العدو قد حصن مدينتى أفيون قره حصار وإسكى شهر حتى حسب أنه يستحيل على أى قوة اقتحامها .

واقتحم شجعان الترك خطوط العدو جميعا ومزقوا جموع قواته الكثيفة شر ممزق ، حتى سقطت هيئة قيادة الجيوش اليونانية بالكامل فى أيدى أبناء الأناضول الذين انطلقوا فى أثر قوات العدو المنهزمة . وقد أطلق اليونانيون سيقانهم للريح فى فرارهم حتى قيل أن فرسان الترك كانوا يلاحقونهم بمشقة .

ودخل الكماليون مدينة أزمير آخر الأمر دون أن يطلقوا رصاصة واحدة . وعبر من بعد ذلك مصطفى كمال الدردنيل دون أن تتعرض له حامية جناق قلعة البريطانية .

هذا ، وقد شاركت المرأة التركية فى معارك النصر الحاسمة هذه والإعداد لها

مشاركة فعالة ، فحملن ، فى شجاعة نادرة ، المؤن والذخائر للجنود على رءوسهن وفوق أكتافهن بين هدير المدافع وطلقات البنادق ولمعات السيوف والخناجر .

وفى لوزان عام ١٩٢٣م تم الاتفاق على جلاء اليونانيين والحلفاء عن استانبول وتراقيا الشرقية، وألغيت الامتيازات التى كان يتمتع الأجانب بها ، تلك الامتيازات التى عانى منها طويلا ايران ومصر على الأخص ثم تخلصتا منها بدورهما فيما بعد .

وفى مارس عام ١٩٢٤م اتخذت الجمعية الوطنية قرارها بإلغاء الخلافة وإخراج عبد المجيد خان آخر الخلفاء من سلاطين آل عثمان من البلاد . وكان كرسى الخلافة قد عرض على مصطفى كمال ولكنه رفضه فى حزم قاطع .

هذا ومن المسلم به أن أوروبا كانت، فى كل حروبها للقضاء على تركيا، تنظر إلى العثمانيين نظرة صليبية خالصة بوصفهم يمثلون قوة الإسلام الحقيقية الكبرى ، ومن ثم كان هذا هو هدفهم ومهمتهم الأساسية . هذا إلى جانب موقف خليفة المسلمين نفسه الذى ظهر ضعفه وعجزه بوضوح حين أخذ الروس يتوغلون فى التركستان، وحين نزل الفرنسيون والايطاليون بشمال أفريقية واستولى البريطانيون على وادى النيل .

والواقع أن السلطان التركى منذ أن ناصرته فرنسا وانجلترا بقواتهما فى حرب القرم عام ١٨٥٤ ضد الروسيا لم يكن ليرد لهما طلبا ، حتى وهب جزيرة قبرص لبريطانيا وتغاضى عن احتلال فرنسا لشمال أفريقية ، وانجلترا لوادى النيل ، كما لم يحرك ساكنا بأزاء حرب الإبادة التى مارسها الروس فى القرنين الماضى والحاضر فى القوقاز والتركستان واستشهد فيها أكثر من عشرين مليونا من المسلمين . ثم ألم يكن الخليفة نفسه — بضغط من المستعمرين وارضاء لهم — هو الذى أعلن على الملأ كله عصيان مصطفى كمال وهو يحارب فى الأناضول جيوش اليونان الجرارة

ومن ورائها إمدادات الحلفاء مجتمعة للاجهاز التام على آخر قوة عسكرية للاسلام. وما صنعه الخليفة وحيد الدين فى ذلك مع مصطفى كمال الزعيم التركى، كان قد فعله من قبله سلفه الأسبق الخليفة عبد الحميد مع الزعيم المصرى أحمد عرابى وهو يدافع الانجليز عن وادى النيل عام ١٨٨٢ م .

وما من شك فى أن ذلك كله كان من بين الأسباب القوية التى دفعت بالدولة التركية الفتية وزعيمها الغازى مصطفى كمال إلى إلغاء الخلافة من بلادها .

وقد أثار إلغاء الخلافة موجة من السخط والغضب فى بعض الأوساط الإسلامية، هذا كما ثار الأكراد فى منازلهم بالأراضى التركية الشرقية بدعوى معارضتهم لإلغاء الخلافة ، ولكن مصطفى كمال قضى على ثورتهم هذه فى حزم وعنف فلم يعودوا إليها من بعد ذلك أبدا .

وقرن مصطفى كمال إلغائه للخلافة فى بلاده باغلاق التكايا وأوكار الدراويش وتجمعات أدعياء الدين .

واتخذ مصطفى كمال عام ١٩٢٨ م قراره باطراح الأبجدية العربية واستخدام الأبجدية اللاتينية مكانها فى كتابة اللغة التركية ، ونبذ الطربوش كلباس للرأس وإحلال القبعة مكانه . كما عمد كذلك إلى تتريك الأسماء والألقاب وصار هو نفسه يعرف ابتداء من عام ١٩٣٤ باسم كمال أتاتورك ، أى أبو الأتراك ، كما صار صاحبه ورفيق سلاحه وكفاحه عصمت باشا يعرف باسم عصمت اينونو ، نسبة إلى معركة اينونو المشهورة فى هزيمة اليونان بالأناضول خلال حرب التحرير . وعصمت اينونو هذا هو الذى خلف كمال أتورك فى رئاسة الجمهورية التركية بعد وفاته .

وما نزع إليه كمال أتاتورك كذلك من أداء أذان الصلاة بالتركية —

وقد عدل عنه بعد وفاته فيما بعد — وكذلك خطبة الجمعة ، ثم ترجمته لمعانى القرآن الكريم إلى التركية ، وهى أمور اختلفت آراء الفقهاء فيها ، هذه القرارات كلها لم تكن لتعنى ، بأى حال ، خروج الشعب التركى على جادة الإسلام ، إذ أن الترك كانوا وما زالوا بالقطع من أشد الشعوب الإسلامية حرصا على عقيدتهم واستمساكا بالإسلام عقيدة ومدنية ، مساجدهم عامرة وشعائر دينهم فيها قائمة . ومن آيات ذلك أن عدد الحجاج الترك الذين أدوا الفريضة العام الماضى « ١٣٩٥ هجرية » ، قد ناهز المائة والعشرين ألفاً . وهم فى هذا يفوقون عدد الحجاج من البلاد الإسلامية الأخرى .

إن مصطفى كمال كان — دون أدنى ريبة أو مراء — يمثل قوة الإسلام العسكرية الوحيدة الكبرى فى الربع الأول من القرن العشرين . وجاءت انتصاراته هذه قوة دافعة للشعوب الإسلامية فى كافة بقاع الأرض ، أيقظتهم من سباتهم وشدت من عزائمهم لتحقيق استقلال بلادهم وطرد المستعمرين من أراضيهم .

ومن آيات ذلك أنه بفضل انتفاضة مصطفى كمال المظفرة هذه — وبتأثيرها ونتيجة لها — نهض أمان الله خان ملك أفغانستان فاستطاع بقوة السلاح أن يطرد البريطانيين عن حدود بلاده حتى اعترفوا باستقلال بلاد الأفغان وسمحوا لهم بممر يربط فيما بين تلك البلاد والمحيط الهندى . وكذلك فعل رضا شاه بهلوى الكبير فى إيران ، إذ طرد عن بلاده الروس فى الشمال والبريطانيين فى الجنوب لحقق بذلك استقلال بلاده التام بالكامل بعد أن كانت نهباً للمستعمرين سنين طويلة .

وفى عام ١٩٢٥ م عقد بين أبطال العالم العسكريين الثلاثة الكبار — أمان الله خان ملك أفغانستان ورضا بهلوى شاه إيران وكمال أتاتورك رئيس الجمهورية التركية — حلف إسلامى عسكرى قوى هو حلف سعد آباد .

قوّاد معركة رُوّاد مهلكة   أوتاد مملكة آساد حَرب

وما من شك فى أن الانتصارات المجيدة التى حققها هؤلاء الأبطال الثلاثة الكبار قد شجعت الشعوب الإسلامية الأخرى حين نهضت تكافح من أجل حريتها وإجلاء المستعمر عن أقطارها بالتالى :

وما من شك كذلك فى أنه لو لم يكتب آنذاك النصر لزعماء المسلمين العسكريين أصحاب حلف سعد آباد لتفرغ المستعمرون الأوربيون عندئذ لضرب كل حركات التحرير ببلاد المسلمين الأخرى فى يسر وعنف وضراوة .

ووافى كمال أتاتورك أجله عام ١٩٣٨ م فغادر الدنيا بعد أن استرد لبلاده شرفها القديم ونهض بها فى كافة نواحيها : العسكرية والثقافية والحضارية على السواء

وخلفه فى رئاسة الجمهورية التركية صاحبه ورفيق سلاحه وكفاحه عصمت اينونو .

وفى عام ١٩٣٩ م أعلنت الحرب العالمية الثانية ، وفيها التزمت تركيا موقف الحياد ، ثم آثرت من بعدها جبهة الغرب فانضمت لها . وهى اليوم عضو بارز فى حلف الأطلنطى .

(ملحـــق)

(نصـــوص فارســية)

از أخبار دولت غزنويان

در حکومت این دولت اسلام در هند آشکار کرد، از سنهٔ سبع وستین وثلثمایه تا سنة اثنین وثمانین وخمسمایه، ومدت دویست و پانزده سال حکومت ایشان بود بدست پانزده نفر.

سلطان ناصر الدین سبکتکین: تُرك نژاد ست مملوك الب تکین که غلام أمیر منصور بن نوح سامانی بود، در سنهٔ سبع وستین وثلثمایة بعد أز وفات أبو اسحق ابن الب تکین باتفاق رعیت وسپاهی در بست بر تخت سلطنت جلوس نموده علم مُلك ستانی برافرشت وبغزا وجهاد کمر جد واجتهاد بسته بطرف هندوستان تاخت آورده درسرحد ولایت کوه جود باجیپال که فرمانروای هند بود جنگی عظیم کرده باو صلح نمود، وبعد از نقص عهد، جیپال بار دیگر لشکر آراسته مقدار یك لك سوار وفیلان کوه پیکر بیشمار قصد محاربة أو داشته، در نواحی لمغانات محاربة قوی کرد ونسیم ظفر بر پرچم ناصر الدین وزیده، شکست بر لشکر جیپال رسید، أو گریخته و بهند رفت. تا لمغانات بتصرف أمیر ناصر الدین آمدة، خطبه وسکه بنام أو رواج یافت، وبکومك امیر نوح بن منصور سامانی رفته درخراسان وماورا النهر مصدر فتوحات عظیم گشت، ودر شعبان سنة سبع وثلثمایه داعیء حق را لبیك أجابت فرمود، مدت حکومت أو بیست سال بود.

یمین الدولة سلطان محمود بن ناصر الدین غزنوی:

چون سبکتکین در راه غزنین داعیء حق را لبیك إجابت گفت، پسر خود را اسماعیل را ولی عهد گردانید. چون این خبر به محمود که پسر بزرگ سبکتگین بود رسید به برادر عزانامه وطلب صلح کرد باین قصد که غزنین را اسماعیل

بمحمود بدهد ودر عوض آن ولایت بلخ بگیرد . اسماعیل قبول نکرد ومیان برادران کار به محاربه انجامید ، ومحمود غالب آمد ، واسماعیل رابعداز شکست شش ماه درغزنین محاصره داشت . بعد ازان نیك خواهان درمیان آمده ، میان ایشان صلح دادند واسماعیل آمده محمود رادید وحکومت به یمین الدوله قرار گرفت. ومیان محمود ومنصوربن نوح سامانی وبرادرش عبد الملك بن نوح منازعت روی داد ، آخر محمود غالب آمد وسلطنت تمام خراسان محمود مسلم گشت . چون مادرش دختر رئیس زابل (یعنی قندهار) بود بدین سبب محمود زابلی میگویند چنانچه فردوسی میگوید :

خجسته درگه محمود زابلی دریاست
چگونه دریا کانرا کناره پیدانیست
شدم بدریا غوطه زدم ندیدم در
گناه بخت من است این گناه دریانیست

واورا خلیفة بغداد القادر بالله عباسی اول حال مراسلات عنیفه واقع شد ، آخر خلیفه خلعت فاخر باسائر نفائس وذخائر روانه داشته لقب امین الله یمین الدولة برای او فرستاد .

وازغزنین به بلخ وهرات رفتة درسنهٔ سبع وثمانین وثلثمایه درضبط آورده به غزنین باز گشته آمد ؟ واز آنجابه هند وستان بکرات ومرات غزوات کرد وحصاری چندگرفت ، وعسجدی درآن سفر گفت این قصیده :

چون شاه خسروان سفر سومنات کرد
کردار خویش راعلم معجزات کرد
آثار روشن ملکان گذشته را
نزدیك بخردان همه ازمشکلات کرد
بزدود زاهل کفر جهان رابر اهل دین

شکر ودعاء خویشتن ازواجبات کرد

محمود شهریار کریم آنکه ملك را

نیاد برمحامد برمکرمات کرد

شطرنج ملك یافت باهزار شاه

هرشاه را بلعب دیگر شاهمات کرت

شاها تواز سکندر پیشی بدان جهت

کوهر سفرکه کرد بدیکرجهات کرد

عین الرضا ایزد جوی تودر سفر

باز أو سفر بجستن عین الحیاد کرد

توکارها بنیزه وتیر وکمان کنی

اوکارها بحیله وکلك ودوات کرد

ودر شوال سنة احدی وتسعین وثلثمایه ازغزنین باز بهندوستان باده هزار سوار آمد وبشاور فتح کرد . ودر آن حدود جیبال که باسوار وپیاده بسیاره وسیصد زنجیر فیل در برابر آمده بود معرکه کارزار بسیاراست ، وسلطان محمود مظفر گشت وجیبال باپانزده نفر أزخویشان وبرادران وفرزندان أسیرشد ، وپنج هزار کفار دران معرکه علف تیغ آبدار گشتند ، وغنایم بسیار بدست غازیان افتاد ،وازا جمله حمایل مروار یدی بود درگردن جیبال که بیك لك وهشتادهزار دینار قیمت آن رسیده وحمایل دیگران نیز براین قیاس .

ودر محرم سنه ثلاث وتسعین وثلثمائه ازغزنین بسیستان رفته عزیمت هند نمود وقصد بهاتیه که درنواحی ملتان است کرد . وبچی رای راجه آنجاخودرا ازترس سیاست سلطان به خنجر هلاك ساخت وسرش نزد سلطان آوردند ،

وعنود بسیار ازشمار افزون به تیغ بیدریغ براه عدم آباد شتافتند ، ودویست وهفتاد فیل بغنیمت گرفت وداودبن نصر ملحد حاکم ملتان ازدست سلطان عاجز شده هرساله بیست باربیست هزاردرم قبول نمود . ودر سنه خمس عشر واربعمایه به بلخ رفت ، وأز جیحون گذشت ، وسرداران ماورا النهر باستقبال أو آمده سلطان رادید وجشنها آراسته یکد یکررا سوغاتها دادند .

وسلطان بازگشته زمستان بغزنین گذرانید .

وباز لشکر بجانب سومنات کشید که شهر یست بزرگ برساحل دریای محیط ومعبد براهمة وُبتی بزرگ معبود ایشان است وبتان زرین دران بسیاد — واین ُبت را گرچه بعضی مؤرخین منات نامیده میگویندکه همان است که درزمان حضرت رسالت صلی الله علیه‌وسلم مشرکان ازعرب بساحل هند أورده اند أما این سخن أصلی ندارد . ونیز نام آن بزبان هندی أصلّ سوبه ناتهٔ است بمعنی صاحب‌آرایش نه منات .

وجهلاء هند هرگاه که خسوف واقع میشد درآن بتخانه مجتمع میگشتند ،ودر آن لیالی زیاده ازصدهزار آدمی بدانجا می آمدند ونذورات می آوردند وقریب دوهزار قریه معمودة وقف سدنهٔ آن خانه بود ، وچندان جواهر نفیسه آنجا موجود بود که عُشر آن در خزانهٔ هیچ بادشاهی باستقلال نمیگنجد . ودوهزار نفر أزبراهمه حوالی آن بتخانه پیوسته بعبادت مشغول بودند ، وزنجیری ازطلا بوزن دویست من که جرسها بر أطراف آن بود أزگوشه أن کنیسه آویخته بودند ودر أوقات معینه آنرا حرکت میدادند تا أذ صدای آن براهمه را معلوم شود که وقت عبادت است وسیصد سرتراش وسیصد مغنی وپانصد مغنی کنیزك رقاص

ملازمت این بتخانه‌می نمودند ، وما یحتاج ایشان راسدنه ازنذورات وموقوفات مرتب میساختند .

ودراین یورش شهر بتن که نهرواله اشتهاردارد أزولایت کجرات مفتوح ساخته وآزوقه بسیار أزاینجا برداشته بسومنات رسید . وأهل قلعة در بروی سلطان کشیدند وبغارت وتاراج تنبیه یافتند ، وقلعه مفتوح شد ، وآن بت را پاره پاره ساخته بغزنین فرستادتا بردر مسجد جامع گذاشته پایمال شد .

ودر سنه ثمان عشر واربعمایه بجانب باورد رفته‌استیصال تراکه آن دیار نمود واز آنجا بری شافته‌خزاین ودفاین آن‌ولایت را که ازسالها بسیارمانده بودبدست آورده باطنی مذهبان وقرامطة آنجارا مستاصل گردانیده ، ری وأصفهان را بأمیر مسعود پسربزرگ خویش را داده بغزنین مراجعت کرد . ودر أندك مدتی‌زمانی بعلت دق مبتلی گشته ، روز بروز أثر ضعف دروی متزاید بود . باوجوداین حال خودرا به تکلف قوی وتندرست ظاهر میساخت وبهمان هیأت به بلخ رفت ودر بهار بغزنین آمد وبهمان مرض روز بنجشنبه بیست وسوم أز ربیع الأول سنة احدی وعشرین وأربعمایه‌در گذشت وبغزنین‌مدفون گشت ومدت عمرش‌شصت سال وسلطنت أو سی ویك سال بود ، دوازده(هفده) بار سفر هند کرد وجهاد نمود . إنما حسابه عند ربه .

ودر تذکره محمد عوفی این قطعة‌بسلطان محمود منسوب داشته :

زبیم تیغ جهانگیر وگرز قلعه‌گشای

جهان مسخر من شد چوتن مسخراری

گهی بعز وبدولت همی نشستم شاد

گهی زحرص همی رفتم زجای بجای

بسی تفاخر کردم که من کسی هستم
کنون برابر بینم همی أمیر وگدای
اگردوکله پوشیده برکشی زدوگور
سر أمیرکه داند زکله گدای
هزار قلعة گشادم بیك إشارت دست
بسی مصاف شکستم بیك فشردن پای
چومرگ تاختن آورد هیچ سود نداشت
بقابقای خدایست وملك ملك خدای

« عبد القادر بدوانی : منتخب التواریخ »
« خواندمیر : حبیب السیر »
« عوفی : لباب الألباب »

ذكر قواعدی كه جنكيز خان بعد أز خروج نهاد
وياساها كه فرمود

حق تعالى چون چنكيز خان را بعقل وهوشمندی از أقران أو ممتاز كردانيده بود وبتيقظ وتسلط أز ملوك جهان سر فرا زتا آنچ از عادات جبابرة أكاسرة مذكور بود واز رسوم وشيوهـای فراعنه وقيـاصره مسطور بی تعب مطـالعهٔ أخبار وزحمت إقتضا بآثار از صحيفهٔ باطن خويش اختراع می كرد ، وآنچ بترتيب كشور گشائی معقود بود وبكسر شوكت أعادی ورفع درجـهٔ موالی عايد آن خود تصنيف ضمير وتأليف خاطر أو بود ، كه اگر اسكندر باستخراج طلـسمات وحل مشكلات كه بدان مولع بودست در روزكار أو بودی از حيلت وذكای أو تعليم گرفتی واز طلسمات حصن گشائی هيچ طلسمی بهتر از انقيـاد وإذعان أو نيافتی . ودليلی ازين روشن تر ونمودا ری ازين مبين تر نتواند بود كه باچندان خصمان ياقوّت وعدد ، ودشمنـان باآلت وشوكت كه هريك فغفور وقت وكسرای عهد بودند يك نفس تنها باقلت عدد وعدم عدد خروج كرد وگردن كشای آفاق را از شرق تا غرب چگونه مقهور ومسخر گردانيد. وآنكس كه بمقابلت ومقاتلت تلقی كرد برحسب ياساو حكمی لازم كه كردست اورا بكلی با اتباع وأولاد وأشياع وأجناد ونواحی وبلاد نيست گردانيد .

وحديثی است منقول از أخبار ربانی : « أولئك هم فرسانی انتقم بهم من عصانی » ، ودر آن شك وشبهت نيست كه اشارت بدين جماعت فرسان جنكيز خان بوده است وقوم أو تاهنگامی كه جهان از اصناف خلايق در موج بود وملوك وأشراف وأطراف از خيلای كبريا وبطر عظمت وجبروت بر ذروهٔ

أوج « العظمة إزاری والكبرياء ردائی » بحكم سابق وعده أورا قوّت بطش وغلبهٔ تسلط داد « إن بطش ربك لشديد » . وچون هم بواسطهٔ بطرثروت وعزو رفعت أكثر أمصار وبیشتر أقطار بعصیان ونفاد تلقی نموزند ، وازقبول طاعت أو سر كشیدند خاصه بلاد اسلام ازسرحد تركستان تا أقصی شام ، هر جا ، پادشاهی بود یاصاحب طرفی یاأمین شهری كه بخلاف پیش آمد أورا با أهل وبطانه وخویش وبیگانه ناچیز كردند ، بحدی كه هرجا صد هزار خلق بود ، مبالغت صدكس نماند ، ومصداق این دعوی شرح أحوال شهرها ستكه هریك وقت وموضع خویش مثبت شدست وبروفق واقتضای رأی خود هركاری را قانونی وهر مصلحتی را دستور نهاد وهر گناهی راحدی پدید آورد . وچون أقوام تاتار راخطی نبوده است بفرمود تاااز أیغوران كودكان مغولان خط آموختند ، وآن یاساها وأحكام برطوامیر مثبت كردند ، وآنرا یاسا نامهٔ بزرك خوانند ودر خزانهٔ معتبران پادشاه زادگان باشد ، بهر وقت كه خانی برتخت انشیند یالشكری بزرگك برلشانند وپادشاهزادگان جمعیت سازند ودر مصالح مُلك وتدبیر آن شروع پیوندند آن طومارها حاضر كنند وبنای كارها برآن نهند وتعبیهٔ لشكرها وتخاریب بلاد وشهرها برآن شیوه پیش گیرند . ودر آن وقت كه اوایل حالت أو بود وقبایل مغول بدو منضم بشد ، رسوم ذمیمه كه معهود آن طوایف بودست در میان ایشان متعارف رفع كرد، وآنچ ازراه عقل محمود باشدازعادات پسندیده وضع نهاد ، وازآن أحكام بسیار آنستكه موافق شریعت است ، ودر أمثله كه باطراف می فرستادست وایشان رابطواعیت می خوانده ، چنانك رسم جبابره بودستكه بكثرت سوادو شوكت عدت وعتاد تهدید كنند هرگز تخویف ننموده ست وتشدید وعید نكرده بلكه غایت انذار را این قدرمی نوشته اندكه أگرایل ومنقاد نشوند ما آنراچه دانیم خدای قدیم داند . وچون درین معنی تدبری می‌أفتد سخن متوكلانست ، قال الله تعالی : « ومن یتوكل علی الله فهو حسبه » تاالا جرم

هرچه در ضمیر آورده آند و تمنی کرده یافت و بهمه کامی رسیده . وچون متقلد هیچ دین وتابع هیچ ملت نبود ازتعصب ورجحان ملتی برملتی وتفضیل بعضی بر بعضی مجتنب بودست ، بلك علما وزهاد هر طایفه را إکرام وتبجیل می کردست ودر حضرت حق تعالی آنرا وسیلتی می دانسته ، وچنانك مسلمانان رابنظر توقیر می نگریسته ، ترسایان وبت پرستان رانیز عزیز می داشته ، وأولاد وأحفاد أو هر چند کس برموجوب هوای ازمذاهب مذهبی اختیار کردند . بعضی تقلید إسلام کرده وبعضی ملت نصاری گرفته وطایفه عبادت اصنام گزیده وقومی همان قاعدهٔ قدیم آباء وأجداد را ملتزم گشته وبهیچ طرف مایل نشده . أما این نوع کمتر ماندست ، وباتقلد مذاهب بیشترأز إظهار تعصب دور باشند ، وازآنچ یاسای چنگیز خانست که همه طوایف رایکی شناسند وبریکدیگر فرق ننهند عدول نجویند وازعادات گزیده آنست که چنانکه شیوهٔ مقبلان وسنت صاحب دولتان باشد ، أبواب تکلف وتنوق ألقاب وشدت امتناع واحتجاب بسته گردانیده هر کس که برتخت خانی نشیند یك اسم در افزایند خان یاقاآن وبس وزیادت ازآن ننویسند ، ودیگر پسران وبرادران أورا بهمان اسم موسوم ولادت خوانند مشافهه ومغایبه خاص وعام ومناشیر مکتوبات که نویسند همان اسم مجرد نویسند . میان سلطان باعی فرق ننهند ونخ ومقصود سخن نویسند وزواید ألقاب منکر باشند .

وکاران صیدرا بجد داشته است ، وگفته که صید وحوش مناسب أمیر جیوش است که برأرباب سلاح وأصحاب کفاح تربیت وتعلیم آن واجب است که چون صیادان بشکاری رسند برچه شیوه آنرا صید کنند وصف چگونه کشند ، وبرحسب قلت وکثرت مرد برچه شیوه شکاری را درمیان آرند . وچون عزیمت

شکارخواهند کرد بر سبیل تجسس مردان بفرستند، ومطالبة أنواع وکثرت وقلت صید بکنند.

وچون بکار لشکرا ستغال نداشته باشد، دایما برصیدحریص باشند، ولشکر را برآن تحریض نمایند. وغرض نه بجرد شکار باشد بلك تا برآن معتاد ومرتاض باشند، وبرتیر أنداختن ومشقت خوکر شوند.

« عطا ملك الجوینی : تاریخ جها نگشای »

گفتار در بیان توجه جنگیزخان بجانب ماوراء النهر

وکشته شدن أکثر متوطنان آن بلاد به تیغ خشم وقهر

چون خاطر خطیر جنگیز خان از ضبط ممالك شرقی وشمالی فراغت یافت ، وآتش سیاستش برکانون درون مخالفـان آنحدود تافت ، تسخیر ممالك سلطان محمد خارزمشاه راپیش نهاد . همت بلند نهمت ساخته باسپاهی افزون از قطر در عدد وذره در شمـار بجانب ماوراء النهر روا نشد ، وچون بنواحی اُترار نزول إجلال فرمود ، أوکدای وجغتای را بمحاصره آنشهر باز داشت ، وجوجی خانرا بجانب چند فرستاد ، وآلاق نویانر بفنا کت وخجند إرسـال نمـود ، وبنفس خویش وتولی خان متوجه بخارا گشت .

دراوایل محرم سنـه سبـع عشر وستمایه موافق بیلان ئیل جنـگیز خان در نواحی آن بلده که در آن زمان مجمع أهالی عـــلم وکمال ومرجع أصحاب فضل وأفضال بود نزول إجلال فرمود . واشتقاق لفظ بخارا أز بخاراست ، ومعنی بخار بلفظ مغان مجمع علم باشد ، القصه : چون سپاه بیشمار جنـگیز خان در أطراف وجوانب بخارا فرود آمدند ، وآن بلده را مانند نـگین در أنـگشتری إحاطة نمودند ، درشب أول أمراء خوارزمشاهی أزشجعان جنجر گذار برسم شبخون برسر مغولان تاختند ، أما چون طلایه آن سپاه خونخوار بسان بخت بیدار بودند بقدم مقاتلت پیش آمده أکثر بخاریان را برخاك هلاك أفگندند . روز دیـگرکه بواسطهٔ ظهور خورشید ، ثوابت وسیار حصار سپهر دوار مفقود ونابود گشت ، أهالی بخاری دروب خلاف بسته أبواب شهر باز گشادند وسادات

وعلما وأشراف وأعيان بخدمت خان شتافتند وأمان طلبيدند ، وچنگيز خان همان زمان سوار شده بآن بلده فاخره درآمد . وچون بمسجد جامع رسيد پرسيد كه اين سراى سلطانست ؟ . گفتند : نى بلكه خان يزدانست . وأو همچنان سواره بمسجد در آمده تا مقصوره عنان بازنكشيد . آنگاه أزأسب پيادة شده برمنبر رفت وبنشست .ومردم خودرا گفت : در صحرا علف نيست شكم أسپان راسير سازيد . مغولان بموجب فرموده كاربند گشته درِ أنبارها بگشادند وأز صناديق مصاحف وأجزارا دورأنداختند وآخور أسپان ساختند ، وأفسار چهار پايان بدست علماء ومشايخ داده باياغ داشتن مشغولى كردند وآهنگك مغولى بركشيدند .

بعد أزآن جنگيز خان بعيد گاه رفته وباجتماع خلايق بخارا فرمان داده برمنبر برآمد ونخست زبان بحمد وثناى إلهى بگشاد آنگاه در معايب سلطان محمد خوارزمشاه سخنان برزبان رانده در آخر گفت كه أى قوم : از شما گناهان بزرگ در وجود آمده است بنابر آن خشم ايزدى مراكه از جملهٔ بلاهاى آن حضرتم بسوى شمافر ستاد ، اكنون هرچه در اين شهر ظاهر است حاجت بتقرير نيست ، آنچه أز أموال مخفى داريد تسليم نمائيد . لاجرم متمولان آغاز فرود آوردن مال كرده ، هرچه دادندى مغولان أزايشان بستدند ، وبتعذيب وشكنجه كسى رانز نمانيد .

أما چون برليغ صادر شده بودكه نوكران خوارزمشاه را أز شهر بيرون كنند وبسيارى از آن طبقه پناه بمردم برده بودند واين معنى بر جنگيز خان ظاهر گشت ، نايرهٔ خشم أو اشتعال يافته فرمود تا آتش درخانهٔ بخاريان زدند . وحال آنكه أكثر محلات چوب پوش بود ، بنا برآن بيك روز بيشتر شهرسوخته شد بلكه غير أز مسجد جامع وبعض سراها كه أز خشت پخته بود عمارتى سالم نماند . وبعد أز آن جنگيز خان جوانان بخارا به جنگ قلعه مأمور گردانيد وأزجانبين منجنيق ها مرتب ساخته بأندك زمانى مغولان قهرا قسرا آن حصن

را بگرفتند ، ومجموع مردان را که در قلعه بودند کشته ، عیال وأطفال إیشانرا
أسیرکردند وحصار را مانند زمین هموار گردانید ند .

نقلست که بعد أزین واقعه یکی ازبخاریان بخراسان رفت ، شخصی أزو
پرسید که حال شما بکجا أنجامید ؟ جواب داد که :

«آمدند وکندند وسوختند وکشتند وبردند ورفتند» .

وفی الواقع در کلام فارسی عبارتی مختصر تر أزاین در بیان آنچه أز لشکر
مغول در بخارا بوقوع أنجامید بود نتوان یافت .

أما قصهٔ سمرقند چنان بود که در آن زمان که سلطان محمد خوار زمشاه
از توهم سپاه تاتار بتفرق ساختن حریفان مجلس رزم وپیکار می پراخت ، صدوده
هزار سوار جرار در سمرقند گذا شت وغلبهٔ خواص وعوام در آن بمثابهٔ
بود که محاسب وهم وخیال أز تعداد آن بعجز وقصور اعتراف می نمود ، وسمرقند
یان جهت احتیاط چندفصیل برگرد شهر کشیده بودند ، وخندق را بآب رسانیده.
بنابر آن جنگیز خان نخست به تسخیر بخاراوسایر بلدان ماوراء النهر وترکستان
پرداخت .وچون خاطر ازآن أمور فارغ ساخت در أواخر ذیحجه سنه ٦١٧ علم
نهضت بصوب آن بلده فاخره بر أفراخت ، ودر ظاهر سمرقند جمعی أز
شاهزادگان ولشکرها که بفتح أمصار مأمور گشته بودند بامردم حشری بوی پیوستند
جنگیز خان درکوك سرافرود آمده ، دوز آسایش نمود ، روز سوم طایفه أز
سرداران لشکر خوارز مشاهی بپای جلادت در میدان مبارزت تاختند وأز
جنود مغول فوجی کشته جمعی کثیر أسیر ودستگیر ساختند ، وروز جهارم
جنگیز خان بنفس خویش سوار شده روی بشهر آورد ومغولان برتبهٔ هجوم
نموده ، تندرالند ندکه مردم شهرر مجال نماندکه سرأز دروازة بیرون کنند، وشب
پنجم آرای ساکنان سمرقند مختلف گشته ، بعضی مایل بصلح شدند وزمرهٔ
ملاحظه حقوق سلطانی نموده بر مخالفت مصر بودند ، وچون دروازهٔ أفق مشرق
بسبب ظهور تباشیر صبح صادق مفتوح گشت قاضی وشیخ اسلام سمرقندبافوجی

از أشراف آنام أز شهر بیرون رفته بملازمت خان شتافتند وأمان طلبیدند ،
وجنگیز خان ایشانرا از قهر وسخط خود ایمن ساخته اجازت مراجعت ارزانی
داشت ، وایشان به سمرقند باز گشته دروازهٔ نماز گاه باز کردند واشکر مغول
در شهر ریخته . قاضی وشیخ الاسلام وپنجاه هزارکس أز اتباع آن دوبزرگ را
ازمردم جدا گردانید ، وباقی خلایق را بصحرا را نده دست بغارت وتاراج
برآوردند وروزدیگر همت بر تسخیر قلعه گما شته . أز جملهٔ محصوران ألب خان
باهزار کس از شجاعان دل ازجان برگرفته خود را برمیان لشکر مغول زدند ،
وبسلامت بیرون رفته در حدود عراق بسلطان محمد رسیدند ، وأورا بواسطهٔ
أخبار وحالات ما وراء مکدر وسراسیمه کردند. ودرهمانروز که ألب أزقلعهٔ
سمرقند بگریخت جنگیرخان بر آن حصار استیلاء یافته قرب سی نفر أزأمرای
خوارزمشاهی را باتمامی لشکریان بقتل رسانیدند ، وازسایرمردم سی هزارکس
کس که پیشه وربودند جدا ساخته . جنکیز خان ایشان را بر أولاد وأقرباء
خویش تقسیم کرد وأز بقیهٔ متمولان مبلغ دویست هزار دینار خونبها بستانید ،
وزیادة أزین تعرض نرسانید .

« خواندمیر : حبیب السیر »

سیاست و مملکت داری أمیر تیمور

أمیر تیمور درینکه یکی أز بزرگترین فاتحین وکشور گشایان وأزسرداران مدبر ورشید است شکی نیست ، لیکن درقساوت قلب وسخت کشی وبی رحمی وتعقیب کمتر نظیر دارد چنانکه درضمن لشکرکشی أو بهندوستان وبآسیای صغیر صغیر درجنگ یا ایلدرم بایزید عثمانی واضح میسازد .ودر جنگ بامنصور مظفری حاکم فارس وقتل عام أصفهان ودرست کردن کله مناره برای قساوت قلب وبی رحمی أوخوید دلیلی آشکاراست .

ولی باداشتن این صفت درأو کذا رکردن ممالك بسلاطین مغلوب کمتر نظیر دارد ،مانند بخشیدن هندوستان بسلطان محمود شاه تغلق پس أز فتح آن ،ووا گذشتن نواحی آسیای صغیر بایلدرم بایزید خان پس أز دستگیری أو وپسرانش .

أمیر تیمور در مملکتداری جانب عدالت رارعایت کرده بعدل وانصاف رفتار مینمود ، وبااینکه جنگها برمی گشت أزحال رعایا پرسش نموده حکام جور پیشه را أزکاری انداخت .

أمیر تیمور پس أزتسخیر هرشهر فرمان میدادکه أرباب حرف وصناعات را ازمیان أهالی جدا کرده ودر رکاب موکب عالی بسمرقند برند تادر ساختن بناهای آنشهر مشغول شوند .

أمیر تیمور در إشاعة مذهب اسلام وبر قراری یاسای جنگیزی وتفوق دادن عنصر ترك متعصب ، مسلمان وراء النهر برسایر مسلمین سعی بلیغ مبذول داشته ، وبیشتر أوقات در مجالس درس علما وزهاد حاضر میشد ، وهر روز مجالسی علما وفضلا جهت مباحثه ترتیب میدادند .

أمیر تیمور بااینکه أندکی أز لحاظ تعصب مذهبی نسبت بعلما و دانشمندان جانب احترام رامرعی میداشت ، ولی از آنجائیکه طبیعت بدوی و ذوق سلحشوران نمی تواند لطافت و شیرینی را که ممکن است أز أدبیات بدست آورد استفاده نماید .

وسعت ممالك تیموری نسبت بممالك جنگیزی اندکی کمتر بوداست زیرا اگرچه أمیر تیمور هندوستان وقسمتی أز روسیه رازیادتر أز ممالك جنگیزی در تصرف داشت ، ولی جون نتوانست بفتح چین نایل شود وسعت ممالك أو بممالك جنگیزی نرسیده است .

استبداد أمیر تیمور وعدم اعتنای أو بکارهای إدارة ممالك خودنگذاشته است که در زمان أو وزرائی بزرگ مانندوزرای أیام جنگیزخان بظهور برسد . وکسانیکه در ایام تیمور عنوان وزارت داشته أندهمه مردمان گمنام أندکه بیشتر منشیان مخصوص أمیر تیمور محسوب میشوند ، وهیج نوع آثار کفایتی أز إیشان در إدارة ممالك مشهور نشده است ، وغالب إیشان راهم أمیر تیمور درنتیجة أندك ملامتی که أز آنها حاصل میکرده بقتل میرسانده است .

« رضا بازوکی : ازمغول تا افشاریه »

ظهير الدين محمد بابر

فاتح هندوستان

روز پنجشنبه سلخ جماد الآخر سنة نهصدوسی ودو (۹۳۲) بقرب بلدة پانی‌پته درشش گروهی أردوی سلطان إبراهیم نزول واقع شد وعدد لشكر سلطان إبراهیم یك لك سواروهزارفیل ،ولشكر بابر پادشاه پانزده هزارسواد وپیاده تخمین نموده بودند .هروز سپاهیان بابر پادشاه أزگوشه‌وكنار سپاه أفغانان تاخته سرهامی آوردند وأزسلطان إبراهیم ولشكریانش درین مدت أصلا حركتی وجرأتی واقع نشد . تاشبی مهدی خواجه ومحمد سلطان میرزا ودیگر أمرا باپنج هزاركس برلشكر سلطان إبراهیم شبخون بردند ، وبسیاری را أز آن مردم بهلاكت رسانیده بسلامت برآمدند . وغنیم باوجوداین پراگندگی متنبه نشد . وروز جمعه هشتم رجب المرجب أزسنة مذكوره سلطان إبراهیم بأفواج گران بلباس آهنین آداسته برآمد وبابر پادشاة نیز بادبدبه عظمت وشوكت تمام سپاه خودراترتیب داده در مقام ثبات إیستاده فرمان دادكه أزجانب جرانغار أمیر قراقورچی وأمیر شیخ علی ودیگر أمرا . وأزجانب برانغار ولی قزل وبابا قشقه باتمامی جماعت مغول دودفعه شده أزعقب سپاه مخالف محاربه نمایند . وأز مقابله أمرای برنغار وجرانغار . ... وأز أفواج خاصة أمیر محمد گوگلتاش وأمیر یونس علی ودیگر أمرای نامداد درآیند . وچون أفغانان بجانب برنغار بیشترتوجه نموده بودند أمیر عبد العزیز كه‌طرح بود حسب فرمان پادشاهی بمدد برنغار رفت وغنیم برشبیه تیرگرفتند وأجساد مخالفان پربر أورده ، مرغ روح بعضی أذ قفص قالب پرواز می نمود : (شعر) :

چنان خون روان شد بدشت نبرد

که چون سیل بردی زجاپای مرد

نسیمی که آید سحر زان مقام

دهد بوی خون جگردر مشام

وأزکشته پشته پشته شد وجمعی باقی‌ماندند طعمهٔ زاغ وزغن گشتند .

وسلطان إبراهیم رادر ویرانهٔ ناشناخته باجمعی أز نزدیکان زیر تیغ کشیدند وسرش درنظر بابر پادشاه أوردند . قریب پنج شش هزارکس نزدیك سلطان إبراهیم دریك موضع بقتل رسیده بودند .

وبابر پادشاه أزآنجا بعدأز چنین فتحی عظیم همان‌روز در دهلی نزول فرمود وخطبه‌را بنام‌خوددرست گردانید . وشاهزاده محمد همایون میرزا وسایر أمرا رابجانب أگرا حکم ایلغارشد ، وخزانهٔ إبراهیم را که بی پایان بودبدست أوردند ، وبر سپاهیان قسمت کردند ، وأزآنگاه بازسلطنت أزخاندان أفغان لودی منتقل شده بدودمان أمیر تیمور صاحبقران قراریافت .

ظهیر الدین محمد بابر پادشاه غازی بعد أز آن بر تخت سلطنت جلوس فرمود وعالم را بداد ودهش ذیب وفردیگر داد وبسمرقند وعراق وکاشغر وخراسان إنعامات فرستاد وبمکهٔ ومدینهٔ‌مقدسهٔ‌ومزارات متبرکهٔ نذرها أرسال داشت‌وبتمامی مردم بدخشان وکابل جدا جدا أزخزاین موفوره هندوستان زرنی قیمت روانه گردانید وجهان را گلستان ساخت وأمرای هندوستان باوجود أستمالت وترفیه حال باطاعت درنمی آمدند ، ومتوحش درقلاع وبقاع تحصن جستند . وقنوج وسایر بلاد شرقیه درتصرف أفغان بود که درزمان سلطان إبراهیم نیز إطاعت نمیکردند . ولدبهارخان رابه پادشاهی برداشته سلطان محمد لقب کردند .

وشاهزادة محمد همايون ميرزا باجمعى از امرا كه براى ضبط وفتح دهلپور معين بودند برسر جماعة افغانان لوحانى كه قريب پنجاه هزار كس از قنوج پيشتر آمده بودند نامزد ساختند ، وشاهزاده ولايت شرقى راتا جونپور مستخلص گردانيد .

درين اثنا رانا سانگا بحدود ميانه ميرسد ودست اندازى درولايت مى نمايد ، وروزى چند توقف در حدود كرده بفتحپور ميرسد ، بابر پاد شاه باقليلى از سپاه حاضر دار السلطنة اگره عازم جنگ شده فرمان طلب بنام شاهزاده محمدهمايون ميرزا مى نويسد كه جونپور را به بعضى امراى نامدار سپرده خود بسرعت برسد تادرين غزا شريك باشد . امرادر كنكاش نشسته ، راى اكثرى برآن قرار مى يابدكه چون لشكر راناسنكا ازمور وملخ بيشتر شنيده مى شود مصلحت آنست كه قلعه اگرا استحكام داده باجمعى سپرده ، بادشاه بانفس نفيس خود جانب بنجاب دفته منتظر لطيفه غيبى باشد . پادشاه اين كنكاش راقبول نفرموده وبه نيت جهاد كمر عزيمت بربسته ودل برشهادت نهاده بجانب ميدان فتحپور توجه فرمود ، واين مضمون را پيش نهاد والا همت داشت : (شعر)

چوجان آخر ازتن ضرورت رود

همان به كه بارى بعزت رود

سرانجام گيتى همين است وبس

كه نامى پس از مرگ ماند بكس

وامراد سعه بكلام مجيد [قرآن] برده ر تجديد عهد وامضاى عزيمت غزا واعلاى كلمة عليا وترويج شريعت غرا قسم خورده معركه رزم را بزم دانستند

وداد مردانگی داد ندکه چشم روزگار ندیده بود . و بعد از جد واجتهاد بسیار علم دولت إسلام إرتفاع گرفت ورایات کفر نگون ساری یافت .

بعد أزین فتح بأندك فرصة عارضة بیماری برذات آن پادشاه غازی طاری شد

وبعد از آنك سن شریفش به پنجاة سال رسیده بود ، درسته سبع وثلاثین وتسعمایه (۹۳۷) أز عالم فانی بملك جاودانی انتقال فرمود .

« بدوانی : منتخب التواریخ »

تاج محـــل

عمارت تاج محل را که درشهر آگره شاه جهان پادشاه برای مدفن زوجه‌خود ساخته است بهترین نمونه وعالیترین مثـــال بناهای إسلامی هند ومشهور آفاق است .

تاج محل یکی أز زیباترین آثار معماری روی زمین میباشد،وظریفترین ساختمان مرمری است که دست بشر تا کنون درجهان کرده وأزعجائب عالم صنعت است . این شاهـکاری معماری برکنار رود جمنه درشهر آگره واقع شده ، وآرامگاهی است که شاهجهان برای مقبرهٔ همسر خود محبوب أرجمند بانو بیکیم ملقب بممتاز محل بنا فرمود درسال ۱۰٤۰هـ/۱٦۳۱م شروع وهفت‌سال‌بعد أز مرگ آن ملـکه خاتمه‌یافت ،شاهجهان گروهی‌أز صنعتـگران أز أطراف‌جهان‌برای این ساختمان در دربار خود جمع آورد که درمیان آنها نام أستادعیسی افندی أز ترکیه ومحمد شریف سمر قند وأمانت خان شیرازی ومحمد خان شیرازی وواجـد خان بغدادی وعطا محمد بخارائی‌ومحمد سبحان بلخی دیده میشود.ونیز معماران هند بنام لال‌قنوجی ومنوهر لال لاهودی نیز شرکت داشته أند ولی متأسفانه مهندس نخستین که طرح أول بنارا رسم کردهٔ هنوز مجهول‌ومخفی ماند . وگویندکه شاه جهان ، خود طرّاح ومهندس آن بنای‌عظم بودهٔ است .

تأثیر سبک معماری إسلامی وبالخـاصه إیرانی در تاج محل بخوبی مشهور ونمایان ، وکمتر سبک هندی درآن إحساس میگردد .

شاهجهان نیز بعد أزوفات برحسب وصیت درهمان مقبره درجنب همسر خود مدفون‌گردید .

أمانت خان خطاط که طغرا نویس کتیبه های قرآنی آن روضه عالی است در درب داخلی نام خود وسال اختتام ساختمان‌را چنین رقم کرده‌است :
« الفقیر الحقیر أمانت خان شیرازی سنه ۱۰٤۸ هجری مطابق دوازدهم سنه جلوس مبارك » .

« علی اصغر حکمت : سرزمین هند »

توسعه إسلام درهند

از زمان حملات غزنویان وپس از آن دورة سلاطین هندوستان شمالی دردهلی تاآخر دورة طولانی سلطنت مغولیه همواره تنازع وکشمکش شدیدی ما بین هندوئیزم واسلام درآن کشور برقرار بودکه پیوسته تازمان حاضر إدامه دارد. مسلمانان تابعین مذاهب هندوئی وبودائی وچین راکه صور وتماثیل در معابد خود دارند «بت پرست ومشرك» دانسته وخود معتقد بعقیدة توحید، ومؤمن بخدای غیبی ویگانه بودند وتعلیم این عقاید شریفه را از واجبات دین میدانستند.

چون سلاطین ترك وتاتار وأفغان که بر نواحی شمال وجنوب هندوستان بتفاریق حکومت میکردند مذهب اسلام رایگانه مذهب حق وغزای بامشرکین را موجب أجر اخروی میدانسته اند باین واسطه باراجه ها وسلاطین هندو پیوسته درجنك وجدال بودند. از ینرو بسیاری أز هندوان أز طبقات عالیه وسافلة برای حفظ جان ومال خود وفرار أز أدای جزیه خواه ناخواه بدین اسلام درآمدند. ونیز از آنجا که دعوی کراسی إسلام شرف وفضیلت برتری رامنحصر بصفت محموده تقوی میداند وتمام مسلمانان را أز شاه وگدا برابر وبرادر میشمارد، طبقات زیردستان هندکه دچار مذلت وفرسوده جور بودند بدین إسلام راغب شدند. أز طرف دیگر سیل مهاجرین که بقصد غارت یا بطمع کسب وتجارت أز ممالك غربی آسیا همواره بهندوستان رومیآوردند، ودر طول مدت هشت قرن هزاران نفوس مسلمان بر سکنه بومی هندوستان بالأخص در شهرهای بزرك إضافة میکرد، در نتیجه در سراسرآن شبه قادره در طول این مدت بیش أز ربع کل سکنه متدین بدین حنیف إسلام کشتند.

* * *

آمیز واختلاط دو تمدن هند وئیزم کهن وإسلام نوین در مظاهر مختلفة إجتماعی هندوستان بخصوص در أدبیات ودین وفلسفة وعرفان بیش أزهمه جلوگر گردید . دهلی که پایتخت سلاطین مسلمان هند بورد درمدت هشت قرن یکی أز مراکز مهمه مطالعات علوم عالیه أدب وفنون ومعقول ومنقول إسلام گردید چنانکه باسمرقند وبغداد لاف برابری میزد . درین زمان است که ابن بطوطه سیاح معروف عرب درکشور هندوستان سیاحت کرده وهشت سال تمام درآن زمین . إقامت جسته وسپس بچین رفته ورحله خودرا نوشته است هما نطور که شعر وفلسفه ودین درآن زمان أز ایران بهندوستان سرایت نمود ، أفکار هندوئی نیز در تصوف اسلامی نفوذ بسیارکرد . م درین زمان مبادی دموکراسی إسلام وتساوی سید قرشی باغلام حبشی در هندوستان که قرنها معتاده بهسیستم أصناف «کاست» بود تأثیرات فراوان داشت ، وهزارها نفر أز طبقات سافلة وعالیه هند بدین إسلام درآمدند . محققین ومتفکرین هندونژاد مبادی، وجدت عقاید واشتراك مبانی أدیان را وضع کردند. أزآن میان بابا نانک مؤسس مذهب جدیدی گردیدکه خرافات وأوهام هندوئی وتعصیب وتفوق أفراد بشری را بریکدیکر منکر کشت وبخدای یکانه إیمان آورد . وی دین جدیدی برپایه تساوی أفراد وتوحید وتقوی تأسیس کردکه بعدها بنام سیکیزم در هندوستان شمالی بحد کمال رسید .

« علی أصغر حکمت . سرزمین هند »

إثبات أهم المراجع

١ — تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم .
للدكتور أحمد محمود الساداتى ٥١٢ صفحة القاهرة : ١٩٥٧ ، ١٩٥٩ ، ١٩٧٠ م

٢ — حضارات الهند لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر — القاهرة ١٩٤٨ م

٣ — الهند وجيرانها لول ديورانت ترجمة د . زكى نجيب محمود القاهرة : ١٩٢٠ م

٤ — تراث فارس تأليف أر برى ترجمة د . أحمد الساداتى وآخرين باشراف ا . د . يحيى الخشاب . القاهرة - ١٩٥٩ م

٥ — تاريخ الدولة العثمانية ، تأليف محمد فريد . القاهرة

٦ - رضا شاه بهلوى : نهضة ايران الحديثة للدكتور أحمد الساداتى . القاهرة : ١٩٣٩ م

٧ — تاريخ عمومى ايران (فارسى) لعباس إقبال . طهران .

٨ — حبيب السير لخواندمير (فارس) طهران ١٣٧٣ش .

٩ — تاريخ سلاطين أفغانى لأحمد يادكر — تهران (فارسى) .

١٠ — تاريخ بخارى تأليف أرمينيوس فامبرى وترجمة الدكتور أحمد الساداتى مع تعليقات وزيادات — ٤٩٩ صفحة — القاهرة ١٩٦٥ م

١١ — تاريخ الطبرى — القاهرة : ١٣٢٣ هـ .

١٢ — تاريخ الكامل لابن الأثير القاهرة : ١٣٠٢ هـ .

١٣ — تتمة البيان در تاريخ أفغان (فارسى) لجمال الدين الأفغانى . القاهرة : ١٣٢٢ هـ .

١٤ — جنكيزخان لها رولد لامب — ترجمة بهاء الدين . بغداد ١٧٤٦ م

١٥ — حاضر العالم الإسلامى ، تأليف لوثرب بتعليقات وإضافات مستفيضة بقلم شكيب أرسلان . القاهرة : ١٣٥٢ هـ .

١٦ — إيران فى عهد الساسانيين تأليف كريستنسن ترجمة يحيى الخشاب القاهرة : ١٩٥٧ .

1. Ahsanullah; History of Moslem World.
2. Armstrong; The Grey Wolf. (mustafa Kemal)
3. Baymirza Hayit, Turkestan. Darmstadt 1957
4. Broeckelmann; Geschichte des Islamischen Voelker. 1940
5. Dunbar, G. AA, History of India.
6. Esref; Mustafa Kemal.
7. Evrenol : Revolutionary Turkey. Ankara 1936
8. Garnette; Turkey of the Ottomens London 1911.
9. Haidar Bammate : Visages de l'Islam. Lausanne 1946
10. Hans, Kohn; Geschichte der Nationalen Bewegungen im Orient.
11. Havell. E: The History of Aryan Rule in India. London.
12. Ichwari Prasad : Muslim Rule in India. Allahabad 1933.
13. Melzig; Resa Schah
14. Moustapha Djelaleddin. Les Turcs, anciens et modernes: Paris 1870.
15. Sirdar Ikbal Ali Schah. Afghanistan; London 1928.

فهرس أبجدى عام

(إثبات أهم المراجع)

أولا :

(ا)

(م)

محتويات الكتاب

القسم الأول : تاريخ الشعوب الإسلامية وحضارتها فى شبه القـــارة الهندية الباكستانية :

الدولة المغولية

صفحة

صفحة

تم الكتاب بحمد الله

رقم الايـداع بـدار الكتب المصـــرية
١٩٧٩/٢٦٣٨ م

الترقيـم الـدولى
١ - ٩٦ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

مطبعـة دار نشر الثقـــافة
٢١ شارع كامل صـدقي بالفجـالة
ت : ٩١٦٠٧٦ - القاهرة

